تأبين
المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

الدكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

أود فى هذه الكلمات القليلة ، بمناسبة تأبين الأستاذ الدكتور محمد عبدالهادى شعيرة ، أن أتخفف من دين فى أعناق تلامذته ، فى مصر والبلاد العربية ، الذين عرفوا قدره ، وقدروا فضله ، ونهلوا من علمه الغزير ؛ حيث كان عطاؤه لهم عطاء بغير حدود ، فضلا عن أنه كان لهم قدوة فى الحياة ، يتحلى بأعلى الصفات ، من تواضع جم ، هو تواضع العلماء .

فقد كان - رحمه الله - من كبار رواد علم التاريخ الإسلامى ، المتطور إلى المنهج العلمى الحديث ، شد الانتباه إلى موضوع مبتكر فيه ، لم يسبقه إليه أحد فى الشرق ؛ جعله محوراً لدراساته وأعماله ؛ هو موضوع الثغور الإسلامية ، وهى مواقع الحصون على الحدود ؛ بحيث حببه إلى كثير من الباحثين فى الشرق ، وكأنه نوع من المغازى ، الذى كان هو الآخر ؛ قد لقى قبولا من مؤرخى الإسلام الأوائل ؛ بما كان يتناوله من أمجاد العرب .

ولعل باكورة أعماله فى هذا الميدان ؛ رسالته الأولى للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة السوربون فى باريس بعنوان[1] :

" La Lutte entre Arabes et Byzantins "

(١) غير مترجمة ، طبعت فى الإسكندرية ١٩٤٧ .

أى الصراع بين العرب والبيزنطيين ، بين فيها أن نجاح العرب فى اقتطاع جزء كبير من أمبراطورية البيزنطيين أو الروم ، يعود فى المقام الأول إلى وحدة الأمة العربية ، التى وضع بذورها نبى الإسلام ، واستكملت على يد أبى بكر ، مما أدى إلى خروج العرب كفاتحين ؛ بحيث سرعان ما أصبح لقب خليفة ، يفوق لقب أمبراطور ؛ مع أن العرب طوال تاريخهم السابق ؛ قد عرفوا بالفردية والتطاحن والعصبية .

ومع ذلك ؛ فهو لا يرى أن سبب نجاح الفتوحات العربية ؛ يرجع بالأولى إلى مبدأ المباهلة ، ذلك المبدأ الذى ذكر فى القرآن ؛ ليعنى تأييد الله للمسلمين فى فتوحاتهم ؛ فهو لا يريد أن يسخر دعوة الدين فى الغزو والفتح ؛ وإن كان الصحابة قد استغلوا هذا الشعور الدينى ؛ بما ورد فى القرآن والحديث النبوى ؛ فهى محاولة جريئة منه ؛ لتفسير حركة الفتوحات العربية .

وعلى كل حال ؛ بعد أن أقام المسلمون حدودهم مع الروم فى البر والبحر ؛ اتخذوا سياسة حدود ثابتة ؛ فلجأوا إلى الدفاع عنها ؛ عن طريق الحصون ، والحملات السنوية ، شتاء وصيفاً وربيعاً ؛ بحيث انتظمت على أيديهم ؛ بشكل لم يعرف من قبل ، لأى أمة من الأمم .

وقـــد جر إهتمامه بموضوع الثغور الإسلامية ؛ أن يكتب سلسلة من الأبحاث عنها ؛ منها البحث الطويل : الممالك الحليفة ، أو ممالك ماوراء النهر ، والدولة الإسلامية إلى أيام المعتصم[1] ؛ يتعرض فيه لحدود الإسلام الشمالية الملاصقة للترك ؛ وهو موضوع لم يتناوله باحث عربى قبله ، بسبب صعوبته ؛ التى تظهر من تعدد تقسيماته، مثل: طخارستان، صغانيان ، شومان،طالقان،الختل، كش ، نخشب ، بخارى ، سمرقند ، الصغد ، خوارزم ، فرغانه ، الشاش ؛ حيث

(١) مستخرج من مجلة كليـة الآداب بجامعة فاروق الأول ، المجلد الرابع ، الإسكندرية ١٩٤٨ .

ركز فيه على سياسة تكوين الأحلاف ، التى يعتبرها الجانب السلمى ، الذى فاق الجانب الحربى فى سياستهم ؛ فكانت مرونة السياسة العربية ، وقله خطئها ، أن جعلها تتحاشى فى أكثر أمرها العنف الجارح للعزة القومية ، فى هذه النواحى ؛ مما كان سبباً فى انتشار الإسلام ذاتياً ؛ بحيث أن الترك الذين أقبلوا على الإسلام ؛ سرعان ما جاهدوا مع المسلمين ضد بنى جلدتهم من الكفار ؛ وأصبحوا بعد قرن واحد يؤلفون نواة الجيش المركزى ، الذى تعتمد عليه الخلافة ؛ ومع ذلك ، فإن العرب كانوا يؤيدون هذه الأحلاف ؛ بالغزو السنوى ، استبقاء لطاعة الأحلاف ، واستظهاراً للقوة أمام من وراء الأحلاف من الأعداء .

ومنها أيضاً ، بحث بالفرنسية بعنوان[1] : Le Statut des pays de 'Ahd aux VII e et VIII e siècles. ، أى حالة بلاد العهد فى القرنين السابع والثامن ؛ كان ألقاه فى مؤتمر المستشرقين الحادى والعشرين عام ١٩٤٨ ؛ حيث نشر ملخص له فى كتيب المؤتمر Actes ؛ تناول فيه نظاماً سلمياً ثغريا آخر ؛ كان يعبر عنه بالاصطلاح « أهل العهد » ، وهو الذى يجعل أهل البلاد المجاورين للثغور الإسلامية « مصالحين » ؛ فهذا التنظيم الذى تحدث عنه أبو يوسف والماوردى بإيجاز شديد ، ولم يكن يعنى شيئاً لدى كثير من المؤرخين الأوائل ، أبرزه برؤية جديدة ؛ حينما أراد أن يطبقه على أقاليم ثغرية متعددة ، مثل النوبة وقبرس وأرمينية ، وحتى على بلاد ما وراء النهر .

ولقد جعلته خبرته بالثغور الإسلامية وأقاليمها ؛ أن يضيف إلى أبحاثه السابقة ؛ بحثاً قيماً آخر ، بعنوان : تقسيمات إقليمية فى العصر العباسى الأول ، وظهور الشرق الأدنى فى الإسلام[2] ؛ تعرض فيه لناحية لم يتنبه لها المؤرخون الأوائل وحتى المحدثون ، الذين كانوا يقسمون الإسلام من ناحية السياسية

---

(١) غير مترجم ، نشر فى القاهرة ، ١٩٥١ .

(٢) بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، المجلد الثانى ، ١٩٤٤ .

إلى شرقى وغربى ، ويجعلون إيران والعراق والشام ومصر وما حول هذه البلاد مشرقاً ، وإفريقية والأندلس وما حولها مغرباً ؛ ولكنه أراد أن يضيف تقسيماً ثالثاً ، بتقسيم المشرق الإسلامى إلى قسمين : — شرقى وغربى ؛ مما قد يكون سبباً فى ميلاد اصطلاح الشرق الأدنى ، الذى يجرى على ألسنتنا حالياً ؛ وذلك بالرجوع إلى أصوله الأولى ، التى سجلتها كتب التاريخ القديمة ؛ فهذا التجزؤ ظهر مع قيام الدولة العباسية تقريباً ، باطلاق كلمة المغاربة على سكان البلاد التى تقع غربى إقليم العاصمة العراقية ، لتعنى مصر وما حولها ؛ وذلك بقصد أن يناقص نظرة لامانس «Lammans» الضيقة، التى لا تبين مكانة مصر ؛ حيث كانت لفظة المغاربة تعنيها ، وتتردد كثيراً على ألسنة الساسة .

وإلحاقاً بفكرة التقسيمات السابقة ؛ فإنه عمد إلى بحث قضية تاريخية هامة ، هى وحدة مصر والشام ، ظهرت فى التاريخ الإسلامى منذ السنين الأولى لقيام العباسيين ، واستمرت قائمة قريباً من ثمانية قرون ، إلى أن غلب الترك العثمانيون على الخلافة ؛ فخصص لها كتاباً بعنوان : « شامصر ، المغرب فى عصور الإسلام » ؛ لم يطبع إلا فى ملازم ، وهى تسمية مبتكرة من قبله ؛ ليؤكد بها هذه الوحدة ؛ يجمع بين اسمى مصر والشام ؛ مما يدل على علمية كبيرة وعاطفة قوية ؛ مأخوذة من أن شامصر ، هى المغرب ، مثلما ترددت فى الكتب الإسلامية القديمة ، وكأنها نداء تاريخى .

كذلك اهتم بالثغور الغربية للإسلام ؛ واختص منها دولة المرابطين[1] ، التى هى تسمية على اسم الرباط ، أو الأماكن المحصنة التى تكون على الساحل أو الحدود ، لمراقبة العدو وجهاده ؛ وهو عبارة عن تصوير لحياة هذه الدولة السياسية ، باعتبارها دولة دانت بمبدأين خاصين هما : مبدأ الوحدة ، ومبدأ الجهاد ؛ فحققت أهدافها فى المغرب والأندلس ، واستحقت بذلك ، تحمس

---

(١) الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٩ . انظر أيضاً : شعيرة ، الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية ، المؤتمر التاريخى ، كلية الآداب ببنغازى ١٩٦٨ .

المشرق لها ؛ مقسماً تاريخهـــا إلى ثلاثة مراحل : الصحراوية ، والمغربية ، والأندلسية . حقاً إن المؤرخ النابغ الأستاذ عبد الله عنان ؛ قد تعرض لهذا الموضوع من قبل ؛ إلا أن الباحث قـد اعتمد على أوثق المصادر ؛ سيما ابن خلدون ؛ مما جعله ينهج منهجاً مختلفاً .

ومع علمـــه الغزير بموضوع الثغور ، الذى ظهر واضحاً من أبحاثه السابقة وتآليفه ، وتعاطفه الفنى معه ؛ فإنه لجأ أيضا إلى ترجمة بعض ماكتبه عنه المستشرقون ؛ سيما فازيلييف « Vasiliev » فترجم كتابه : العرب والروم ، من الفرنسية إلى العربية ؛ فنقل به بعض فكر المستشرقين عن موضوع الثغور[1] .

* * *

هذه الكتب والبحوث وغيرها ؛ قامت ولاشك على أسس علمية منهجية ، فضلا عن أنه أول باحث عربى ، لايقتصر فى بحثه على المصادر القلمية التقليدية ، عربية وإسلامية ، وإنما اعتمد أيضا على مصادر ليست من تآليف العرب أو المسلمين ؛ ولكن من تآليف مؤرخين بيزنطيين أعداء العرب ، أو حتى مسيحيين من الرهبان وغيرهم .

كذلك هو من أوائل المؤرخين العرب ، الذين تنبهوا إلى قيمة البرديات ، كمصدر لعلم التاريخ ، ومنبع مباشر يتصل به المؤرخ ؛ بحيث نعتبره أول عالم مصرى انتفع بها على نطاق واسع فى أبحاثه ؛ فلعل ذلك كان نابعا من إحساسه المصرى الدال على الأصالة ؛ بحكم أن الورق البردى أول ما صنع فى مصر ، وهو الذى عرف للعرب باسم القرطاس ، التى وردت فى القرآن الكريم ؛ مما

---

(١) كذلك له ترجمة لسلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ألقاها عامى ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، الأستاذ ليفى بروفنسال «Lévi—Provençal» ، وراجعها عبدالحميد العبادى ، القاهرة ١٩٥١ .

أكسبها قدسية خاصة ؛ مثل تسمية مصر . وبسبب أن بعض البرديات قد كتبت باليونانية ؛ فإنه لم يتردد فى دراسة اللغة اليونانية ، ومتابعة محاضرات مدرسة الدراسات العليـــا فى باريس : Ecole des Hautes Etudes ؛ للتعود على قراءتها .

وقد ظهرت له عدة أبحاث عنها ، منها رسالته الثانية ، التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من السوربون بعنوان :

La Documemtation papyrologique de l'Epoque arabe Catalogue des papyrus grecs, publiés d'époque arabe, concernant l'Egypte.

أى الوثائق البردية من العصر العربى ، قائمة بالبرديات اليونانية المنشورة من العصر العربى ؛ خاصة بمصر[1] ؛ فكان الذى دعاه إلى جمع البرديات اليونانية بالذات ، بسبب أن استعمال اليونانية لم يستمر بعد قيام الفتح العربى ؛ ولأنها اشتملت على نظم كثيرة ، من بيع وزواج وضرائب وظلامات وطلب عمال من مصر لبناء المساجد فى دمشق أو القدس ، وطلب بحارة ؛ بحيث جمع منها قائمة بأسماء ٦٥٨ بردية . وفى سبيل جمعها بذل جهداً كبيراً ، واضطر إلى أن يرجع إلى مانشره منها علماء البرديات ، فى الدوريات والفهارس ، مثـــل :
Bilabel, Crum, Bell, Becker *Zeretelli*, Schmidt, Turner, Grenfell, Frisk, Grohman, Zilliacus, Wilcken, Wessely وغيرهم .

ولعل اهتمامه بالبرديات جعـــله يكتب بحثاً بالفرنسية ، بعنوان [2] :
Le Pagarque au le siècle P H; d'après les papyrus d'Aphrodito.

يتناول فيه وظيفة الباجارك البيزنطية ؛ وهو موظف كبير فى الأقاليم ، له أنشطة متعددة ،لم يعد يوجد بلفظه الحرفى فىالعصر العربى ، وإن وجد بمضمونه

---

(١) غير مترجمة ، وطبعت فى الإسكندرية ١٩٤٨ .
(٢) نشر القاهرة

تحت لفظة « صاحب » ؛ فى هذه المقالة القيمة ، يقوم بدراسة مقارنة مستغلا البرديات اليونانية والقبطية والعربية ؛ ليبين حقيقة وظيفته فى الباجوس Pagus، التى أصبحت تقابل الكورة العربية .

وبسبب تقديره لأهميـــة الوثيقة عموما كمصدر فى التاريخ ، شارك مع الدكتور / كامل حسين،فى تحقيق مخطوط هام بعنوان[١] : سيرة الأستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين ، تصنيف أبى على منصور العزيزى الجوذرى ، التى تتناول عرضا للحياة الرسمية ، فى حياة الدولة الفاطمية ، لمدة أربعين عاماً ، عن طريق عرض سيرة جوذر ، الرجل الهام فيها بعد الأئمة .

ولقد وضح لى بحق من تلك القراءة الحالية لمؤلفاته وأبحاثه القيمة ، فى مناسبة تأبينه ، بعد مرور هذه الأعوام الطويلة على نشرها ، قيمة هذا المؤرخ المجيد ، فى فهم التاريخ الإسلامى ، وعينه الخبيرة التى تنفذ إلى أعماق الأعماق ، لكى يصل إلى الحقيقة ؛ فالتاريخ مهما قيل فيه يصنعه المؤرخون ؛ ذلك الأمر الذى لا يخطئه الفهم الصحيح .

ومما يذكر عن الأستاذ الدكتور / شعيرة ، أنه لما وقعت نكسة ١٩٦٧ ، وكان معاراً وقتئذ لجامعة الجزائر ، فإنه أصيب بالشلل ؛ حيث يذكر تلامذته هناك ، أنه وهو طريح الفراش ، كان يهتف بالفرنسية : A Bas le Sionisme فلتسقط الصهيونية ؛ وذلك بسبب إختراق اليهود حدود مصر ؛ وقلقه على بلده الحبيب .

هذا هو الأستاذ الدكتور / محمد عبد الهادى شعيرة ، العالم،المحقق ، المدقق ، المبتكر ، البصير ، المتواضع ، الودود ، تغمده الله برحمتـــه ، وألهم ذويه وتلامذته الصبر والسلوان ، ونفعنا جميعاً بعلمه وفضله .

---

(١) طبعة القاهرة .

الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

ونظرية الحلف فى توسيع الدولة الإسلامية

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

قدم إلى حفل التأبين الذى أقامته الجمعيـــة المصرية
للدراسات التاريخية فى ٢٥/٤/١٩٧٧

حضرات السادة :

هندما علمت بما أزمعته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من إقامة هذا الحفل الذى يؤبن فيه الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، انتابتنى رغبة جامحة من أجل المشاركة فيه ، كنوع من الاعتراف بالجميل لأستاذ جليل وصديق كريم ، طالما غمرنى - إلى جانب فيض علمه — بفيض من الأخوة والكرم والمودة .

ولكنه لما كانت النية الطيبة وحدها لا تكفى لأداء حقوق الأستاذ الراحل على تلميذه ، فانى استسمحكم عذراً إذا كنت لا استطيع أن أحسن الكلام فى مثل مناسبة التأبين هذه . فالموقف يتطلب شيئاً من ضبط النفس ، وكثيراً من صفاء الذهن ، وقدراً لا بأس به من حسن التعبير عن تلك المشاعر العميقة التى تربط بين الأستاذ والتلميذ ، وخاصة عندما تتوثق تلك المشاعر وترقى بتجربة روحية شبيهة بتجارب الصوفية التى توحد بين الشيخ والمريد — وفى مقامى هذا لا استطيع أن أدعى لنفسى أيا من هذه الخصال .

ومع أنني لا أقصد إلى أن تكون كلمتى فى الندب والرثاء ، فان المناسبة تثير فى نفسى ذكريات أساتذتنا الذين سبقوا الدكتور شعيرة إلى جوار ربهم فى موكب الخالدين ، أتذكر : عبد الحميد العبادى ، ومحمد مصطفى زيادة ، وحسن ابراهيم حسن ، ومحمد مصطفى صفوت ، وجمال الدين الشيال ، وحسن عثمان ، وأحمد فكرى ، غفر الله لهم وجزاهم عنا خير الجزاء . وهكذا يذكرنى تأبين الدكتور شعيرة ببيتين من الشعر ، قالها متمم بن نويرة فى أخيه مالك الذى مات فى حرب الردة ، وكان متمم ، بعد ذلك لا يرى فى العراق قبراً ألا يبكى مما كان يثير عجب الناس ، وفى ذلك يقول ، وكأنه فى حوار مع بعض أصحابه .

أمن أجل قبر بالمَلاَ أنا نائحٌ   على كل قبر أو على كل هالك
فقلت له : ان الشجا يبعث الشجا   فدعنى ، فهذا كله قبر مالك(١)

وإذا تركنا الرثاء جانبا وفيه مافيه من العبرة والموعظة ، فانني أود لو استطعت أن أجعل من مناسبة تأبين الدكتور شعيرة فرصة لتدوين فصل أو فقرات فى كتاب من ذلك النوع الذى عرفه علماء المسلمين فى المغرب والأندلس باسم الفهرسة ، وعرفوا فيه بسير مشايخهم ، والعلوم التى برعوا فيها ، والكتب التى ألفوها ، وتلك التى أجازوهم بقراءتها عليهم . وهذا النوع من الكتب القديمة أشبه بما يسمى فى أيامنا هذه بالكتب التذكارية التى تصنف فى مثل مناسبتنا هذه ، والتى أرجوا أن يكون الدكتور شعيرة كتاب منها يليق بمقامه كواحد من أبرز مؤرخينا المحدثين . وزملاء الدكتور شعيرة وتلاميذه فى مصر وفى البلاد العربية كفيلون بإنجاز هذا العمل .

وأرجو ألا يفهم من أننى أعددت بحثا عن الدكتورة شعيرة : الأستاذ

(١) نهاية الارب ، ج ٥ ، ص ١٧٩

المعلم المؤرخ الباحث . إنما هى خطوات من وحى ساعتها ، لا بأس أن أعرضها فى تلك العجالة ، وأرجو أن تكون محاولة أولية لما آمل أن يكون دراسة لسيرة الدكتور شعيرة ، ومنهجه فى دراسة التأريخ الإسلامى ، ونظرياته فى حضارة الإسلام ، وتطور المجتمع الإسلامى إلى الشكل الذى صار عليه الآن . وأظن ان بعض ما أذكره من كل ذلك لم تتح له فرصة النشر ، فقد كان ذلك مما يمليه الأستاذ الدكتور شعيرة على تلاميذه فى صفوف الدرس ، أو يحدث به فى مجالس العلم أو يحاضر به فى الندوات العامة - وتلك كانت المجالات المحببة إلى نفسه حيث يعرض آراءه وأفكاره للمناقشة .

ما بين البساطة والشموخ :

والحقيقة أن الدكتور شعيرة الإنسان كان طرازاً فريداً من الرجال ولا أريد أن أقول عجيباً ، وقد كان كذلك . وهنا أتذكر المثل المأثور الذى يقول إن المظاهر خداعة . وأول خدعات النظر فى الدكتور شعيرة انه كان يبدو لنا قصير القامة ضئيل الحجم ، وهو فى الحقيقة قمة شامخة ، ليس معنويا فقط بل وجسمانيا كذلك . فهو من أرومة عملاقة الحجم ، وهذا ما كان يذكره لنا عن آل بيته الشعيريين فى ريفهم ، وهو ما ظهر فعلا فى ولده : طاهر وعزيز وعبد الهادى وصغيرهم شريف - وكم كان الدكتور شعيرة سعيداً بذلك .

هذا فيما يتعلق بالخداع المادى أما فيما يتعلق بالخداع المعنوى ، فقد كان الذين يتعاملون مع الدكتور شعيرة لأول وهلة قبل أن يخبروا أعماقه - وهى التجربة التى مررنا بها نحن تلاميذه القدامى - يظنون أن الأستاذ من ذلك النوع من الرجال «الطيبين» ، حسب مصطلحنا الدارج ، أى البسطاء المتساهلين ولقد كان فعلا بسيطا متواضعاً ؛ يعامل تلاميذه معاملة الند للند وكأنهم أخوته الصغار أو أبناؤه الكبار ، ويحافظ على كرامة الإنسان مهما كان طبقته

الاجتماعية ، وهذا كان دأبه فى التعامل مع كل المحيطين به من العاملين فى الكلية وفى البيت وفى الشارع ، سواء كان المكان له أو لغيره ، ومما يألفه أو مما يتردد عليه لأول مرة . وهكذا كان التواضع والبساطة هالتين نورانيتين تحيطان به أينما سار وحيثما حل — وكأنه ولى من الأولياء أو قديس من القديسين .

هذا التواضع وتلك البساطة — اللتان قد توحيان بأن الدكتور شعيرة كان رجل التساهل الذى يفضل العافية ، بمعنى أنه كان يؤثر السلامة ويفضل مرور الصعاب دون مواجهتها — كانتا تخفيان ، فى حقيقة الأمر ، روح عناد صلبة صامدة وقت الضرورة ، تتكسر على صخورها أقوى الإرادات عناداً ، ليس من جانب صغار الناس فقط ، بل من جانب أصحاب المراكز المرموقة أيضاً ، وهذا ما جربناه فى أكثر من مناسبة ، فى مصر وفى خارج مصر أيضاً . ولقد ظهرت عزيمة الدكتور شعيرة وعناده الذى لا حدود له فيما كان يقوم به من مجهود جبار ، وهو يعانى من ذلك الفالج الذى ألم به وهو يقوم برسالته فى الجزائر . وخصلة الصلابة فيما يران المــــرء حقا عن طريق المعاناة الشخصية وليس عن طريق إملاء ما يراه الآخرون حقيقة .

تواضع العالم المحقق والأستاذ المعلم :

وسمة التواضع التى تحلى بها الدكتور شعيرة فى حياته اليومية ظهرت كألمع ما يكون فى نشاطه العلمى كأستاذ معلم وباحث محقق . وفى مجال العلم لانستطيع أن نصف بالتواضع إلا العالم حقيقة . وفى هذا المقام أتذكر ما يضرب به الجاحظ المثل فى تواضع العلماء ، وهى مقالة أفلاطون التى يقول فيها : « لولا علمى أن قولى لا أعلم تثبيتاً لأنى أعلم لقلت أنى لا أعلم » .

والحقيقة أن الدكتور شعيرة كان من خير المؤهلين من علمائنا المحدثين لدراسة التاريخ الإسلامى . فمن حيث وسائل البحث كان مالكا لزمام اللغة

العربية ، عارفا بدقائق فقهها ، ملما بشوارد أدبها ، فكان خير من يقرأ النصوص القديمة ويفهمها . وهو فى أثناء دراسته فى فرنسا سلح نفسه بكل من اللغتين اللاتينية واليونانية ، مما سمح له بمعالجة موضوع الصراع بين العرب والبيزنطيين[1] وهو من الموضعات الصعبة التى لم يتصد لها إلا كبار الباحثين الأوربيين من أمثال فازيلييف وشارل ديل . ولقد كان من الغريب حقاً أن يدخل العالم الشاب الدكتور شعيرة إلينا نحن طلبته المبتدئين ليعرض علينا موضوع درسه وكأننا علماء صغار . صحيح إننا كنا أقل كثيراً منه علماً بطبيعة الحال ، ولكنه كان يدخل فى روعنا أن البون ليس شاسعاً بيننا وبينه ، أو هكذا كان يأمل أن ينتهى بنا شوط الدراسة معه .

وبهذه الطريقة التربوية الفذه كان يبدأ درسه بالأفكار العامة لكى ينتهى الأمر بدراسة النصوص دراسة تفصيلية -- لا أريد أن أقول - مرهقة ، فقد كانت تظهر كذلك لكثير من جماعة الشباب من الدارسين الذين لم يكونوا قد اعتادوا على ذلك النوع من البحث العميق الذى تعلمه الدكتور شعيرة فى فرنسا ، حيث كان العلماء يعتزون بدرس النصوص التاريخية الذى لم يكن معمولا به فى غير الجامعات الفرنسية وقتئذ . هذا ما عرفناه هناك من الأستاذ لويس هالفن الذى كان من قبل أستاذاً للدكتور شعيرة . وهكذا كانت الكلمة الواحدة تقلب بين يدى الدكتور شعيرة على وجوهها المختلفة ، ويظهر لها أكثر من مبنى ومعنى ، بين إعجاب البعض من تلاميذه المبهورين بعلمه ، ومعاناة البعض فى المتابعة اللاهثة ، وعدم مبالاة جماعة آخرين ممن لم يدركوا قيمة العملية العلمية الرائعة إلا بعد أن عركتهم التجارب ، وأنضجتهم السنون .

تلك كانت أبجديات البحث التى تعلمناها على الدكتور شعيرة ونحن طلبة ،

---

(١) الصراع بين العرب والبيزنطيين :
الفتح وترتيب الحدود فى القرنين السابع والثامن الميلاديين (بالفرنسية) ، الاسكندريه ١٩٤٧

وواصلنا تعلمها فى كنفه ونحن زملاء صغار له ، وما زلنا نتعلمها فى أبحاثه وكتبه ـ وهو ما نسجله له بكل إعزاز وتقدير مع اعتراف بالفضل والجميل .

وتحضرنى الآن بعض مصطلحات التاريخ الإسلامى التى كان يعانى كثيراً فى محاولة شرحها فى أصولها الأولى ، ومنها من المصطلحات المالية : الجزية والخراج والأرض العشرية وكيف يمكن أن يحدث اللبس بينها ، وكذلك ضريبة الرؤس وكيف يمكن أن تكون من الرقيق أو من الماشية ، وكلمة « الأبناء » التى كثيراً ما تعنى أبناء الجند ممن دخلوا فى سلك العسكرية أو لم يدخلوا فيه . وكل ذلك من المصطلحات التى تحتاج إلى الكثير من التأمل والبحث والتمحيص تبعاً لمواقعها من النصوص .

ومع هذه الدقة البالغة فى البحث لم يكن الدكتور شعيرة من ذلك النوع من الأساتذة المتزمتين الذين لا يغفرون الهنات لتلاميذهم . فقد كان سمحاً كريماً واسع الصدر ، يتلمس المحاسن فيما يقدم إليه من البحوث أو أوراق الامتحانات ، ويعفو عن الهفوات . وفى عديد من الأحيان كان يتوقف عن الحكم إلى أن يناقش صاحب البحث أو الورقة . وهكذا كان كثيراً ما يلاحق تلاميذه فى فترة الامتحانات ، يسأل هذا عن عبارة وردت فى ورقته أو رأى أدلى به دون أن يوثقه أو يتثبت منه ـ وذلك فى وقت كانت ظروف الامتحانات تسمح بذلك . اسمحوا لى أن أتذكر الآن تلك المقالة التى قيلت فى عمر بن الخطاب وهو يسعى وراء إبل الصدقة . لقد قيل فى الفاروق : « هذا والله القوى الأمين[1] » .

من البحث التفصيلى إلى النظريات العامة : نظريه الحلف :

ولم يكن من الغريب على أستاذ باحث مثل الدكتور شعيرة ، بما تسلح به

(١) الطبرى — ط . المعارف . ج ٤ ، ص ٢٠١

من أدوات البحث ، وما يتحلى به من الذكاء ، والفطنة ، والقدرة على معاناة التحقيق ، والصبر على عناء التنقيب ، أن يصل فى نهاية الأمر إلى نظريات كلية عامة ، مبنية على الدراسة التفصيلية المتعمقة ، وفى نظرنا أن من أهم ما وصل إليه فى البحث ، نظرية تفسير التوسع الإقليمى للدولة العربية ، وهى التى سماها بنظرية الحلف أو « الممالك الحليفة » ، وهو عنوان البحث الذى نشره بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية (فاروق الأول) سنة ١٩٤٨[١] .

والفكرة الرئيسية فى هذه النظرية تقوم على دعامتين : أولاهما أن التوسع العربى الإسلامى كان يسير بطريقة الإلحاح على العدو بالحرب المستمرة سنوياً ، المعروفة باسم الصوائف والشواتى ، وعلى أساسها يمكن تفسير اختلاف الحوليات التاريخية حول توقيت كثير من الوقائع الهامة والفتوحات الكبيرة . وثانيتهما وأخطرهما فى نظر الدكتور شعيرة : أن العرب استخدموا السياسة إلى جانب الحرب فعملوا على اجتذاب زعماء البلاد المفتوحة إلى جانبهم عن طريق العهد والحلف بعد الدخول فى الإسلام ، فى سبيل معاونتهم فى فتح ما وراء بلادهم من البلاد وإدخالها فى حظيرة دولة العرب والإسلام .

والحقيقة أن الدكتور شعيرة طبق نظريته هذه على بلاد الترك فى المشرق ، كنتيجة لما قام به من الدراسة فى موضوع « تاريخ المغول » وهى المادة التى كان يدرسنا إياها ونحن نحضر لشهادة الليسانس فى العام الدراسى ٤٤ — ١٩٤٥ وما زلت أحتفظ بفخر واعتزاز بمذكرة هذه المادة حيث أجد تاريخ كل محاضرة . ففى يوم السبت ١٨/١١/١٩٤٤ سجلت أولى أمالى الدكتور شعيرة فى تلك المادة ، وفيها يقول : « ومنذ نشأ هذا الجوار (جوار العرب والترك) بحكم الفتح ، وجدت صلة بين المسلمين والترك . وأراد العرب أن يحموا

---

(١) الممالك الحليفة ، ممالك ما وراء النهر والدولة الإسلامية إلى أيام المعتصم ، المجلد ٤ سنة ١٩٤٨ ، ص ٣٩ — ٨٠

حدودهم ضد هؤلاء الترك فى الشرق والشمال ، فاتخذوا لذلك سبيلين : الأول ، طريق الغزو وهو طريق لجأ إليه المسلمون لحماية حدودهم فى كل الجهات . وهذا النظام عبارة عن وجود جيش فى منطقة الحدود يغزو هذه الأرض المجاورة للإسلام غزواً دورياً سنوياً ، الغرض منه إيقاع الرهبة فى الجيران حتى لا يجتاحوا حدود الإسلام . . وهذه الطريقة جرت المسلمين إلى غزو تركستان أيام بنى أمية ، فأصبح جزء من الشعب التركى ، بين نهرى سيحون وجيحون وبحر آرال ، خاضعاً لسلطان المسلمين . والنقطة الثانية ، هى : انتشار الإسلام بين الترك . . . وأخذ المسلمون بعد قيام هذا الاتصال يستخدمون الأتراك فى جيوشهم ، وظل هذا الاستخدام ينمو إلى أن جاء العصر العباسى ، وكانت خلافة المعتصم فأصبح الترك يؤلفون أغلبية الجيش الإسلامى ... » .

وفى ختام بحث « المسالك الحليفة » يلخص الدكتور شعيرة نظريته ، فيقول : « أردنا أن نبين ناحية عن سياسة العرب فى حماية حدودهم ، وهى نظام الحلف الذى يفرضونه على جيرانهم ويؤيدونه بالغزو السنوى استيفاء لطاعة الأحلاف واستظهاراً بالقوة أمام من وراء الأحلاف من الأعداء[1] » .

والحقيقة أنه إذا كانت فتوح المشرق البعيد وعلاقات الترك بالإسلام هى التى أوحت الدكتور شعيرة بلوره نظرية الحلف هذه ، كدعامة أساسية للتوسع الإسلامى فى المشرق ، فإن من الصحيح أيضاً أن جرثومة هذه النظرية تبينت له أثناء دراسته لموضوع الصراع بين العرب والبيزنطيين ، الذى أعده للحصول على دكتوراه الدولة فى باريز . فمجرد استقرار العرب فى بلاد الشام ، ومنذ سنة ١٧ هـ ، وجدوا أنه من حسن السياسة معاهدة « الجراجمة » وبذلك اطمأنوا إلى هدوء سكان الجبال الأشداء هؤلاء ، بل وضمنوا معاونتهم لهم عن طريق إنذارهم بما كان يمكن أن يتهددهم من جانب الروم[2] .

---

(١) المسالك الحليفة ، ص ٨٠

(٢) انظر الصراع بين العرب والبيزنطيين ، ص ٦٠

وعندما وصل العرب إلى برقة وطرابلس بعد فتح مصر ، اكتفوا بتأكيد سلطانهم السياسى والعسكرى على برقة التى كانت تابعة إدارياً لمصر منذ القديم ، وتركوا لأهلها نوعاً من الاستقلال الذاتى فيما يتعلق بالسياسة المالية[1] . أما عن ولاية طرابلس فقد اكتفوا بغزو مدينتها العاصمة ، واكتفوا بالعهد مع قبائل البربر فى المنطقة ، مما أدى إلى هدم نظرية البيزنطيين الإدارية والأمنية[2] . هذا ، ثم إن نظرية الحلف هذه بدأت تتبلور فى المغرب بشكل نهائى منذ تحالف أبو المهاجر - والى أفريقية والمغرب - مع البربر هناك[3] .

وهكذا يمكن لنا أن نقول أن حلقات نظرية الحلف تكاملت فى المغرب وفى المشرق جميعاً بكل من بحثى الصراع بين العرب والبيزنطيين ثم الممالك الحليفة فى بلاد ما وراء النهر . هذا ، وإن كنا نأسف لأن الدكتور شعيرة لم يستغل هذه النظرية فى كتاب عام يشرح فيه تاريخ دولة الإسلام ، على الأقل إلى أن « أصبح الترك حزباً قوياً كالحزب الفارسى ، أو العربى ، يستطيع أن يؤثر فى حياة الدولة السياسية ، ولكنه كان لابد أن يتأثر به الأحزاب فى حياتها السياسية من عوامل القـــوة والضعف . . . » ، كما يقول فى أماليه فى ١٨/١١/١٩٤٤ - فلا شك أن مثل هذا الضعف كان يلقى بأضواء جديدة على عهد الدويلات (أو السلالات) المستقلة فى العصر العباسى الثانى ، ليس فى المشرق فقط ، حيث ظهرت أحزاب الفرس والترك ثم الديلم وترك السلاجقة قبل قبائل المغول ، بل وفى المغرب والأندلس أيضاً حيث قامت أحزاب البربر ، من الصنهاجيين والملثمين والموحدين .

---

(١) انظر الصراع بين العرب والبيزنطيين ، ص ٦٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٣

نظرية تقسيم العالم الإسلامى إلى عالمين : شرقى تركى فارسى ، وغربى عربى :

ولا أشك فى أنه كان من نتائج تلك الدراسة ما شرح به الدكتور شعيرة الظروف التاريخية التى أدت إلى انقسام العالم الإسلامى إلى عالمين ، كما هو الحال اليوم : أحدهما فارسى تركى فى الجناح الشرقى ، والآخر عربى صميم فى الجناح الغربى . وهو الشرح الذى استمعت إليه فى محاضرة عامة ألقاها فى النادى المصرى بمدينة بنغازى فى سنة ١٩٥٩ — إذا لم تخنى الذاكرة .

وملخص تلك النظرية هو الآتى : منذ بداية الفتوح وطوال العصر الأموى كان العرب يخرجون من جزيرتهم ، ومن العراق والشام ، لكى يسيحوا فى مشارق دولة الخلافة وفى مغاربها : ما بين خراسان والمغرب الأقصى . ولكنه منذ نجاح الدعاية العباسية فى خرسان ، بدأت موجات الهجرة تغير مسارها فى إتجاه من الشرق إلى الغرب ، وذلك تبعاً لمسيرة الجند العباسى الذى كان فى معظمه خراسانيا . ومع مرور الوقت استخدمت الخلافة الترك الذين ألفوا معظم الجيش الإسلامى ثم بدأت مرحلة جديدة عند ما أخذت قبائل تركية تدخل فى الإسلام وتهاجر من وسط آسيا والتركستان مندفعة نحو الغرب ، وبلغ ذلك الذروة بهجرة قبائل ترك الأغز السلجوقية . وبهذا الإيقاع المستمر كان طريق المشرق ينغلق شيئاً فشيئاً أمام العرب الذين لم يجدوا لهم مجالا للهجرة — بعد خروجهم من جزيرتهم — إلا إتجاه الغرب ، وكانت آخر هجراتهم الكبيرة هى الهجرة الهلالية .

وفى ظل هذه العملية التاريخية المعتدة انحسر المدّ العربى عن المشرق الذى تهيأت له ظروف إحياء لغته القومية الفارسية ، وأصبح خط التقسيم اللغوى — بين العربية والفارسية — يمتد من شط العرب مصعدا نحو الشمال على

طول نهر دجلة ، وذلك إبتداء من القرن السادس الهجرى (١٢ م) . وتأكد خط التقسيم هذا بشكل نهائى بعد الغزوة المغولية .

أما عن نظام دولة الخلافة منذ عهد الدويلات المستقلة فى العصر العباسى الثانى فقد أصبح شبيهاً بما يعرف حالياً بالنظام الفدرالى أو الكونفدرالى ، بمعنى أن أمراء الدول الناشئة وملوكها كانوا يتمتعون بالاستقلال الذاتى ، وتربطهم بالخلافة ـــ من الناحية القانونية ـــ علاقة الولاء إلى جانب آداء شىء من المال إلى خزانة بغداد ، وان كان بطريقة غير منتظمة .

تلك كانت أهم نظريات الدكتور شعيرة فى كيفية التوسع العربى وتكوين دوله الخلافة الإسلامية : الإلحاح بالحروب الدورية من أجل إرهاب العدو ، وسياسة الحلف من أجل المعاونة فى فتح الاقاليم المجاورة ، ثم حركة المد التركى من أواسط آسيا التى أدت إلى إنحسار العروبة عن المشرق الإسلامى .

أما عن آخر مؤلفات الدكتور شعيرة فى تاريخ دولة المرابطين ، الذى بدأه كمحاضرات ألقيت على طلبة جامعة الجزائر ، فقد طبق فيه بوضوح ومقدرة نظريات ابن خلدون فى اضمحلال الدول وقيامها ، من نظرية التجدد ونظرية المطاولة ، كما قدم فيه صفحات رائعة عن الحياة فى الصحراء المغربيـــة فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) .

الخاتمة :

تلك كانت بعض خطوات عابرة عن بعض ما قدمه أستاذنا الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة من أعمال فى مجال التاريخ ، وما خرج به من نظريات فى تفسير مسار تاريخ دولة الخلافة ، مما سجله فى بعض أبحاثه ، ومما حاضر به فى ندواته ، أو مما كان يحدث به تلاميذه أو يمليه عليهم .

ونحن إذا كنا نحتفل بتأبين الدكتور شعيرة اليوم ، فالأمل أن يكون

حديثنا فيما قدمه للتاريخ الإسلامى من خدمات حافزاً لتلاميذه على الاستفادة من أعماله العلمية ونظرياته التاريخية فى دفع عجلة التاريخ الإسلامى ، فى مصر وفى البلاد العربية ، نحو مستقبل أفضل ، فذلك هو ما يخلد ذكرى الأستاذ ويحقق استمرارية ما بدأه من أعمال ـ وذلك هو الأساس الصلب لتقدم العلوم .

هذا ، وأرجو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن تأخذ باقتراح عمل كتاب تذكارى باسم الدكتور شعيرة وتعمل على تنفيذه . ومن جانبى أرجو أن يتحقق أملى فى كتابة فهرسة لأساتذتى ، فيكون مساهمة فى إحياء تقليد عريق عرفه كتابنا القدامى ـ ولا أدرى ان كنت قد أضمرت ذلك فى قراة نفسى قبل مناسبة تأبين الدكتور شعيرة هذه ! وإلا فلماذا حافظت على مذكرات أساتذتى التى كتبتها من أماليهم منذ أكثر من ثلاثين سنة ؟ ! اعتقد أن التعريف بتلك الأمالى ومنها الكثير الذى لم ير النور بعد ، سيكون مساهمة جيدة فى التأريخ لدراسة التاريخ فى جامعاتنا الآن ، وفى جامعة الاسكندرية على وجه الخصوص، إلى جانب أنه يمكن أن يكون نواة طيبة لفهرسة جيدة لأساتذتى وللدكتور شعيرة بصفة خاصة ـ وعلى الله التوفيق ؟

الشاطر بصيلى عبد الجليل

الدكتور عبد الرحمن زكى

ولد الفقيد فى مدينة أسوان فى ٢٩ديسمبر ١٩٠١ ونشأ بها ، وحفظ صبيا أجزاء القرآن الكريم وتلقى العلم فى مدارس المدينة إلى أن نال شهادة أهلته لشغل وظيفة مؤقته بتفتيش الصحة بأسوان وبعـــد عامين فى عمله هذا ، عين موظفاً فى مصلحة سكة حديد السودان بوظيفة باشكاتب قسم فى درجة تمهيدية وكان ذلك فى فبراير ١٩١٩ . ومنذ تلك السنة ظل يتنقل بين مدن السودان ، شمالا وشرقاً وغرباً وجنوباً حتى عام ١٩٤٩ ، فأتاحت له السنوات الثلاثة والثلاثون التى أمضاها فى سلك الإدارة المدنية فى السودان فرصة ذهبية متنقلا بين ربوعه المختلفة والتعرف على مظاهر الحياة فى صورها الواقعية ، وكان من نصيبه أيضاً أن عاصر مراحل تطور المجتمع السودانى فى فترة من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد وجه الفقيد اهتمامه من اللحظة الأولى التى دخل فيها السودان إلى دراسة تاريخية مرجعاً بعد مرجع وكانت حينذاك قليلة فى اللغة العربية ،كثيرة فى اللغات الأجنبية كما تابع مطالعة الدوريات والصحف والنشرات ، وكان يقابل ما يقرأه بمـا يجتمع لديه من الدوريات والوثائق الخطية التى يحتفظ بها أهل السودان ، إلى تحقيق ما كان يكتب عن تاريخ المدن والقرى ، وهـكذا أخذ فى بناء مكتبة خاصة نمت مع مرور الزمن حتى أصبحت تتألف من أمهات المراجع فى تاريخ السودان ،وكان إذا سمع عن وثيقـــة فى دار كتب أوربية أو مخطوط فى متحف ، اتصل بالمتخصصين لـكى يبعثوا إليه بنسخة منها .

ولما تقاعد عن عمله فى مصلحة سكة الحديد السودانية عام ١٩٤٩ ، انتقل الفقيد مع أسرته إلى القاهرة وأخذ فى ترتيب حياته الجديدة ، وكان معهد السودان فى بداية مراحله التأسيسية وفى حاجة لبناء مكتبة تتناول بمجموعاتها كل ما يتصل بالسودان : تاريخه وجغرافيته وأهله ومدنه ومجتمعه ، وسرعان ما وقع عليه الاختيار ليكون أمينا لمكتبة المعهد ، وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٥١ . ونعم كان هذا الاختيار الموفق ، فقد كان الفقيد رحمه الله ، ملماً باللغات الانكليزية والنوبية والفرنسية فضلا عن إجادته اللغة العربية وظل زميلنا الأستاذ الشاطر يبنى مكتبة المعهد بهمة وصبر ويجمع لها النادر من المراجع فى شتى اللغات ومن الأطالس والوثائق وكان يساعده على ذلك ، معرفته بطائفة من دور النشر البريطانية والمكتبات المتخصصة . فضلا عن عدد كبير من أصدقائه البريطانيين الذين خدموا فى حكومة السودان خلال المدة التى عاشها هناك ، . . . . وظل فى عمله أمينا لمكتبة المعهد حتى عام ١٩٦١ ثم جددت خدمته فى نهاية العام المذكور لمـــدة عامين . وفى عام ١٩٦٣ انتقل إلى حياة الدراسة الحرة لأنه بطبيعته لا يعرف الراحة ، وواصل دراساته كعادته وفى الوقت نفسه كان يجيب على طلاب المعرفه عما يسألونه عن مشكلات تاريخ السودان وما جاوره .

أولى دراسات الفقيد التاريخية

وفى عام ١٩٤٥ أثناء عمله بمصلحة السكة الحديدية السودانية بواد مدنى ، أهدانى نسختين من دراسته السودانية وكانت باللغة الانكليزية ، نسخة أهداها لأستاذنا المؤرخ المغفور له محمد شفيق غربال ، والنسخة الأخرى لى ، وعنوانها :

« التأثير الإغريقى فى وادى النيل الأزرق مع مسح للخلفية التاريخية »

وتناول فى دراسته الموجزة ، تلك ، كثيراً من المواقع الأثرية البطلمية

المتناثرة بالسودان – كيرو (سيرو) شمال أم درمان ، ورودس جنوب الخرطوم،بالقرب من محطة المساعيد على الشاطىء الأيمن للنيل الأزرق ، وبارانكو جنوب الخرطوم وتانوبا غرب الحصا عيسى ومانسورين مقابل واد مدنى،وحنطوب أيضاً ، وتاينو جنوب وادى مدنى ، العوينات عند الحدود الجنوبية الليبية غرب دنقلة وغير ذلك من المواقع التى تدل على أصالتها النوبية . وهكذا أبان لنا فى دراسته تلك تراث الشعوب ذات التأثيرات المتنوعة وحركات تلك التأثيرات وخاصة فى وادى النيل الأزرق . وبعضها اتجهت شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر .

وقد أوجز الأخ الشاطر بصيلى الهدف الذى كان يرمى إليه ألا وهو :

القيام بعمل قاموس جغرافى لمنطقة النيل الأزرق . . . . . وهذا المقصد العلمى النبيل وإن كان لم ير النور ، غير أننا نرى أثره واضحاً فى تحقيقاته العلمية فى هوامش كتابه :

« معالم تاريخ سودان وادى النيل »

كلمات عن مؤلفات الفقيد

تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل (القسم الأول حتى عام ١٩٠٦)

كان من الجلى جداً وقد خدم الفقيد طوال حياته فى مصلحة السكك الحديدية والبواخر السودانية منذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٥٠ أن يؤرخ لهذه المؤسسة المصرية التى اعتمدت عليها عمليات استعادة السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٩) حربياً ، ثم اقتصادياً للأخذ بيد السودان فى أعقاب ما لحق به من الخراب فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . كانت المكتبة العربية تفتقر إلى مؤلف عن تاريخ المواصلات وتطورها فى السودان ، فأقدم على ملء هذا الفراغ بروح لاتعرف الملل . وقد وجد مادته الأولى فيما كتب عن المواصلات السودانية

فى الأوامر العسكرية والمجلات الأجنبية وبعض الكتب وفى طليعتها المهندسون الملكيون فى مصر والسودان لمؤلفه المقدم ساندس[1] .

فبدأ المؤلف كتابه عن المواصلات النيلية وتطورها فى أيام الوالى سعيد باشا منذ زيارته للسودان ، وفى أثناء حملة صمويل باكر باشا سنة ١٨٦٩ ، وفى أيام الحاكم البريطانى غوردون باشا سنة ١٨٧٧ ، وأخيراً فى عمليات الحملات العسكرية بين عامى ١٨٨٤ و ١٨٩٩ . . . وما بعـــدها والمعروف أن مصر كانت قد أنشأت سكة حديدية بين أسوان والشلال لنقاليات حملة ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ . . .

الآثار العلميـــة

سنحاول على قدر لإمكان بمـا وصل إليه علمنا أن نتناول الآثار العلمية المطبوعه اصد يقنا العالم الفقيد الشاطر البصيلى عبد الجليل وأول ما نلاحظه انه كتبها قبل كل شىء فى إطار تريخ السودان القطر الشقيق الذى أمضى فيه معظم حياته أو فى الإطار الأكبر تاريخ شرق أفريقيا . وبحوثه هذه أو تلك تشملها إما مقالات فى الصحف والمجلات المتخصصة ، أو محاضرات فى دار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أو كتب .

ولنبدأ بكتاباته التاريخية التى بدأها فى عام ١٩٣٦ .

١ ـــ الكتب

١ ـ على أطلال مدينة سن النار (سنار) ـــ القاهرة ١٩٣٦ .

٢ ـــ The Greek influenee in the Blue nile valley, wrth a svrvey of the historical bock grownd.

---

(١) Royal Engineers in Egypt and Sudan — Lieut - Colonel Sandes.

التأثير الإغريقى فى وادى النيل الأزرق مع مسح للخلفية التاريخية — كتب مقدمة الكتب (ص ٣١) عالم الآثار البريطانى مستراً — ج . آركل — واد مدنى ديسمبر ١٩٤٥ .

٣ - الدويلات الإسلامية فى سودان وادى النيل (القسم الأول حتى عام ١٩٠٦) ، القاهرة ١٩٤٩/١٩٥٠ ، كتبه أثناء خدمته فى عطبرة (السودان) يشتمل الكتاب على ببليوغرافية جيدة فى نهاية الكتاب .

٤ - السلطان رابح الزبير . القاهرة د . ت . ١٩٥١

٥ — معالم تاريخ سودان وادى النيل (من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر) كتب مقدمة الكتاب الأستاذ محمد شفيق غربال ، ٣٠٨ ص ، القاهرة ١٩٥٥ — يشتمل على ببليوغرافية هامة .

٦ — تحقيق مخطوطة : كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارية المصرية جمعها وكتبها أحمد بن الحاج أبو على كاتب الشونة — راجعها الأستاذ د . محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٦١ . بالكتاب ببليوغرافية هامة .

٧ — تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد — الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ ، يلى كل فصل ببليوغرافية هامة .

٢ — المقالات والمحاضرات

مجلة الجمعية التاريخية

١ — سودان وادى النيل والإسلام . المجلد ٢ عــدد ٢ عام ١٢٤٩ من ٣٩ — ٥٣ .

٢ - تحقيق أسماء القبائل والبدنات والشيوخ والجباية الواردة فى تقرير الكولونيل ستيوارت (١٨٤٥ - ١٨٨٤) ، المجلد ٣ عدد ١ عام ١٩٥٠ ، حتى ١٨٥ - ١٩٧ .

٣ - الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال فى المحيط الهندى ، لمجلد ١٢ عام ١٩٦٤ / ٦٥ ، ص ١٢٩ - ١٤٠ .

٤ - الكارمية ، عام ١٩٦٧ ، المجلد ١٣ ص ٢١٧ - ٢٢١ .

٥ - نقد كتاب ج . ن سندرسون

ص ٢٧٨ - ٣٨٠ مجلد ١٣ ص ٣٧٨ - ٣٨٠

٦ - نقد كتاب - ا . ب ثيوبولد

المجلد السابق ، ص ٣٨١ - ٣٨٤

٧ - مملكة موريتانيا المصرية ، محاضرة ألقيت بدار الجمعية التاريخية مساء ٦ نوفمبر ١٩٦٧ ونشرت بعـــد والمحاضرات العامة - عام ١٩٦٨ ، ص ١ - ٨

٨ - السلطنة الفونجية الإسلامية فى سودان وادى النيل ، المجلد ١٨ ، عام ١٩٧١ ، ص ١٧٩ - ١٩١ .

٩ - طائفة من المقالات عن الأعلام السودانية : راجع الزبير ، والصاغ على جيبون ، واللواء آدم باشا العربى فى مجلة مصر والسودان خلال عامى ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .

١٠ - طائفة من المقالات فى صحيفة وطنى المصرية عام ١٩٦٢ .

١١ — إضافات تاريخية فى مادة السودان الحديث التى نشرت فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة القديمة) .

مجلة نهضة أفريقية

ولما صدرت المجلة الشهرية نهضة أفريقية فى شهر نوفمبر ١٩٥٧ اتجه عالمنا الشاطر بكل همة يمدها بمقالاته الممتعة . وكانت صفحاتها فى الواقع متنفسا له يقدم كل شهر إلى قرائها مطالعته فى شتى الأفريقيات .

فمن أهم ما نشر له :

١ — مقال حميد بن محمد بن جمعة المرجبى (المعروف بتيبوتيب) (١٨٣٤-١٤ يونيه ١٩٠٥) ، عدد ١ نوفمبر ١٩٥٧ ص ١٠ — ٢٠ وذيله بثبت المراجع العربية والأجنبية وأرفق المقال بموجز باللغة الأنكليزية (ص ٢١ / ٢٢) وخريطة .

٢ — نقد ومراجعة كتاب مستقبل أفريقيا السياسى وتاريخ شعوب القارة الحديث — عدد ٢ ديسمبر ١٩٥٧ ص ٥٠ — ٥٣ .

٣ — السياسة البريطانية فى قلب أفريقيا (١٨٤٤ — ١٨٩٩) ، عدد ٤ - فبراير ١٩٥٨ ، ص ٤٦ — ٥٦ .

٤ — ابن بطوطة وشرق أفريقية ، عدد ٥ مارس ١٩٥٨ ، ص ٩ — ١٤

٥ — ابن بطوطة وشرق أفريقية ، عدد ٦ أبريل ١٩٥٨ ، ص ٤٠ - ٤٤

٦ — مهدى الصومال « القاضى محمد بن عبد الله حسن» (١٨٧٠ - ١٩٢١)، عدد ٧ مايو ١٩٥٨ ص ٢٩ — ٣١ .

٧ غانه فى دراسات العرب ، عدد ٨ يونيو ١٩٥٨ ، ص ١٤ ١٥

٨ - دويلات عربية على الشاطىء الإفريقى ، عـدد ١٠ أغسطس ١٩٥٨ ص ١٥ - ١٩ وخريطة .

٩ - تاريخ الزنج ، عدد ١١ سبتمبر ١٩٥٨ ، ص ٣٩ - ٤١ .

١٠ - الف باء الصومالية - عـدد ١١ سبتمبر ١٩٥٨ ، ص ٧٥ - ٧٧ وترجمة المقال باللغة الأنـكليزية .

١١ - الف باء الصومالية - عدد ١٢ - ١٣ ، أكتوبر ونوفمـبر ١٩٥٨ ، ص ٣٠ - ٣١ تاريخ الزنج (٢) - عدد ١٣ نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٥٧ - ٦٣ .

١٢ - الإسلام والثقافة العربية للدكتور حسن أحمد محمود - نقد كتاب ، عدد ١٣ نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٧٥ - ٧٨ .

١٣ - تاريخ الزنج من الوثائق التاريخية ، عدد ٣ يناير ١٩٥٩ .

مؤلفات للفقيد العلامة لم تنشر

ومازالت مخطوطة

لقد ترك الفقيد عشرات وعشرات الدراسات التى لم يستطع طبعها وهى لاشك تنتظر النشر . نحن فى حاجة إلى التعرف عليها ، بيد أننى سأذكر لـكم بعض تلك الدراسات التى ذكرها الفقيد فى نهاية كتابه « معالم تاريخ سودان وادى النيل » (ص ٣٠٩) .

١ - جغرافية السودان مترجمة عن التركـية بالاشتراك مع الأستاذ محمود نفعى .

٢ ـ السلطان رابح ترجمة عن الألمانية للكاتب أو بنهايم وترجمة إلى الانكليزية د . سلزاك ، عربة وعلق عليه الفقيد .

٣ – هجرة القبائل السودانية إلى المجال الحيوى فى وادى النيجر بالانكليزية .

٤ – أصول سلطنه سنار بالانكليزية .

٥ ـ القاموس الجغرافى لوادى النيل الأزرق .

أغراض نماذج

قوارب عصر ما قبل الأسرات بالمعادى

للدكتور فتحى عفيفى بدوى

مدرس تاريخ قديم
قسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

فى منتصف ديسمبر عام ١٩٧٦ كلفتنى كلية الآداب — جامعة القاهرة باستئناف أعمال حفائر الموسم الثانى عشر بمنطقة المعادى الأثرية . وهى الأعمال التى توقفت عقب انتهاء الموسم الحادى عشر فى شتاء عام ١٩٤٨ . والتى كان يشرف عليها الجغرافى الكبير المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى عامر[١]. وعلى مدى ثلاثة أسابيع من الجهد المتواصل، تم الكشف عن جزء من المنطقة السكنية لقرية المعادى تقدر مساحته بحوالى ١٢٥ م٢ . ويقع فى الاتجاه الشرقى للمنطقة وعلى امتداد الأجزاء التى سبق الحفر فيها من قبل . وكان التوفيق حليف العمل إلى حد كبير ، إذ استطعنا أن نصل إلى نتائج هامة سيتم نشرها عقب الانتهاء من أعمال الفحص الأثرى الجارية الآن بالمنطقة . وأهم ما يسترعى الانتباه ضمن ما عثر عليه من بقايا أثرية عديدة أربعة نماذج صغيرة تمثل قوارب بالإضافة إلى نموذج آخر سبق العثور عليه أثناء حفائر الموسم الخامس عام ١٩٣٥ ،وجدت جميعها غير كاملة وملقاه داخل رديم الطبقات بالمنطقة السكنية ومختلطة مع قطع الشقف ، وهى جميعها تدعونا إلى ضرورة مواصلة البحث

العلمى لمعرفة المزيد عن الأغراض التى كانت تخدمها هذه النماذج خلال عصر ما قبل التاريخ . هذه النماذج هى :

١ - نموذج صغير لقارب من الفخار الأحمر ، جيد الحرق ، عثر عليه فى المربع رقم ٢٠١ أثناء رفع رديم الطبقة ٢٠ - ٤٠ سم تحت السطح العلوى . وهو غير كامل . حيث لم يتبق منه سوى نصفه الذى يتكون من المقدمة التى ترتفع إلى أعلا وتميل فى إستدارة خفيفة نحو الداخل . والقاع المستوى والجانبين الغير مرتفعين . الطول ٧ر٥ سم . العرض ٦ر٢ سم - (لوحة ا : ١ - ٣) .

٢ - نموذج صغير لقارب من الفخار الأحمر . غير جيد الحرق ، عثر عليه فى المربع ٢٠٣ أثناء رفع رديم الطبقة ٦٠ - ٨٠ سم تحت السطح العلوى ، وهو غير كامل ، حيث لم يتبق منه سوى جزء من القاع منبسط قليلا والمقدمة المدببة والمرتفعة فى استدارة بسيطة إلى أعلا . وبقايا الجانبين . ويلاحظ وجود بقايا ثقبين متقابلين على كلا الجانبين بالقرب من المقدمة . الطول ١٠ سم - العرض ٤ سم . (لوحة ا : ٤) .

٣ - نموذج صغير لقارب من قرن الحيوان . عثر عليه داخل المربع ٢٠١ أثناء رفع رديم الطبقة ٢٠ - ٤٠ سم تحت السطح العلوى حيث لم يبق منه سوى جزء من القاع المدبب وأجزاء من كلا الجانبين . الطول ٧ر٥ سم - العرض ٥ر٢ سم . (لوحة ا : ٥ - ٦) .

٤ - نموذج صغير لقارب من الفخار الأحمر . عثر عليه داخل المربع ٢٠١ أثناء رفع رديم الطبقة ٢٠ - ٤٠ سم تحت السطح العلوى . وهو غير كامل ، حيث لم يتبق منه سوى جزء من القاع المتبسط . وبقايا الجانبين . الطول ١٣ سم - العرض ٥ر٣ سم . (لوحة ا : ٧) .

٥ - نموذج متوسط الحجم لقارب من الفخار الأحمر الجيد الحرق عثر عليه أثناء حفائر الموسم الخامس عام ١٩٣٥ . داخل رديم الطبقة ٢٠ - ٤٠ سم تحت السطح العلوى . لم يتبق منـــه سوى نصفه الذى يتكون من المقدمة المرتفعة قليلا إلى أعلى وتنتهى ببروز بسيط نحو الخارج . والجانبين الكاملين فى ارتفاعهما . والقاع المنبسط الذى يحتوى من الداخل على حافة ترتفع قليلا عند الوسط وتمتد بطول النموذج . الطول ١٣٫٤ سم - العرض ٥٫٨ سم - الارتفاع ٧ سم . (لوحة ب : ١ - ٢) .

التعليق :

مما لا شك فيه أن نشأة الملاحة النهرية فوق سطح النيل ترجع بجذورها إلى أقدم العصور[٢] . عندما بدأ المصرى خبرته فى هذا المجال ممتطيا جذع شجرة ، ثم تطور بتفكيره فأقدم على ربط عدد من الجذوع جنباً إلى جنب مبتكراً بذلك الطوف . ولا شك فى أن الطوف كان يتم تحريكه بالعصى الطويلة ، لكنه ظل صعب التشغيل لثقل وزنه الأمر الذى دفع الإنسان إلى ضرورة إستخدام مواد خفيفة متوفرة فى البيئة مثل جلود الحيوان المملوءة بالهواء[٣] ، وأعواد البردى وسيقان البوص ، ورغم أنه لم يعثر على بقايا أثرية تدل على وجود الملاحة النهرية خلال العصر الحجرى القديم[٤] إلا أن هناك ما يشير إلى وجودها خلال العصر الحجرى الحديث ، فقد عثر فى قرية مرمدة بنى سلامة على نموذج صغير لقارب من الطين[٥] . (لوحة ب : ٣) هذا النموذج يعتبر بدوره من أقدم الشواهد على تطوير المصرى القديم لوسائله الأولى فى مجال الملاحة النهرية إلى شكل القارب ، ولا شك فى أنه كان لابتكار صناعة القوارب ولانتشار استخدامها ضرورة حتمت وجودها عوامل رئيسية منها سهولة الانتقال والحركة من مكان لآخر فوق سطح النيل ، وكذلك التوسع فى صيد الأسماك والطيور المائية وصناعة الشباك . وهى الحرفة التى ظلت تحتل مركزاً هاماً فى الحياة الاقتصادية خلال عصور ما قبل التاريخ وحتى العصور التاريخية المتأخرة ، وتعتبر نماذج القوارب التى عثر عليها فى قرية المعادى من

أبرز المعالم التى تشير إلى مقدار تأثر أهل المعادى بالبيئة المحيطة بهم . تلك البيئة القريبة من مجرى نهر النيل والمملوءة بالأحراش والبحيرات الصغيرة والفروع المائية المتعددة[٦] ، وكل ما تحويه من طيور برية وأسماك نيلية متنوعة ، وهى بلا شك تتطلب من سكانها ضرورة الاعتماد فى حياتهم الاقتصادية على القارب إلى حد بعيد[٧] ، وعلى الرغم من أنه لم يعثر حتى الآن على بقايا هذه القوارب إلا أن العثور على النماذج الخمس المشار إليها لخير دليل على وجودها ، خصوصاً وأنها فى الغالب تعتبر بمثابة تقليداً لمثيلاتها الأصلية المألوفة لديهم[٨] والتى ربما نعثر على بقاياها مستقبلا[٩] .

والتساؤل الذى نحن بصدده الآن هو ضرورة البحث عن تفسير معقول يوضح الغرض الذى من أجله صنعت هذه النماذج التى وجـــدت داخل المنطقة السكنية،وإذا ما حاولنا ذلك فسنجد أمامنا احتمالين لكل منهما مايضعفه وما يقويه :

الأول : إذ يحتمل معه أن هذه النماذج تخـــدم أغراضاً دنيوية بحته كأن تكون قطع فنية صغيرة أراد أصحابها الاحتفاظ بها داخل الأكواخ ، أو ربما لعب قصد منها تسلية الأطفال على أساس أنها نماذج مصغرة للقوارب الحقيقية . وهو ما يتفق مع ما ذكره يونكر فى تفسيره لنموذج قارب مرمدة بنى سلامة[١٠] ، ويرجحه إلى حـــد كبير وجود الثقبين على جانبى أحد نماذج المعادى لتسهيل غرض رفعها وتعليقها إذ مادعت الحاجة (لوحة ا : ٤ ، لوحة ب : ٣) .

الثانى : إذ يحتمل معه أن هذه النماذج تخدم أغراضاً عقائدية معينة ، كأن تكون مرتبطة بفكرة سحرية تتصل بالحياة اليومية أو ربما تكون قد أعدت لتوضع مع أصحابها عند الدفن ضمن ما سيتم نقله من أوانى فخارية وأسلحة حجرية داخل المقبرة ، ومما يلفت النظر أنه قد عثر على بعض النماذج المشابهة

فى منطقة لا تبعد أكثر من سبعة كيلو مترات إلى الجنوب من منطقة المعادى، ونقصد منطقة عزبة الوالدة والتى ترجع إلى عصر بداية الأسرات[11]. (لوحة ب: ٤ — ٦). وتمتاز نماذجها بأنها أكثر تقدما فى صناعتها وأكثر تنوعاً فى مواردها ، ولكنها تختلف عن نماذج المعادى فى أماكن تواجدها . حيث أنه عثر عليها فى منطقة الجبانة داخل بعض المقابر وضمن محتوياتها بالقرب من الميت . كما عثر كذلك على بقايا القوارب الخشبية الكبيرة بداخل حفرها مدفونة بالقرب من المدخل الرئيسى لبعض هذه المقابر ، ولا شك فى أن ذلك كله يؤكد الغرض العقائدى الذى من أجله وضعت تلك النماذج الصغيرة والقوارب الكبيرة داخل منطقة الجبانة ، فإن صح هذا الغرض العقائدى بالنسبة لنماذج المعادى فلا بد وأنه كان الأصل الذى تطور فيما بعد لتحققه نماذج قوارب عزبة الوالدة .

ونحن إزاء ذلك لا نملك إلا أن نتريث قليلا ، ذلك لأننا نعتقد أن أحد هذين الاحتمالين سيجد حتما من الأسانيد ما يزكيه لدرجة كبيرة ، وسيتضح الغرض الذى من أجله صنعت هذه النماذج عندما نستكمل أعمال الحفر بمنطقة المساكن ومنطقة الجبانة التى لا زالت تنتظر منا الكثير من الجهد .

اللوحات

لوحة ا : تحتوى على رسومات لمجموعة من نمـاذج القوارب التى عثر عليها بالمنطقة السـكنية بالمعادى وهى :

١ – ٣ : نموذج قارب غير كامل من الفخار الأحمر ، حيث ترتفع مقدمته إلى أعلا مع إنحاءة خفيفة إلى الداخل . مقياس الرسم ١ : ١ سم .

٤ : نموذج قارب غير كامل من الفخار ، حيث يظهر على جانبيه بقايا الثقبين . مقياس الرسم ١ : ١ سم .

٥ – ٦ : نموذج قارب غير كامل من قرن حيوان . مقياس الرسم ١ : ١ سم

٧ : نموذج قارب غير كامل من الفخار . لم يبق منه سوى القاع . مقياس الرسم ١ : ٢ سم .

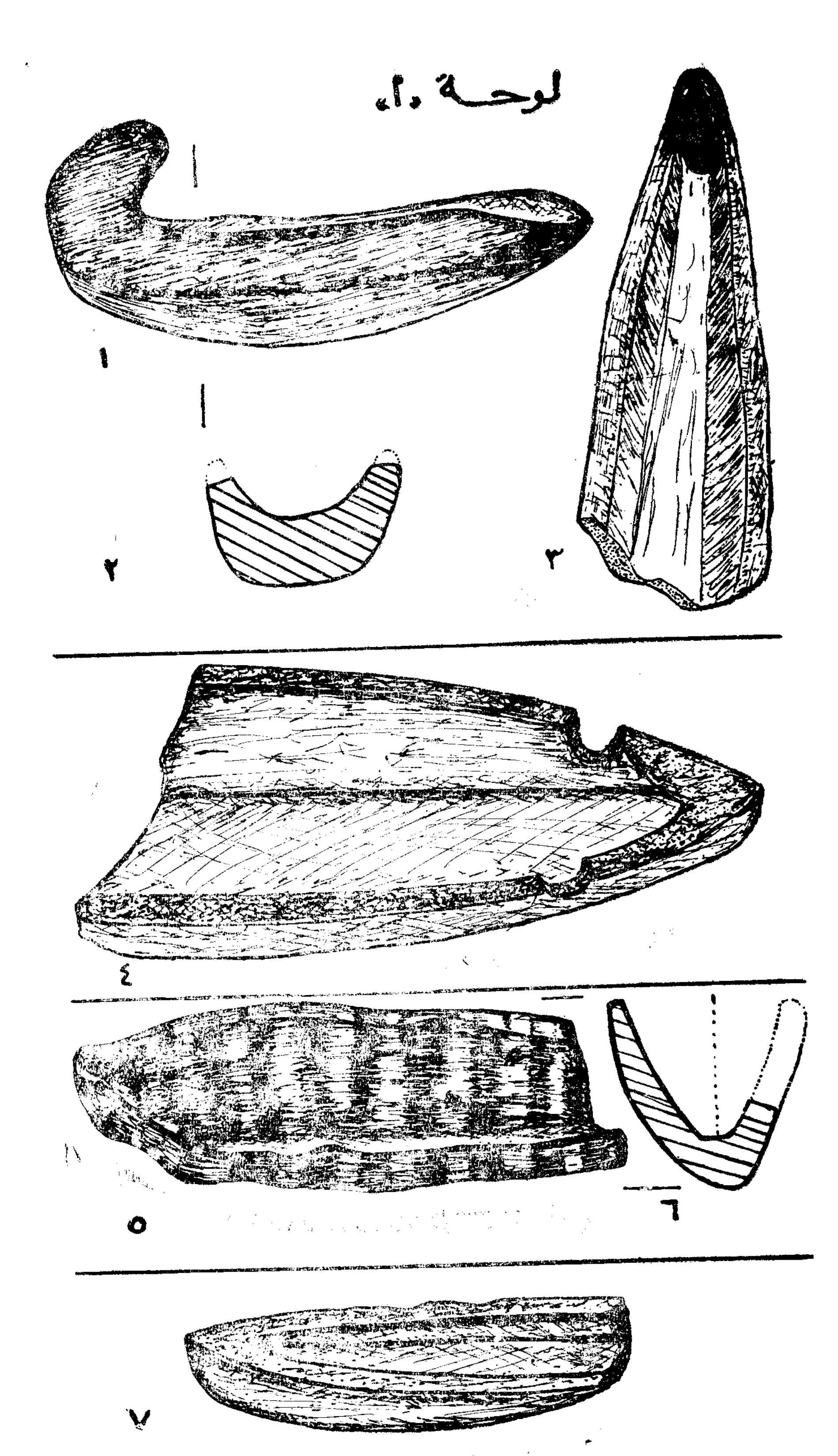
لوحة ب : تحتوى على رسومات لمجموعة من نماذج قوارب عثر عليها فى بعض المناطق قرب الدلتا وهى :

١ – ٢ : نموذج قارب من الفخار عثر عليه بالمعادى عام ١٩٣٥ . مقيس الرسم ١ : ٢ سم .

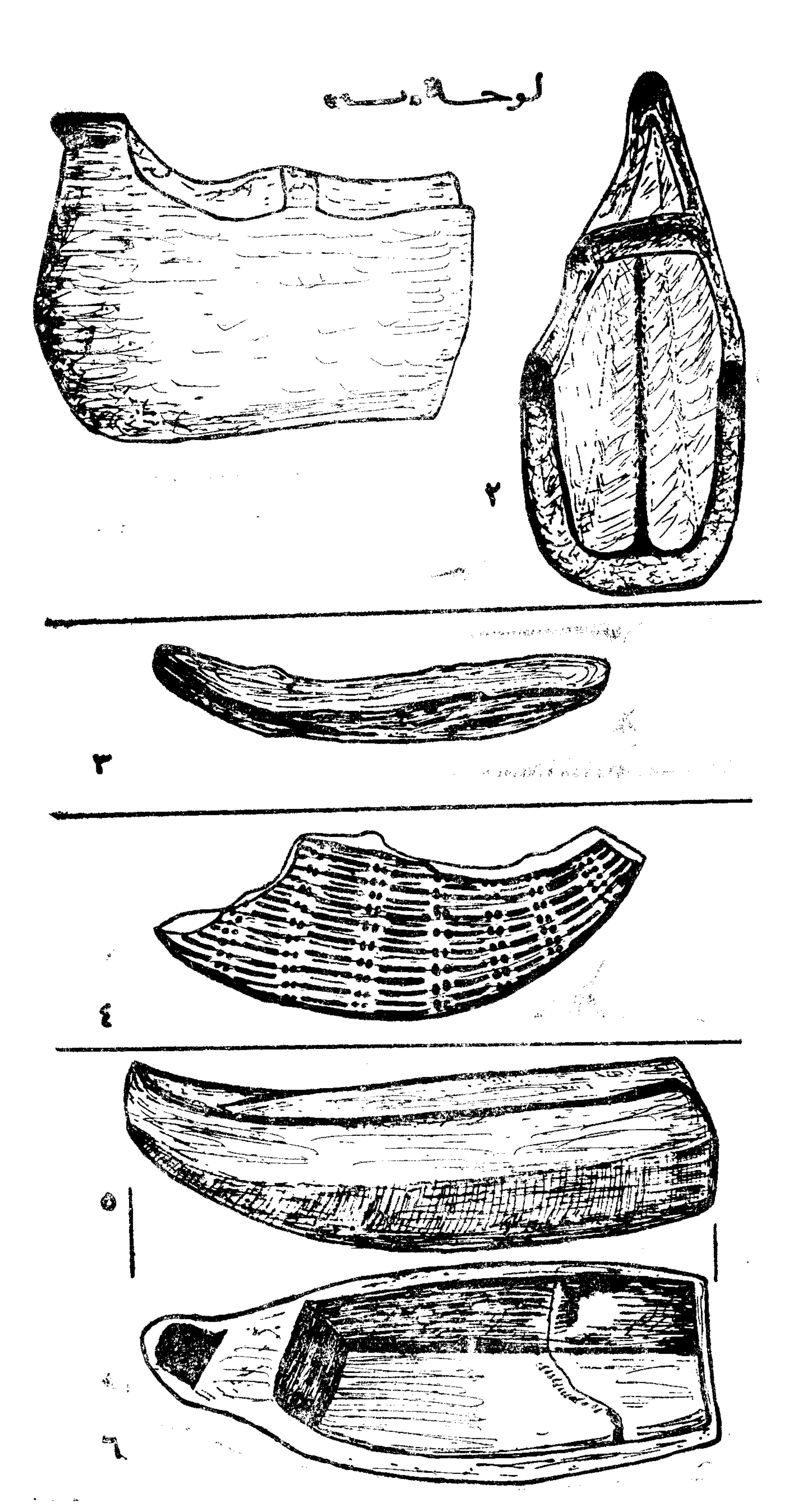
٣ : نموذج قارب من الطمى عثر عليه على إنخفاض ١٤٠ سم داخـــل إحدى الطبقات السكنية بمرمدة بنى سلامة (غرب الدلتا) . مقياس الرسم ١ : ٢ سم .

٤ : نموذج قارب من الحجر على هيئة حزم البردى ، غير كامل . عثر عليه داخل أحـــدى مقابر عزبة الوالدة (شرق النيل) مقياس الرسم ١ : ١ سم .

٥ ٦ : نموذج قارب من العاج غير كامل ، عثر عليه داخل احدى مقابر عزبة الوالدة . مقياس الرسم ١ : ١ سم .


لوحة «١»
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧

لوحة ـ ٥



الحواشى

(١) أول من بدأ العمل بمنطقة المعادى كل من بوفيه لابير والفريد لوكاس عام ٢٨ — ١٩٢٩ ثم :

O-Menghin and Mustafa Amer, The excavaions of the Egyptian University in the Neolithic site at Maadi : a) First Preliminary report (seasen 1930), Cairo, 1932; b) Second preliminary report (season 1932), Cairo, 1936; c) O. Menghin, Die Grabung der Universitat Kairo bei Maadi (III Grabungsjahr) apud Mit. Kairo, V (1934) p. 111 – 118.

(٢) محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية . القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٤٣ ، ٢٩٩

(٣) Lionel Casson, Ships and Seamanship in the ancient World 1976, p· 22.

(٤) W. Flinders Petrie, Prehistoric Egypt, London 1920.

(٥) H. Junker, Vorlaufiger Bericht über die vôn der Akademie der Wissenschaften in Wien in Verbindung mit dem Egyptiska Museet in Stokholms unternommenen Grabungen auf der ueolithischen Siedlung von Merimde Benisalame von 2 Jänner bis 20 Februar, 1933, S. 82 — C.

(٦) عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٦٥

(٧) W. B. Emery, Ägypten, Geschichte u. Kultur der Frühzeit 3200—2800 V. chr., Müuchen 1964

(٨) A. Göttlicher u. W. Werner, Schiffsmodelle im alten Ägypten, Wiesbaden 1971, S. 6 — 7.

وأيضاً : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٩٦

(٩) تم الانتهاء حتى الآن من الكشف فقط عن نصف القرية السكنية ، عدد ٦ مقابر من مساحة الجبانة التى تقدر بحوالى ١٢ فداناً .

(١٠) يونكر : المرجع السابق ، ص ٨٢

(١١) Z. Y. Saad, Royal Excavation at Helwan (1945—1947), Supplement aux Annales Du Service Des Antiquites Du L, Egypte, Cahier No. 14.

كريت فى عصر البطالمة

دراسة على نقوش جورتينا(*)

للدكتور عبد العظيم الراعى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

١ — الناحية السياسية : إن تاريخ كريت منذ أقدم عصورها التاريخية حتى فجر العصر الهللينستى معروف لنا بوضوح ،نظراً لتوافر المصادر الأدبية وغير الأدبية ويتبين منها دور هذه الجزيرة السياسى والحضارى بالنسبة لأقطار الشرق القديم وبلاد اليونان[1] . أما فيما يخص العصر الهلليلستى فإن معلوماتنا عنها ضئيلة جداً ، وذلك بسبب ندرة المصادر بنوعيها — بل حتى الذى وجد منها يكشف لنا النقاب عن أوضاع كريت الداخلية وحياتها الاجتماعية[2] .

ولقد كان لموقعها الاستراتيجى الهام[3] وتوافر جنودها المرتزقة[4] وانتشار أعمال القرصنة بها[5] ، فضلا عن قربها من اسبرطه — نتائج هامة أدت إلى جذبها حيث حلبة الصراع السياسى العالمى منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ففى أثناء فتوحات الإسكندر الأكبر فى الشرق وصلته أنباء مزعجة تفيد بأن اسبرطه التى كانت تكن العداوة لمقدونيا قامت بغزو الجزيرة . وهذا فى حد ذاته يعتبر تهديداً لمؤخرة الفاتح المقدونى . ولبيان ذلك قام اجيسلاوس شقيق ملك اسبرطه آجيس الثالث باحتلال الجزيرة وشد أزره شقيقه آجيس بوصوله إليها على رأس قوات عسكرية . ثم دعى هذا الملك الاسبرطى الدويلات الإغريقية بضرورة

التحالف معه، كما قام بتجنيد عدداً لا بأس به من مرتزقة كريت . عندئذ أصدر الملك المقدوني أوامره إلى رجال بحريته بسرعة التحرك نحو الجزيرة لإنقاذها من براثن الاحتلال الاسبرطي . وأسفرت هذه الحملة عن إخضاع كريت تحت السيطرة المقدونية(٦) . لكنه بعد وفاة الاسكندر لم نعرف عن يقين مصيرها السياسي - بمعنى هل أصبحت تلك الجزيرة تحت إمرة وال مقدوني أم كانت تابعة كغيرها من الدويلات الإغريقية تحت حكم انتباتروس ؟

على كل حال - من المعروف بأن خلفاء الإسكندر تصارعوا من أجل السيطرة على حوض بحر إيجه والجزر اليونانية(٧) . ومن ثم يجب التوقع بأن هـــذه الجزيرة ستكون موضع نزاع مستمر بين الممالك الهلليلستية لأهميتها الاستراتيجية والاجتماعية . ومعروف لنا أيضاً بأن المؤرخين اختلفوا في تحديد طبيعة سياسة مصر الخارجية في عصر البطالمة الثلاثة الأوائل(٨) - إلا أنه لدينا ما نقوله بخصوص سياستهم التي مارسوها في منطقة البحر الإيجي والجـزر اليونانية أيضاً . ولم يدفعهم إلى هذا سياستهم الاستعمارية فحسب - بل كانت هناك أهدافاً اقتصادية واجتماعية . ولتحقيق هذه الأهداف كان لزاماً على البطالمة إقامة منشآت تجارية وحاميات عسكرية بتلك المناطق(٩) .

وجدير بالذكر أن المؤرخين اختلفوا أيضاً في معرفة متى بسط البطالمة نفوذهم على كريت . فهناك رأي يقول بأن هذه السيادة بدأت منذ أيام بطلميوس الثاني. وذلك بناء على تفسير قرار التكريم الذي أصدرته مدينة إيتانوس الكريتية تكريماً لأمير البحر البطلمي باتروكلوس(١٠) .ومن ثم فإن زيارة هذا الادميرال لتلك المدينة تعتبر بداية لوصول القوات البطلمية إلى كريت في الفترة ما بين ٢٧٠ - ٢٦٠ ق.م. لكن هذا لا يعني بأنه لا توجد علاقات مصرية - كريتية قبل هذا التاريخ أو أن بطلميوس الأول لم يحاول التحالف مع هذه الجزيرة. إذ لدينا بعض الاعتبارات الهامة تؤكد القول بأن مؤسس الأسرة البطلمية عمل على نشر نفوذه في كريت منذ بداية حكمه . فلقد استهدفت مصالحه الخارجية

السيطرة على المنطقة التى كانت تتحكم فى المدخل الجنوبى لبلاد اليونان لأغراض سياسية واقتصادية (١١) . كما أنه منذ أواخر القرن الرابع - ساعد مرتزقة كريت هذا العاهل البطلمى فى إرساء قواعد حكمه بمنطقة اسبندوس (١٢) . فضلا عن وجود البعض منهم ممن عمل فى خدمته داخل مصر (١٣) . زيادة على ذلك - أنه أثناء الصراع بين بطلميوس الأول وأنتيجونوس « الأعور » وابنه ديمتريوس من أجل السيطرة على ملكية حوض بحر إيجه - طلبت مدينة إيتانوس الحماية المصرية - خشية وقوعها فى قبضة انتيجونوس (١٤) . ويحدثنا نقش بأن بطلميوس الثالث قد ورث كريت عن والده وجده (١٥) . وهكذا يمكن القول بأن سوتير قد مهد لخلفائه حكم الجزيرة .

ومنذ أيام حرب خريمونيديس بذل بطلميوس الثانى كل مساعيه لتوطيد نفوذه السياسى والعسكرى فى الجزيرة وأقيمت هناك حامية بطلمية بمدينة ايتانوس (١٦) . ومنها امتد سلطانه إلى بعض المدن الكريتية الأخرى الواقعة على الشاطىء الشمالى للجزيرة مثل أولوس وأبتيرا وريثومانا (١٧) . وبطبيعة الحال -- كانت تلك المدن بمثابة قواعد عسكرية لتدعيم سياسة البطالمة البحرية بمنطقة بحر إيجه . تابع بطليموس الثالث سياسة أجداده التوسعية وضم إلى مملكته قورينائية وبعد انتصاراته فى الحرب السورية الثالثة نال عدداً من المدن السورية بآسيا الصغرى -- الأمر الذى ترتب عليه تحالف بعض المدن الكريتية معه مثل اليوتيرنا ولاباوجورتينا (١٨) . وكانت المدينة الأخيرة مركزاً رئيسياً للنفوذ البطلمى فى كريت بعد إيتانوس - مما جعلها تساهم فى استقطاب عدداً آخر من المدن الكريتية للانضمام تحت لواء السيادة البطلمية . وحرى بالتنبيه أن نجاح سياسة يورجيتيس الأول فى كريت قد ساعده على بسط سلطانه على معظم حوض بحر إيجه . إذ لم يعد سيداً على جزر السيكلاديس وساموس فحسب - بل امتد نفوذه حتى أقصى شمال الايجى أى إلى ساموتراقى وبعض المناطق بتراقيا (١٩) . ومع هذا - فعلى الرغم من عدم معرفتنا امتداد

حدود السيادة البطلمية بمنطقة البحر الإيجى إبان عصر البطالمة الأوائل — إلا أن تعليق المؤرخ بوليبيوس كافياً للقول بأن حكام مصر كانوا ناجحين إلى حد كبير وأن هذا النجاح انعكس على سياستهم فى كريت[٢٠] .

وما أن تولى عرش مصر — بطلميوس الرابع صادفته متاعب داخلية وخارجية خاصة بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق.م. لكنه ظل محتفظاً بحامياته التى كانت منتشرة فى المنطقة الايجية . إذ استمرت المناطق الساحلية فى ليكيا وكاريا وتراقيا وأفيسوس وجزيرة تيرا وساموس ولسبوس تحت النفوذ البطلمى[٢١] . أما كريت لم يتمكن هذا الملك من إحكام قبضته عليها — هذا إذا استثنينا أقوى المعاقل البطلمية وهى ايتانوس . ويرجع سبب ذلك إلى ازدياد نفوذ فيليب الخامس بمنطقة البحر الايجى . فلقد عمل هـــذا الملك المقدونى على احتلال كريت عام ٢٢٠ — مستغلا فرصة النزاع المصرى — السورى حول ملكية جوف سوريا . ويخبرنا سترابون بأن فيلوباتور فور سماعه بالغزو المقدونى لكريت أرسل قواتاً بطلمية إلى مدينة جورتينا وكلفت هذه القوات بضرورة إعادة بناء أسوارها والدفاع عنها ضد أطماع مقدونيا لكن أعمال البناء توقفت[٢٢] . ومرد هذا يرجع إلى التغير الذى طرأ على وضع مصر العسكرى فى هذه المدينة بصفة عامة وفى مصر بصفة خاصة . إذ اضطر فيلو باتور فور اندلاع لهيب الحرب السورية الرابعة إلى استدعاء قواته العاملة فى كريت للاستعانة بهم فى هذه الحرب[٢٣] — مما مكن مقدونيا من احتلال مدينة جورتينا وشجعها على ذلك صديق فيليب وهو أراتون السيكونى والذى نصب حاكما على الجزيرة وعمل على تدعيم النفوذ المقدونى هناك[٢٤] . ودليلنا على هذا — أننا بعد عام ٢٢٠ لم نجد فى الوثائق ما يفيد الوجود البطلمى فى جورتينا[٢٥] .

لكن انهيار النفوذ البطلمى فى كريت وازدياد السيادة المقدونية فيها لا يعنى فى الواقع أن بطالمة مصر الأواخر قد أهملوا شئون الجزيرة . إذ لدينا نقش مؤرخ

منذ أوائل أيام بطلميوس الخامس يؤكد وجود حامية بطلية باتيانوس(٢٦) . ولكن كما هو معروف أن إبيفانيس ورث عن أبيه مشاكله الداخلية والخارجية. ففي الداخل استمر لهيب الثورات القومية في الاندلاع إلى جانب فساد رجال الحاشية . مما أدى إلى إهمال شئون مصر الخارجية . فضلا عن هذا - طرأت تغييرات دولية بظهور ثلاث قوى تصارعت من أجل السيطرة على حوض بحر إيجه - وهم مقدونيا وسوريا السلوقية ثم روما التي بدأت تدس أنفها في شئون الشرق الهلليني منذ نهاية القرن الثالث . زيادة على ذلك واجه هذا الملك عدوانا خارجياً على ممتلكاته عبر البحار من قبل السوريين والمقدونيين(٢٧) . ونتيجة لهذه الظروف وهزيمة مصر في الحرب السورية الخامسة لم يفقد البطالمة فلسطين فحسب(٢٨) - بل أيضاً معظم ممتلكاتهم بآسيا الصغرى ، وجزر بحر ايجه . لذلك كان من الضروري سحب القوات البطلمية من إيتانوس إما لاستخدامها في الحرب السورية الخامسة أو لإخماد لهيب الثورات القومية . أضف إلى هذا - أن كريت وقتذاك تغير وضعها السياسي عما كانت عليه من قبل . إذ بعد التوسع المقدوني فيها منذ الربع الأخير من القرن الثالث - نجد في غضون العشر الأوائل من القرن الثاني - اضمحلال هذا النفوذ وتكالب كل من برجامون ورودس عليها(٢٩) - إلا أن روما وقفت لهما بالمرصاد كي تنفرد بحكم كريت . ويبدو أن بطلميوس الخامس قبل بمحض إرادته الوجود الروماني بها لمناهضة مقدونيا وبرجامون ورودس خاصة بعد انسحاب القوات البطلمية من هناك(٣٠) .

وقع بطلميوس السادس ضحية للنزاع الأسرى وتعرضت مصر أيامه للغزو السوري(٣١) ، كما أقلقت مضاجعه الثورات المصرية . ولكن مع مرور الأيام عندما آل حكم سوريا إلى ديمتريوس الثاني سمحت الظروف باستعادة النفوذ البطلمي على كل من ايتانوس وجزيرة ليوكي وجورتينا(٣٢) . ويبدو أن فيلوميتر قد تدخل في شئون الجزيرة عندما كان يحكم مصر بمفرده. إذ يحدثنا نقش يفيد

وجود مصريين وطنيين ضمن أفراد الحامية البطلمية بجورتينا[٣٣] — كما أنه لم يشر فى الوقت نفسه إلى اسم والدته كليوباتره الأولى أو إلى زوجه كليوباترة الثانية أو إلى بطلميوس الثامن . وعليه يمكن القول بأن هذا الملك قد انفرد بحكم الجزيرة ومصر مرتين. الأولى عام ١٧٦ — ١٧٠ ، والثانية مابين ١٦٤ - ١٤٥. ذلك لأن والدته توفيت عام ١٧٦ وكانت شريكة له فى الحكم كما أن يورجتيس الثانى قد أشرك معه منذ عام ١٧٠ - ١٤٥ [٣٤]. ولكن بعد وفاة فيلوموتر سحبت القوات البطلمية من كريت أى بعد عام ١٤٥ ق.م[٣٥].

جدير بالذكر أن ضعف البطالمة وفقدانهم معظم ممتلكاتهم لا ينفى القول بأنهم قد تخلوا تماماً عن كريت بعد وفاة بطلميوس السادس — هذا على الرغم من أن روما حولتها إلى ولاية رومانية عام ٦٧ ق.م[٣٦]. إذ يحدثنا نقش من مدينة جورتينا مؤرخ فى عام ٥٠ ق.م بأن هناك قواتاً بطلمية مقيمة فى الجزيرة[٣٧]. ويخبرنا ديون كاسيوس بأنه فى عام ٣٦ منح أنطونيوس كليوباتره السابعة كريت وقورينى[٣٨] . وهناك اشارة صريحة تفيد بأنه حتى أواخر أيام البطالمة كان النفوذ البطلمى مستمراً فى كريت وممثلا فى استعادة أيديهم على قورينائية وبعض أجزاء أخرى من كريت . ويمكن الافتراض بأن مدينة إيتانوس قد انضمت إلى بقية المدن الكريتية التى آلت ملكيتها إلى ملكة مصر . وهذا ربما يوضح لنا مدى استمرار العلاقات المصرية — الكريتية خلال الفترة التى تلت رحيل القوات البطلمية من ايتانوس . أضف إلى ذلك — أن هناك عدداً من العملات البطلمية سكت فى قورينائية وعثر عليها فى كريت إبان تلك الفترة ، ونقش عليها بطولمايس وصورة التمساح — رمز مصر فى العصر الرومانى . ويبدو أن كراسوس أحد أنصار أنطونيوس قد تولى أمر الدفاع عن كريت لصالح ملكة مصر[٣٩] .

٢ — الناحية الإدارية : ليس لدينا معلومات كافية عن نظام الحكم والإدارة

البطلمية فى كريت وبصفة خاصة فى إيتانوس ، لكن يمكن الافتراض بأن البطالمة اتبعوا نفس سياستهم ونظمهم الإدارية التى مارسوها فى ممتلكاتهم المنتشرة عبر البحار. ومع هذا فمن الغريب حقاً أننا نجد كريت معفاة من الضرائب[٤٠]- مما يدفعنا إلى الاستنتاج بأنها كلفت بأعباء أخرى أهمها مسئولية إمداد جنود الحاميات هناك بما يلزمهم من مواد غذائية وثكنات عسكرية وعلف الخيول - قياساً على ما حدث بجزيرة تيرا[٤١] .

وعلى الرغم من قلة مصادرنا الخاصة بتنظيم وتشكيل الحاميات البطلمية بمدينة ايتانوس والمدن الكريتية الأخرى - إلا أنه يمكن القول بأنها كانت على نمط التنظيم والتشكيلات العسكرية والإدارية فى كل من قبرص وتيرا. ويرى روستوفتزف بأن النظام العسكرى فى تيرا كان مرتبطاً بمواردها المالية والأمر نفسه ينطبق على كريت[٤٢] . إذ وجدنا نقش يشير إلى موظف الايكونوموس وهو الرجل الثانى بعد الحاكم العسكرى فى تيرا - وكان هذا الموظف مسئولا عن الشئون الإدارية - أى كان يشغل منصب السكرتير (الكاتب العسكرى) لحامية تيرا وامتد نفوذه إلى كريت ومدينة ارسينوى بالبليبونيز[٤٣] . وهذا يعنى بأن كريت كانت إدارياً وعسكرياً تابعة لتيرا وبالتالى كانت الأخيرة خاضعة تحت إشراف وزير المالية بالإسكندرية. ولهذا لم نجد فى كريت أى شخص شغل وظيفة القائد العام أى برتبة atrategos - هذا إذا صرفنا النظر عن باتروكلوس[٤٤] . لكن الذين شغلوا مناصب عسكرية كانوا يحملون رتباً عسكرية مثل قائد حامية phrourarchos [٤٥] وآخر يحمل رتبة خليارخوس[٤٦] . ويجب أن نتوقع بأن هؤلاء العسكريين وغيرهم من الموظفين نالوا ألقاباً لحرية أسوة بزملائهم من قادة الحاميات البطلمية[٤٧]. لم نعرف بالضبط كم كان عدد العاملين بحاميات كريت إلا أن جنسياتهم واضحة لنا وغالبيتهم من المرتزقة - الأمر الذى دفع العالم جريفيث إلى القول بأن

المصريين حرموا من حق المشاركة فى حراسة الحاميات البطلمية خارج مصر لعدم ثقة البطالمة فيهم[٤٨] . ويرد عليه بأن وجود المصريين فى الخارج كان أقل خطراً من وجودهم بالداخل — ومن ثم وجدناهم يعملون فى حاميات جزر الكيكلاديس وفى كريت والبيليوتيز[٤٩] .

لم تفصح المصادر عن وجود أراض ملكية يقوم بزراعتها فلاحون ملكيون أو أراضى ممنوحة للجنود أو حتى أراض هبات أو أراض موقوفة على المعابد . وبالتالى لم نسمع عن ضريبة الأبوميرا ولا عن المراقب الإدارى epistates ويبدو أن الذى كان يشغل هذه الوظيفة فى تيرا كان مسئولا عن كريت ويعاونه الأيكونوموس فى إدارة أمور الجزيرة . وربما يرجع تفسير هذا الى أن البطالمة كان جل اهتمامهم هو الدفاع فقط عن الجزيرة وحماية أقوى معاقلهم ايتانوس . ويمكن الافتراض بأن سياسة بطلميوس الأول الذى قلد فيها انتجونوس الأعور والخاصة بتحرير المدن الإغريقية قد انعكست على ايتانوس وبقية المدن الكريتية الأخرى وقام خلفاء سوتير باتباع هذه السياسة[٥٠] .

أما عن التجارة فمعلوماتنا عنها نادرة جداً — لكن يجب التوقع قيام علاقات تجارية خاصة بين الإسكندرية وكريت . إذ صدرت العاصمة البطلمية إلى الجزيرة بعض الأوانى الفخارية لتخزين المواد الغذائية ولتصدير بضائعها فيها . كما استوردت مصر من كريت المعادن والأخشاب وبعض المنتجات والحاصلات الزراعية والأسماك والعبيد . وللأسف لم نسمع عن وكلاء بطلميين للشئون التجارية فى الجزيرة أسوة بما كان فى فلسطين أو الجزر المنتشرة فى بحر إيجه مثل ديلوس ورودس . ويبدو أن التعامل التجارى كان يتم من الإسكندرية إلى الجزيرة مباشرة عن طريق التجار وسفن الشحن الإغريقية التى كانت تقوم بنقل البضائع الى جنوب بلاد اليونان ومنطقة غربى البحر المتوسط . ونتج عن ذلك وجود عملات بطلمية سكت لأغراض تجارية بالإضافة الى العملات المحلية

التى كانت تصدرها المدن الكريتية لتنشيط وتسهيل التجارة بينها وبين أقطار العالم الهلليلستى . وكانت تجارة كريت مرتبطة بتجارة حوض بحر ايجه مثلما كانت فى جزيرة تيرا وقبرص ويبدو أن المسئول عنها كان موظف الأيكونوموس فى تيرا ويعاونه المراقب الإدارى هناك(٥١) .

٣ – موقف البطالمة من دويلات المدن الكريتية : وجد بكريت أكثر من ٣٠ مدينة مستقلة وسعت كل واحدة لتحقيق حريتها واستقلالها الذاتى(٥٢) . وكانت تلك المدن تتألف من عنصرين هامين – لكن العنصر الدورى كان أهمها . اذ نجده متمركزاً فى كل من براسيوس وهيرايونانيا ولوتس أما ايتانوس التى كانت موالية للحكم البطلمى كان أغلب سكانها من العنصر الميتوى(٥٣) . لذلك لا بد من وجود خلاف بين هذين العصرين – أى بين ايتانوس من جهة وبين براسيوس وهيرايوتانتيا من جهة أخرى . وكما يرى روستوفترف – أنه من الصعب الحديث عن تاريخ هذه الجزيرة السياسى والاجتماعى طوال العصر الهلليلستى نظراً للخلاف الدائم بين سكانها(٥٤) . ومن ثم انقسمت كريت الى شطرين – الغربى – ويشمل كل من هيرايوتانيا واليروس واسترون ولاتو ثم أولوس . أما الجزء الشرقى والذى كان يعرف اصطلاحاً باسم Eteocretans وأهم مدنه إيتانوس – امبيلوس وبراسيوس . ومع الأيام تغير الوضع فى كريت خاصة بالنسبة لتلك المنطقة التى أطلق عليها بالإيتوكريتية وظهرت ثلاث مدن مستقلة تتنافس كل منهما على مركز الزعامة وتلك المدن كانت ايتانوس وبراسيوس وهيرايوتانيا .

جدير بالذكر أن التنافس بين هذه المدن قد جرهم إلى صراع دائم – الأمر الذى جذبهم إلى الدخول فى الصراعات التى دارت بين الممالك الهلليلستية . إذ كانت براسيوس مؤيدة لأنتيجونوس الأعور ومعها كنوسوس وكودونيا(٥٥) . وحدث أن اعتدت براسيوس على إيتانوس – مما اضطر الأخيرة إلى طلب

الحماية المصرية . وهذا يفسر لنا اسراع بطلميوس الأول لإنقاذها كما يؤيد لنا سبب اهتمام بطلميوس الثانى بأمرها أيام حرب خريمونيديس(٥٦) . لكن الوجود البطلمى بإيتانوس لم يثلج صدر مدينة هيرا يوتانيا مما عجل بسرعة التصادم بينهما . ويرجع السبب فى تفاقم الأمور بين المدينتين أن البطالمة أباحوا أعمال القرصنة فى بحر إيجه لتنفيذ أغراضهم السياسية(٥٧) . وأخيراً أفضى الصراع بين الدويلات الكريتية — خاصة منذ النصف الثانى من القرن الثالث — إلى التآلف بينهما وتكوين تحالف كونفدرالى للتصدى لأى عدوان خارجى(٥٨) . وبطبيعة الحال — لم يكن فى صالح البطالمة استمرار النزاع بين المدن الكريتية — لهذا رحبوا بذلك التحالف لتثبيت أقدامهم فى الجزيرة .

ولنأتى الآن إلى موقف سوتير تجاه سكان المدن الكريتية — للأسف لم نجد فى أيامه أية إشارات صريحة تكشف لنا موقفه إزاء كريت ذلك لأن سكان الجزيرة إبان عهده كانوا فى حالة صراع مع أنفسهم(٥٩) . لكننا نعرف فقط بأنه استخدم جنودها المرتزقة فى حامياته داخل وخارج مصر . أما عن موقف فيلادلفوس تجاه أهل كريت وبخاصة أهل مدينة إيتانوس فيتضح لنا من وجود باتروكلوس . إذ لم يتدخل هذا الأدميرال البحرى فى حياة المدن السياسية — بمعنى أنه لم يضف جديداً على نظامها السياسى الممثل فى مجلس البولى والجمعية الشعبية . لكن جهوده فى إيتانوس كانت تنحصر فقط فى الدفاع عنها ضد أعـــدائها . نجح باتروكلوس فى إزالة أسباب الخصومة بينها وبين هيرا يوتانيا وبراسيوس . ولهذا اضطرت مدينة كنوسوس إزاء هذا الموقف إلى مصالحة إيتانوس . وبمرور الأيام نالت كنوسوس الزعامة على عدد من المدن الكريتية وأهمها براسيوس وإيتانوس(٦٠) . ويجب أن نعلم بأن باتروكلوس لم يظهر أمام أهل مدينة إيتانوس وكأنه غاز — بل مجرد ضيف حل بها — الأمر الذى جعلها تخلع عليه ألقاب التكريم(٦١) . ولدينا نقش اتيكى يشير بأن بطلميوس الثانى قد اعتبر محرراً للمدن اليونانية . وهذا يعنى بأن نفوذ البطالمة

فى أثينا وأسبرطه ساعدهم وبخاصة أيام باتروكلوس فى إرساء قواعدهم بكريت[٦٢]. أضف إلى هذا - إن باتروكلوس قام بزيارة قصيرة لمدينة أولوس مما ساهم فى استقطاب غالبية المدن الكريتية فى صف البطالمة[٦٣]. ومن ثم يمكن القول بأن بطلميوس الثانى قد سمحت له الظروف حينئذ - وخاصة بعد استتباب الأمور - فى إنشاء مدينة جديدة حملت اسم زوجته أرسينوى وهى التى كانت تعرف بإيتانوس[٦٤]. وهناك بحـارة من كريت كانوا تحت إمرة باتروكلوس[٦٥].

كانت الهيئة الحاكمة فى إيتانوس (أرسينوى) إبان النصف الأول من القرن الثالث - ارستقراطية ولكنها مع الأيام اتخذت الديمقراطية أسلوباً للعمل السياسى بها. ومن المعروف بأن باتروكلوس سعى إلى تهدئة خواطر مواطنى إيتانوس ومن ثم كان مؤيداً لنظام الحكم الارستقراطى ودافع عنه ووقف ضد الذين حاولوا تغيير نظام الحكم. ولهذا كانت تلك الهيئة مؤيدة الوجود البطلمى وسعت من جانبها على انتشاره فى المدن الكريتية الأخرى[٦٦].

وبالرغم من توسع نفوذ بطلميوس الثالث عسكرياً فى كريت - لكننا لم نسمع شيئاً عن موقفه قبل أهل الجزيرة[٦٧]. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى الوجود المقدونى هناك. إذ قامت مقدونيا بمناهضة النفوذ البطلمى فى كريت عام ٢٢٧ - ٢٣٦ق.م وكانت جورتينا مركزاً لهذه الحركة[٦٨]. فلقد قامت هذه المدينة مع أنصارها بغزو لوتوس عام ٢٢١ - ٢٢٠ وكان فيليب الخامس وراء هذه الحركة الأخيرة - بهدف إثارة الفوضى والاضطرابات فى جميع أنحاء كريت. ويستدل ذلك من إرسال مبعوث للقيام بهذه المهمة لتهديد المصالح المصرية فى أقوى المعاقل وهى إيتانوس[٦٩]. وربما هذا يفسر لنا سحب القوات البطلمية فى أيام الحرب السورية الرابعة - من هذه المدينة. ولكن هناك رأى يقول بأن تلك القوات قد فشلت فى مقاومة مقدونيا[٧٠].

ومنذ أيام فيلوپاتور حتى أواخر عهد بطلميوس السادس لم نجد إشارات صريحة توضح موقف بطالمة مصر الأواخر تجاه دويلات المدن الكريتية . لكننا نسمع عن تحالف فيلومتر مع الاتحاد الكريتي[٧١] . كما أنه فى عام ١٧٦ - ١٦٨ قام هذا العاهل البطلمى بدور الوسيط بين جورتينا وبين كنوسوس وأن موقفه فى الجزيرة قد دعم بعد تصالحه مع أخيه الأصغر[٧٢] . ونستشف أيضاً من خلال دراستنا لنقوش الاهداءات التى قدمت للبطالمة بأن كريت كانت إلى حد ما بها أنصار للسياسة البطلمية .هذا بالإضافة إلى وجود أعداد غفيرة من مرتزقة كريت يعملون فى خدمة البيت البطلمى فى هذه الفترة[٧٣] . ولكن وكما أسلفنا القول أن النفوذ المقدونى ساهم فى مطاردة الوجود البطلمى وطمعت بعض الممالك فى كريت لثروتها البشرية - نظراً لقلة عدد المرتزقة ونضوب معينهم فى أسواق العالم اليونانى وآسيا الصغرى - بسبب كثرة الحروب الطاحنة التى دارت رحاها بين القوى المتصارعة فى هذا العصر وأخيراً آلت الجزيرة إلى السيادة الرومانية .

إن الكريتيين الذين أقاموا فى مصر وخارجها أسسوا جمعيات قومية خاصة بهم[٧٤] كما كانت لديهم أندية عسكرية - دينية أيام بطلميوس الثامن[٧٥] . هذا فضلا عن شغل البعض منهم مناصب فى مكتبة الإسكندرية[٧٦] . ويمكن القول دون مبالغة بأن النفوذ البطلمى فى الجزيرة ظهر واضحاً من خلال انتشار العبادات والآلهة المصرية بكريت . ويرجع السبب فى ذلك إلى عاملين - أولها - وجود المصريين فى الحامية البطلية ، وثانيهما - عن طريق المرتزقة الإغريق الذين أغرتهم الديانة المصرية ومن ثم أدخلوها فى أوطانهم بعد عودتهم إليها - وخاصة فى جزيرة ديلوس التى ساهمت بقدر كبير فى نشر العبادات المصرية فى معظم حوض بحر ايجه وشمال مقدونيا[٧٧] . ولدينا نقش من إيتانوس خاص بعبادة الربة المصرية إيزيس[٧٨] ، كما وجدت معابد لسرابيس فى لوتوس وتوكيلاسون وفوتيكى وهيرابوتانيا . كما عبدت إيزيس فى لاسيا وفايستوس

وفى أولوس ازدهرت عبادة كل من إيزيس وسرابيس . وعثر فى كل من لاتوس وايتانوس على معابد للإله سرابيس[٧٩] . وهكذا غزت العبادات والآلهة المصرية معظم مدن كريت - خاصة ذلك الثالوث - ايزيس وسرابيس ومعهما أنوبيس[٨٠] .

وقد ظهر تأثير الديانة المصرية واضحا على عملة المدن المحلية مثل تلك التى وجدت فى كنوسوس . إذ ظهر على عملتها رأس الإله آمون - زيوس[٨١] -

ونخلص بالقول بأن البطالمة عملوا على نشر الحضارة الإغريقية فى كريت ويتضح لنا صحة ذلك من حمل البعض من سكانها أسماء الملوك البطالمة وأسماء يونانية ومقدونية[٨٢] .

الحواشى

* أقدم جزيل شكرى للاستاذ الدكتور كايسومينوس أستاذ علم البردى بجامعة تسالوتيكى والأستاذ الدكتور باسيلى مندلاراس أستاذ الأدب الكلاسيكى بجامعة اتينا على ما قدماه لى من عون .

1) G. Glotzy, The Aegean Civilisation, London 1925, pp. 31-41, 157, 202-213, 220-227.

راجع د. عبد اللطيف أحمد على ــ التاريخ اليونانى ــ العصر الهللادى ــ بيروت ١٩٧٤ ، حـ ٢ ، ص ٦٥١ ــ ٦٦٠ ، ٦٩١ ــ ٦٩٥ ج ــ فركوتيه ــ قدماء المصريين والأغريق ــ ترجمة محمد على كمال الدين . د. كمال الدسوقى ــ مراجعة د. محمد صقر خفاجة . انظر أيضا أحدث الدراسات فى

IV International Congress on Cretan Studies Heraclion-Crete, 29 August-3 September 1976, esp. vol. 11, Rev. by A.E. Karathanasis,BS 17 (1976) pp. 386-387.

2) H. Van Effenterre, La Crete et le monde grec de Platon à Polybe, Paris 1948, esp. pp. 31-35.

٣) نال موقع الجزيرة اعجاب الكتاب الاغريق ــ كارسطو
(Politics 1271 (b)) وبوليبيوس (VI, 45,1) وكذلك سترابون (x, 477)

cf. F. W. Walbank, A Hisorical Commentary on Polybius, vol. I, Commentary on Books 1-VI, Oxford 1957, p. 726., Effenerre, op. cit., p. 114.

٤) كانت كريت مزدهرة بشريا على عكس معظم الدويلات الأغريقية . انظر :

E. Makarojiannakis, Crete during the Hellenistic Period, Diss. Athens 1967, pp. 34 sqq. (in Greek). cf. S. Spyridakis, Ptolemaic Itanos and Hellenistic Crete, Brekeley 1970, pp. 42-45.

5) M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford 1951, vol. I, p. 785, Effenterre, op. cit., pp. 212, 302.

6) Arrian, Anab., 1, 25, 9, 11, 13, 6, 111, 2, 6, Curt., 111, 1, 10 cf. E. Badian, Agis 111, Hermes 95 (1967) pp. 117-120.

7) E. Will, Histoire politique du monde Hellénistique, Nancy 1966, vol. 1, pp. 59-64.

8) P. Jouguet, Macedonian Imperialism and the Hellenisation of the East, London 1928, pp. 241 sqq., E. Will, op. cit., pp. 133-186

وعن راى ارانجو رويز انظر مناقشته عند د. محمود السقا ــ تاريخ القانون المصرى ــ القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٧٩ ــ ٨٠ .

٩) عن الحاميات البطلمية فى الخارج انظر :

W. Peremans-E Van T-Dack, Prolégoménes a une étude concernant le Commandant de place lagide en dehors de l'Egypte, P. Lugd. Bat., Leiden 1968, vol. XVII, pp. 81-99.

راجع ايضا أحدث الدراسات للعالم الأمريكى :

R.S. Bagnall, The Administration of the Ptolemaic Possessions outside Egypt, Leiden 1976.

10) M. Gaurducci, Inscriptiones Creticae opera et Consilio F. Halbherr Collectae, Rome, 4 vols. 1935-50 (cited IV), vol. III, no. 7, cf. W. Dittenberger, Sylloge inscriptionum Graecorum, Hildesheim 1960, 4th. ed., (cited. Syll., no. 526.

يرى لونيه (REA 17 (1915) p. 36-37) بأن زيارة باتروكلوس حدثت فى بداية حرب خريمونيديس اى فى عام ٢٦٦ لكن ديتنبرجر فى تعليقه على النقش رقم OGIS no. 45. يعتقد بأن هذا الادميرال أبحر أولا الى الخليج السارونى ثم وصل الى كريت بعد ذلك . اما بفان فيرى بأن هذه الزيارة حدثت اما أثناء حرب خريمونيديس أو بعدها بقليل .

A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, rep. chicago 1968, p. 63.

لكن Effenterre, p. 248 يرى بأنها تمت فى الفترة ما بين ٢٧٠ — ٢٦٥ . وعن تفاصيل اكثر انظر : spyridakis, op. cit., p. 70, fn. 5.

١١) ترى مرجريتا جاردوتشى (IC 11, p. 85) بأن سوتير سيطر على اتيانوس وتعارض راى ربناك فى مقالته inscriptions d'Itanos, REG 24 (1911) pp. 337-425,esp. pp. 395-397.

12) Spyridakis, op. cit., p. 76, Bagnall, op. cit., pp. 111-112, Rostovtzeff, op. cit., p. 1315, fn. 7.

١٣) بالاضافة الى الضابط الكريتى براكسـاجوراس الذى خدم فى قبرص — هناك آخرون عملوا فى خدمة سـوتير بأقليم أوكسـيرينخوس . وحوالى عام ٢٦٣ وجدنا ضابطا كريتيا من أبناء السلالة «Krês tês epigonês» مما يدل على أن والده كان فى خدمة بطلميوس الأول . وهناك آخر من كريت يدعى نومينوس كان فى حاميـة الفنتين — (P. Eleph. 2.). انظر بصفة خاصة M. Launey, Recherches sur les armées hellénistiques, 2 vols. Paris 1949-50, vol. I, pp. 249-250

14) E. Will, op. cit., 1, p. 63.

15) IC 111, no. 4, p. 83, Syll. no. 463, «epeidê Basileus Ptolemaios/paralabôn ton Itanion polin kai politas para to potros Basileôs Ptolemaiô kai ton progronon».

16) IC. 111, no. 2, p. 82, OGIS, no. 45.

17) Effenterre, op. cit., pp. 219-222, Makaro J. iannakis, op. cit., pp. 32-36.

18) IC 11, pp. 221, 268, 111, no. 4, p. 83 (Itanos), 11, no. 24, p. 164, (Eleutherna) 11, no. 2, p. 22 (Phalasarna) 11, no. 11, p. 65, (Lappa).

19) Bouchè-Leclercq. Histoire des Lagides, Paris 1903, vol. 1, p. 263.

وعن ساموتراقى — انظر : IG XII, 8, 157.

انظر كذلك Bagnall, op. cit., pp. 80, 151, 159.

20) Polyb., V. 34, 8, «kai porrôteron eti poleôn kyrieuontes.» cf. Walkank, op. cit., I, pp. 565-566.

21) Spyridakis, op. cit., p. 95.

22) X, 478 : «ho Philopatôr Ptolemaîos armenos teichizein (tên Gortyna) hason epi oghdoêkonta stadious parêlthen monon». cf. Effenterre, op. cit., p. 253.

23) Polyb., V. 65, 7 «echôn tous mên pantas Krêtas eis trischiious,» cf. ibid., V, 63, 12; X,65, 7, W. Peremans, Notes sur la bataille de Raphie, Aegyptus 31 (1951) pp. 214 sqq.

24) Spyridakis, op. cit., p. 96 fn 117.

25) Makaro J. iannakis, op. cit., pp. 19-21.

26) W. Peremans et alii, Prosop. Ptolem., vi, no. 15130.

27) D. Magie, The agreement between Philip V and Antiochus 111 for partition of the Egyptian Empire, JRS 29 (1939) pp. 32-44, cf. E. Will, op. cit., 11, pp. 98-101.

انظر أيضا د. ابراهيم نصحى — تاريخ مصر فى عصر البطالمة . القاهرة ١٩٦٦، حـ ١ ص ١٥٠ حاشية رقم ١ ، ٤ .

٢٨) انظر بحثى . تاريخ فلسطين فى عصر البطالمة — دراسة على أوراق البردى . الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية — ١٩٧٨ ، ص ١ — ٥٠ .

29) G. Starr, Rhodos and Pergamum 201-200 B.C., cl. Ph. 23 (1938) pp. 63 sqq. E. Will., op. cit., 11, pp. 63-65, 108-113.

30) Spyridakis, op. cit., p. 84, but Bagnall, op. cit., p. 118, doubting.

31) J.W. Swain, Antiochus Epiphanes and Egypt, cl. Ph. 49 (1944) pp. 73 sqq. cf. E. Will, op. cit., 11, pp. 259-274.

32) IC 111, no. 9 AB, «echon/tes de nêsous kai memomenoi en ais kai tên kaloumenên Leukên—» 111, no. 9 B, p. 99. «eis tên néson phrouriou— eis tê nêson pollakis stratiotôn grammatôn te apostolais...»

33) IC IV, no. 195, p. 274. cf. IG XII, no. 466., OGIS, 102.

وكان عددهم ستة أفراد عرفوا بأسمائم المصرية الخالصة . وهم كالاتى

(1) Pathris son of Inarâs, (2) Nechthis son of Paîs, (3) Onnophris son of Horus, (4) Keleêsis son of Petasiris, (5) Psenobastis son of Athonnôphris, (6) (Orse) nophis.

لكن ريناك فى مقالته السالفة ص ٤١٣ يرى بأن وجود المصريين هناك كان لأهداف دينية بحتة . ونحن لا نتفق معه اذ لم يكن هم المصريين فى الخارج هو نشر العبادة المصرية — بل لأعمال عسكرية وتجارية أيضا اذ انتشرت الالهة المصرية فى الخارج عن طريق التجار والجنود المرتزقة الأغريق وكذلك بفضل الدعاية الدينية التى روجها وكلاء البطالمة المنتشرون عبر البحار .

34) P.W. Pestman, Chronologië Egyptienne d'après les textes démotiques, P. lugd. Bat., XV, Leiden 1967, pp. 46-55.

35) Makarojiannakis, op. cit., pp. 43-45.

36) Th. Ch. Sarakakis, The Eatern Policy of Rome, Thessaloniki, 1975 pp. 19-25 (in Greek).

37) IC IV, 215 (C), p. 288.

«G. lyt (o) atios kai Crispos stratiotês Pto [lemaîkos] Gortyniôn proxenos kai polìtas autos kai engonoi.»

38) 49, 32, 5 «Krêtês te tina kai Cyrênêne».

٣٩) انظر بالتفصيل : Spyridakis, pp. 80, 87-88.

40) M. Rostovtzeff, op. cit., 1, p. 333.

41) ibid., p. 334.

42) ibid., p. 1398, fn. 129.

43) IG XII, 466 «ho grammateus ton kata krêtên kai Theran kai Arsinoên ten en tê Peloponnesô stratioton kai machimôn kai oikonomos tôn auton topôn...»

44) Peremans et alii, op. cit., no, 15063.

45) ibid., nos. 15117, 15130.

وعن اختصاصات شاغل هذه الوظيفة انظر :

Peremans, Prolegomenes..., pp. 88-87, Bagnall, op. cit., p. 50.

46) Peremans et alii, op. cit., no. 15130.

وجدت هذه الرتبة العسكرية فى جيش الاسكندر وخلفائه وطبقا لديودروس نقلت من الفرس (XVII, 48, 4)

cf. W. Tarn, Alexander the Great, Cambridge 1948, vol. II, p. 167.

47) L. Mooren, The Aulic titulature in Ptolemaic Egypt, Introduction and Prosopography, Leiden 1975, no. 367.

48) The Mercenaries of the Hellenistic World, Cambridge 1935, p. 133.

٤٩) راجع للمؤلف رسالة الدكتوراه غير منشورة .

Native Egyptians in the Ptolemaic army, Thessaloniki 1974, p. 86. cf. also IC IV, p. 274.

50) E. Will, op. cit., I, pp. 59-64.

51) Rostovtzeff, op. cit., p. 1406, fn. 163, Spyridakis, op. cit., pp. 17, 42, 44.

٥٢) ورد عند الشاعر هوميروس أن كريت بها حوالى ١٠٠ مدينة وفى الأوديسا اشار بوجود ٩٠ مدينة . ومن ثم تضاربت أقوال الكتاب فى تحديد عدد المدن الكريتية فى العصر الهللادى والكلاسيكى . ولكنه طبقا لما ورد فى (Syll., no. 647) كان بها ابان العصر الهلليستنى ٣٠ مدينة .

53) Spyridakis, op. cit., pp. 20-21, Makarojiannakis, op. cit., pp. 14-17.

54) op. cit., p. 247.

55) G. Cardinale, Crete e le grandi potenze ellenistiche. RSA 9 (1904-5) pp. 69-94.

56) ibid., pp. 75-77.

57) A.H. Ormerod, Piracy in Ancient World, London 1924, pp. 146-148, W. Tarn-G.T. Griffith, Hellenistic civilisation, London 1966, p. 92.

58) R.F. Willetts, Aristocratic Society in Ancient Crete, London 1965, pp. 227-228, Effenterre, op. cit., pp. 41-52.

59) Makaro Jiannakis, op. cit., pp. 43-45.

60) Willetts, op. cit., pp. 128-129, Effenterre, op. cit., pp. 169, 219.

61) IC 111, nos. 2, 3, pp. 8, 83, OGIS, 145 «polla/synergêse/tois Itaniois ho/pôs ta te kata tên polin/asphaleôs echêi politeuome/nônton itaniôn kata tous/nomous kai tan chôran meta/pasas asphaleias nemôntai...» انظر أدناه حاشية ٦٣

62) Syll., nos. 433-434, 25 sqq. «Kai Krêtaeôn hosoi eisin en tei symm/achiaitei Lakedaemoniôn kai Areôs»., ibid., 16 sq. «ho te Basileus Ptolemoios spoudazôn hyper tês koinês tôn Hellênôn eleutherias».

63) IC 1, no. 4 (a), pp. 247-248, Col. V, 35 eq. «Epi damiourgou leukou edoxe tois politais pro/xenos hêmen kai euergetas Patroklon Patrônos Makedona».

64) Effenterre, op. cit., pp. 247-248.

65) Launey, op. cit., I, p. 250.

66) Willetts, op. cit., pp. 128-129, Effenterre, op. cit., pp. 169-170.

٦٧) ومع ذلك لدينا نقش من ايثانوس يفيد بأن أهلها خلعوا عليه وعلى زوجه برنيكى القاب التكريم – انظر :

IC 111, no. 4, p. 83, Syll. 463.

68) ibid., IV, no. 167, p. 229.

٦٩) أرسل فيليب الخامس مبعوثه الخاص وهو برديكاس الى كريت

Ibid., 1, no. 52, p. 62.

70) Spyridakis, op. cit., p. 96.

71) IC 111, no. 9, p. 100, 107 sq. [egnomen] gar tên tou basileôs Ptolemlaiou prostasian kai [kekyrome] nên para tou koin «ou ton Krêtaieôn....»

72) IC 111, no. 9 A, p. 96, 43 sq. «teleutêsantos de tou Philometoros Ptolemaiou kai ton apostalenton hyp autou charin tou synte/rein Itaniois tên te chôran kai tas nêsous apallagenton,,,», cf. ibid. 37-44.

٧٣) يرى لوتيه (op. cit., I, p. 249) بأن أكبر عدد من الكرتيين المرتزقة خدموا فى عصر البطالمة الأوائل — وبالتحديد فى الفترة ما بين ٢٨٠ — ٢٤٠ ق.م . وهذا يفسر لنا عمق النفوذ البطلمى فى كريت . لكن ذلك لا يعنى بأنهم أصبحوا بعد هذا التاريخ أقلية . اذ سمعنا عن اشتراكهم فى معركة رفح ٢١٧ . كما وجد فى حامية الاسكندرية عام ٢٢٢ — ٢٢١ حوالى الف كريتى . انظر :

Launey, op. cit., pp. 269 sqq., cf. P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria Oxford 1972, I, p. 70, 11, p. 153, fns. 228-229.

وفى أيام بطلميوس الثامن كان سوتير يخوس أحد مواطنى جورتينا برتبة رئيس هيئة الحرس الخاص archisom-atophylakes وعمل تحت امرة باؤوس الحاكم العسكرى العام المصرى الجنسية — وكلف بحراسة طرق التجارة من بلاد العرب والهند انظر :

Peremans et alii, no. 4321

هذا بخلاف الذين خدموا فى قبرص .

OGIS, 108, 113.

74) SEG, XIII, 553, cf. Launey, op. cit., I, p. 273; Griffith, op. cit., pp. 133-134.

75) Willetts, op. cit., p. 227.

76) Peremans, op. cit., nos. 4337, 16518.

٧٧) عن العبادات المصرية فى مقدونيا — انظر :

S. Dull, De Macedonum Sacris, pp. 316-323, R. Witt, The Egyptian Cults in Ancient Macedonia, pp. 324-332 (in Papers read at the first International Sympasium held in Thessaloniki, 26-29 August 1968, Thessaloniki 1970.

اما عن كريت انظر بصفة عامة :

P.M. Fraser, Two Studies on the cult of Sarapis in the Hellenistic World, opsc. Ath. 3 (1960) esp. pp. 30-31.

78) ICl; no. 3, p. 35, Fraser, op. cit., p. 31, fn. 5.

٧٩) ICl, p. 182, (لاتوس) و , ibid., 11, no. 1., p. 230, (فونيكى) , ibid., 1, no. 2, p. 106 (توكيلاسون) ibid., 11, no. 7 (اولوس) , ibid., 1, no. 47, (هيرايونانيا) ibid., 1, no. 11, p. 255 (ايتانوس) ibid., 1, no. 3, p. 35, (لاتوس) p. 146 cf. Reinach, op. cit., p. 414 sqq, Fraser, op. cit., pp. 30-31, ibid., Ptolem. Alex. I, p. 582, 11, p. 826, fns, 218-219.

80) ICl, p. 10.

81) D.S. Pendlebury, The Archaeology of Crete, An Introduction, London 1971, p. 359.

٨٢) اليك على سبيل المثال لا الحصر — حمل اهل حورتينا وابيترا اسم مؤسس البطلمية — انظر :

IG XII, 8, 157, IC 11, no. 11 (a), p. 28.

ومؤنث اسم بطلميوس وجد فى مدينة اركاديس

ICl, no. 29, p. 20.

وكذلك اسم سرابيس وصيغة المؤنث

ICl, no. 39, p. 77.

وكليوباترة حملته سيدة من مدينة لوتوس

ICl, no. 117, p. 215.

وامونيوس فى اتيانوس

SEG 111, 774.

وفى كاتنانوس وجد ايسدورس

IC 11, no. 5, p. 87.

N.B. — الى اللقاء مع « ديلوس فى عصر البطالمة » — تحت الطبع .

كنيسة بيت المقدس
فى العصر البيزنطى

للدكتور رأفت عبد الحميد

مدرس تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب
جامعة عين شمس — وجامعة صنعاء

مذ قدر للمسيحية أن تخرج على نطاق اليهودية وتمضى إلى طريق أمم ، كان عليها أن تتخلى كارهة عن أسلوب التبشير بين الأميين بمعجزات المسيح ، وحياته على الأرض ، إلى مخاطبة عقول أولاء البشر لا عواطفهم ، حيث كانت بعض مدائنهم قد ضربت بسهم وافر فى ميدان الفلسفة ، وأصبحت الفلسفة ذاتها تمثل فى المجتمع الرومانى حوالى القرن الثانى طرائق حياة ، بل توقفت عن أن تصبح موضوعا دراسياً ، وأضحت أساساً على وفاق مع الدين . وكانت الرواقية بصفة خاصة ، بما تنطوى عليه من أخلاق سامية وإيمان بكل الآلهة وجعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعاً ، وفتح باب الفلسفة على مصراعيه، تقدم للإنسان الحائر داخل مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال ،أساساً أخلاقيا للسلوك ومبدأ راسخاً لحياة فاضلة ، ومن ثم كانت الرواقية تمثل من هذه الزاوية عقيدة أخلاقية حتى غدا الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) ضمن حلقة سامعى الفيلسوف ابيكتاتوس Epietetus أشهر رجالاتها فى القرن الثانى بل إن الامبراطور ماركوس أوربليوس (١٦١ — ١٨٠) كان من أعـــلام

الفلاسفة الرواقيين[1] ولم تكن الأفلاطونية المحدثة أو الفيثاغورية الجديدة تقلان شأنا عن قريبتهما .

من أجل هذا كان على المسيحية أن تلبس رداء الفلسفة ، أو بتعبير آخر كان لا بد أن تتفلسف المسيحية . ولا يعنى هذا قيام فلسفة مسيحية بالمعنى الحقيقى لكلمة الفلسفة فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ المسيحية ، ولكنه يعنى فقط مسيحية مفلسفة . حيث أن الفلسفة المسيحية لم تتبلور بصفة أساسية إلا فى القرن الثالث عشر على يد القديس توماس الاكوينى[2] St. Thomas Aquinas .

وكان طبيعياً والحالة هذه أن تتولى إلى الظل طواعية مدينة بيت المقدس ، تاركة الساحة لغيرها من مدائن نصف الامبراطورية الرومانية اليونانى ، بما حوته من مدارس فكرية ومذاهب فلسفية شتى ، بحيث لم يكن فى مقدور بيت المقدس أن تبارى تلك المدائن صيتها الذائع وشهرتها الواسعة فى مجالات الجدل الفكرى ، بعد أن أدت دورها ، الذى أتاحته لها إمكانياتها وقدراتها فى إطار المسيحية اليهودية ، والمسيحية بعد تحبو فى سنى عمرها الأولى .

واقتسمت الساحة الآن مدينتا الإسكندرية وأنطاكية ، وإن اختلف أسلوبهما فى صياغة المسيحية وطرائق التفكير عند كل منهما . فاحتضنت الإسكندرية ، بمدرستها اللاهوتية الشهيرة الفكر الأفلاطونى ، أو بتعبير أدق ، اللاهوت العلمى الأفلاطونى ، مع استخدام التفسير المجازى أو الصوفى ، إن جاز هذا التعبير ، لتفسير الكتاب المقدس ، وبلغت المدرسة السكندرية أوج عظمتها على عهد المفكر والفيلسوف اللاهوتى السكندرى أوريجن[3] Origenes (١٨٥ - ٢٥٤) أما أنطاكية فقد ارتضت النهج الأرسطى واختطت أسلوب تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عقليا ، وعلا قدر مدرستها اللاهوتية على يد فيلسوفها لوسيان Lucianus أواخر القرن الثالث الميلادى[4] .

هكذا راحت الإسكندرية وأنطاكية تخطوان سريعا خطوات واسعة

باتجاه الرفعة فى عالم المسيحية ، وتستبقان فى ميدان الزعامة الكنسية ، فى وقت كانت روما ما تزال تمثل معقل الوثنية ومستقر أباطرة الرومان . ولم تكن كنيستها التى رفع القواعد منها القديس بطرس فى أوائل النصف الثانى من القرن الأول الميلادى تشغل مركزاً ذا بال آنذاك ، بينما لم تكن قد رأت النور بعد كنيسة القسطنطينية ولا المدينة . أما بيت المقدس، الكنيسة والمدينة فقد أخذت تتوارى بالحجاب متخلية عن دورها القيادى فى التبشير بالمسيحية بعد أن أصبحت المسيحية اليهودية لا تتوائم وفكر الأمميين . وقد ساعدت الأحداث السياسية التى وقعت إبان القرنين الأول والثانى الميلاد على ذلك . فقد تلقت مدينة بيت المقدس لكمة قوية سددتها إليها الحكومة الرومانية سنة ٧٠ على يد القائد تيطس Titus امتدت لتدمر الهيكل وتذبح عدداً كبيراً من اليهود ، كما أن الامبراطور فسباسيان Vespasianus (٦٩ — ٧٩) فرض على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى بيت المقدس إلى البانتيون الرومانى . ثم ما لبث الامبراطور هادريان Hadrianus (١١٧ — ١٣٨) أن عاجل المدينة بالضربة القاضية على أثر الثورة التى أشعلها اليهود فى عامى ١١٥ — ١١٦ وامتدت إلى مناطق عدة من الامبراطورية ، فدمرت المدينة تماما وأقيم على أطلالها مدينة جديدة سميت إيلياء Aelia Capitolina . ورغم أن هذه الضربات كانت موجهة أصلا ضد اليهود ، إلا أن آثارها المباشرة انسحبت أيضا على المسيحيين[٥]. فقد كان من جراء التدمير الذى حل بالمدينة ، أن هجرها المسيحيون إلى مدينة Pella اليونانية ، حقيقة أنهم سرعان ما عادوا إليها ثانية ، إلا أن هذا الشتات المؤقت للجماعة المسيحية ترك أثره دون شك على كنيسة بيت المقدس ، هذا بالإضافة إلى أن المدينة قد غدت — بعد بناء إيلياء — مدينة يونانية بمعابدها الوثنية ومسارحها . على أن أهم ما يلفت النظر هنا أن هذه الأحداث فى حد ذاتها كانت تعنى مزيدا من تحرر المسيحيين الأمميين من ربقة المسيحية اليهودية[٦] وبالتالى المزيد من علو كعب اللاهوت السكندرى والانطاكى وارتفاع هامتى كنيستى المدينتين .

وقد جرى على الكنيسة وشعبها فى بيت المقدس ما جرى على الكنائس الأخرى والمسيحيين فى مختلف ولايات الامبراطورية الرومانية، خاصة الشطر الشرقى فيها، خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ومطلع القرن الرابع، ونعنى بذلك الاضطهاد الذى أنزله الأباطرة الرومان بالمسيحيين، من جراء حياة العزوف التى عاشها المسيحيون داخل المجتمع الرومانى، والامتناع عن الاشتراك فى الوظائف العامة والجيش الرومانى - إلا قليلا منهم، وفوق هذا وذاك رفضهم العبادة الامبراطورية التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والجالس على العرش. وقد أفاض كتاب المسيحية الأوائل فى وصف هذه الأحداث، وما وقع لشعب الكنيسة على أيدى الأباطرة الوثنيين بما فيهم المصلحون المثقفون أيضا مثل تراجان Trajanus وهارديان[٧] وأنطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس. وإذا كانت هذه الروايات قد داخلتها الأسطورة فى بعض جوانبها، وجنحت بها المبالغة شيئا ما، إلا أنها مع ذلك تلقى الضوء إلى حد كبير، على ما القيه المسيحيون من عنت ابان تلك الفترة. ويأتى فى مقدمة هؤلاء الكتاب شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب[٨] Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، ولاكتانتيوس[٩] Lactantius البلاغى الأفريقى الشهير. وقد أفرد يوساب فى كتابه تاريخ الكنيسة فصلا كاملا عن شهداء فلسطين خلال عصر الاضطهاد الأعظم(٣٠٣ - ٣١٤)زمن الأباطرة دقلديانوس Diocletianus وجاليريوس Galerius وماكسيمين دايا Maxininus Daia.

وفى ظل هذه الظروف الفكرية والعقيدية والسياسية، كانت مساهمة كنيسة بيت المقدس على امتداد هذه الفترة، فى المسائل اللاهوتية أو حتى مسائل التنظيم الكنيسى محدودة بدرجة واضحة، هذا إذا استثنينا أول مجمع عرفته الكنيسة فى تاريخها، وهو المجمع الذى عقده حواريو المسيح بعد موته، عندما كانت السيطرة ما تزال للمسيحية اليهودية، حيث اصطدموا بموقف الأمميين إزاء مسألة

الختان حسبما تقضى به الشريعة الموسوية . وكان مجمع بيت المقدس هذا تجمعاً لآباء الكنيسة الذين تفرقوا فى الأمم بعد وفاة المسيح ، ويمثل التقاءاً استثنائياً لم تشهد الكنيسة مثله ثانية حتى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ (١٠) . وليس من المبالغة فى شىء القول بأن المجمع يعد مسكونياً تجاوزاً ، حيث كان هؤلاء الرسل يمثلون عالم المسيحية المحدود آنذاك ، بعد أن خرجوا من بيت المقدس وفلسطين يحملون دعوتهم إلى الأمميين .

وشهدت بيت المقدس أيضا سنة ١٩٨ مجمعاً محليا (١١) ترأسه ناركسوس Narcissus أسقف المدينة ، وحضره ثيوفيلوس Theophilus أسقف قيسارية فلسطين، وذلك للاتفاق على تحديد يوم عيد الفصح ، بعد أن ثار الخلاف بين كنائس اسيا الصغرى من ناحية وبقية الكنائس فى عالم المسيحية من الناحية الأخرى حول هذه المسألة (١٢) .

وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت تعلوها هالة كبرى من التقديس تفوق ما كانت عليه أى من المدن الثلاث . . روما والإسكندرية وأنطاكية ، التى نشأت كلها من قبل الوثنية ، إلا أن أساقفتها لم يكن لهم دور معين فى السياسة الكنسية ولم يشكلوا قوة ذات بال حتى القرن الخامس الميلادى عندما غرقت الكنيسة حتى آذانها فى ذلك الجدل اللاهوتى العنيف حول طبيعة المسيح ولم يكن بمقدورهم أن يؤدوا دورا فكريا ثقافيا أساسيا آنذاك . وحتى الدور الذى لعبته كنيسة بيت المقدس إبان ذلك الاصطراع بين الكنائس ، لم يكن يرتكز على قوة اكليروسية أو رهبانية شأن الإسكندرية مثلا ، بل كان نابعا عن طموح أسقفى إحساسا بواقع مرير وتطلعا إلى مرتبة أسمى . وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فى حينه .

غير أنه بمقدم القرن الرابع الميلادى ، واعتلاء قسطنطين Constantinus

عرش الامبراطورية (٣٠٦ - ٣٣٧) وإعـــلان المسيحية ديانة شرعية Riligio Licita وليست رسمية [١٣]، دعيت بيت المقدس لتمارس حياة جديدة فقد حظيت فلسطين بصفة عامة بالنصيب الأكبر من الجهود التى بذلها الامبراطور قسطنطين لإصلاح ما تهدم من كنائس أو بناء كنائس جديدة، ولعل كنيسة القيامة تعد شاهدا حيا على ما قدمه قسطنطين لبيت المقدس[١٤] وسرعان ما فاقت المدينة سيرتها الأولى عندما قدمت إليها أم الإمبراطور قسطنطين، التى ذاع صيتها باسم القديسة هيلانة سعيا وراء خشبة الصليب، ومشاركة لجهود ولدها فى إقامة عدد آخر من الكنائس فى بيت المقدس.

وقد بذل مكاريوس أسقف بيت المقدس جهودا كبيرة حفظها له مؤرخو الكنيسة، فى محاولة لتقديم كل عون لهيلانة فى سبيل تحقيق مسعاها[١٥] وكان أهم ما تمخضت عنه هذه الرحلة أن وضعت هيلانة بذلك أسس الحج المسيحى إلى الأماكن المقدسة، واعتبرت هى ذاتها أول حاجة فى المسيحية، وليسير على نهجها القديس جيروم وشعب الكنيسة المسيحية كله من بعد[١٦] وليقترن اسم بيت المقدس دائما بالأماكن المقدسة، حتى حق لأحد المؤرخين القول بأن أهمية كنيسة بيت المقدس تعود فقط إلى كونها تعد حامية الأماكن المقدسة المسيحية، ولا شىء سوى هذا[١٧].

ولقد كان من البدهى أن تدخل كنيسة بيت المقدس حلبة الصراع العقيدى الذى ثار مطلع القرن الرابع مبتدئا بالإسكندرية ممتدا إلى فلسطين وسوريا فآسيا الصغرى وهو الذى عرف بالمشكلة الاريوسية[١٨]، انتسابا إلى آريوس قس الكنيسة السكندرية، الذى نادى بخلق المسيح من العدم واعتباره فى مرحلة ومرتبة تالية للأب. وقد لاقت هذه الآراء الآريوسية رواجا واسعاً فى دوائر الكنيسة الشرقية بفعل المدارس والفكرة الفلسفية اليونانية السائدة، وبتأثير المدرسة اللاهوتية الأنطاكية القائمة على النهج الأرسطى العقلانى - كما أسلفنا.

ومن رسالة بعث بها آريوس إلى صديقه يوساب أسقف نيقوميديا نعلم مدى انتشار العقيدة الأريوسية فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، ويذكر القس السكندرى أسماء من شايعوه من أساقفة الكنيسة فى الشرق ثم يقول « ... وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجيونيوس Philogonius أسقف أنطاكية، وهيلانيسكوس Hellanicus أسقف طرابلس ، ومكاريوس Macarius أسقف بيت المقدس[١٩] . ولا شك أن عداء مكاريوس للاريوسية كان أمراً متوقعاً ، بل قد ظلت كنيسة بيت المقدس ، طيلة القرن الرابع ، الذى سعر خلاله لهيب الجدل الأريوسى على ولائها الكامل للنيقية لا تبغى عنها حولا ، هذا إذا استثنينا فترة يسيرة ، أعلن فيها ماكسيموس Maximus الذى خلف مكاريوس ، إدانته للأسقف السكندرى اثناسيوس ، الذى كان يعتبر المدافع الحق عن العقيدة النيقية وما لبث ماكسيموس أن عاد بكنيسته سيرتها الأولى فى عدائها للأريوسية، وأعلن توبته والندامة على ما اقترفت يداه نتيجة خداع الاريوسيين له ورفض حضور مجمع أنطاكية الأريوسى سنة ٣٤١ ، والذى عـــرف باسم مجمع القدشين[٢٠] ولعل هذا الثبات على المعتقد النيقى يعود بطبيعة الحال ، إلى ما ذكرناه آنفاً ، من أن بيت المقدس لم تحظ ، كالاسكندرية وأنطاكية ، بوجود مدارس الفكر والفلسفة اليونانية ، هذا بالإضافة إلى أنها تمثل أصول المسيحية اليهودية فى عالم المسيحية .

وفى عام ٣٣٥ كانت الكنيسة التى أقامها قسطنطين فى بيت المقـدس ، قد اكتمل بناؤها ووافق هـذا العام أيضاً العيد الثلاثينى Tricennalia لاعتلاء الامبراطور قسطنطين العرش ، وكان مجمع صور الذى عقد فى نفس العام قد أنهى جلساته ، وأصدر قراراته بإدانة الأسقف السكندرى اثناسيوس وعزله من منصبه ، وقدم توصياته التى تدور حول إعادة قبول أريوس وصحبة فى شركة الكنيسة ثانية ، بعد إدانته فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى مدينة نيقية

سنة ٣٢٥ وحضره الأسقف مكاريوس ، وأعطى صوته إلى جانب مخاصمى أريوس. وتلقى الحضور فى مجمع صور رسالة من الامبراطور تدعوهم للتوجه إلى بيت المقدس للاحتفال بتدشين هذه الكنيسة الجديدة . وغدت المدينة — على حد تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى مسرحا يضم خليطاً عجيبا من الأساقفة الذين وفدوا من كل الولايات الشرقية فى الامبراطورية ، وأضحت تموج بالعديد من خــــدام الرب . بالإضافة إلى عدد كبير من موظفى القصر الامبراطورى الذين أرسلوا للإشراف على هذا الحفل والارتفاع به إلى ما يناسب مكانة الامبراطور وذكرى اعتلائه العرش[٢١] .

ولا شك أن الامبراطور قسطنطين عندما واتته أنباء هذا الاجتماع، بالصورة التى جرى بها داعبه من جديد أمل إحلال السلام والوحدة داخل الكنيسة ، ومن ثم ما لبث أن بعث باريوس السكندرى وصحبه يوزيوس Euzious إلى مجمع الأساقفة فى بيت المقدس ، مخبراً إياهم أنه قد اطلع على وثيقة إيمانها التى قدماها إليه[٢٢] ، وإنه مقتنع بما جاء فيها ، ومطابقتها لقانون الإيمان النيقى ، وحثهم على قبول هذه الوثيقة وإعادة أريوس وصحبه إلى الكنيسة . ولم يكن الأساقفة فى حاجة إلى توصية من الامبراطور ، فقد كانوا جميعا من مؤيدى الآريوسية ، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان إلى الامبراطور ، وإعادة قبولهما فى شركة الكنيسة ، وعودتهما إلى كنيسة الاسكندرية . ورفعوا إلى الامبراطور تقريراً بكل ما تم اتخاذه ، كما كتبوا رسائل بهذا المعنى إلى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ولمختلف رجال الاكليروس فى مصر ، حاثين إياهم على قبول أريوس وشيعته ، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق إيمان أريوس وصحبه ، وأن الامبراطور محبوب الرب التقى الورع ، قد شهد فى خطاب لهم بصحة إيمان الرجلين وأوصى بقبولهما فى الكنيسة .

وقد صمتت المصادر تماما عن الدور الذى لعبه مكاريوس خلال هــذا ولم

تفصح بشيء عن موقفه من قرار الامبراطور الخاص بقبول أريوس ثانية في الكنيسة. غير أنه يمكن القول، تمشياً مع التقليد الكنسي، ان مكاريوس لا بد أن يكون قد ترأس مجمع الأساقفة ذاك، باعتباره أسقف المدينة التي التأم فيها عقده، وانه شأن غيره من الأساقفة قد أعطى موافقته على قرارات المجمع، ذلك ان مؤرخي الكنيسة لم يذكروا لنا أسقفاً واحداً أبدى اعتراضه على ما آرتآه جمع الأساقفة في بيت المقدس. ولا شك أن هذا يعود بطبيعة الحال، بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه عن الإمكانيات الفكرية والخلفية اليهودية لكنيسة بيت المقدس، إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين الامبراطور ومكاريوس، والتي تبدت في الرسائل[٢٣] التي بعث بها قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس، وتوطدت ابان الزيارة التي قامت بها هيلانة إلى المدينة المقدسة ومعاونة مكاريوس لها في مهمتها التي ارتحلت من أجلها، ونتيجة للعناية الخاصة التي أولاها الامبراطور لهذه المدينة. يضاف إلى هذا أن الكنيسة عامة كانت قد رفعت قسطنطين إلى عليين، إذ جعلته الحواري الثالث عشر للمسيح، ومن ثم لم يكن لها أن ترفع الرأس معارضة — إذا استثنينا الاسكندرية — لامبراطور وهبها الحياة بعد أن أشرفت على الهلاك ابان عصر الاضطهاد الأعظم، وما كان لمكاريوس إذن، أن يقف دون أساقفة المجمع، ليعلن عن شكوكه في صدق نيات الامبراطور أو حسن تفهمه لوثيقة ايمان اريوس ويوزيوس.

وقد أدى مجمع بيت المقدس هذا في سنة ٣٣٥، إلى عواقب وخيمة أرقت جفن الامبراطور ما تبقى له من عمر، وامتد ذلك أيضاً ليشمل الكنيسة. فقد رفضت الاسكندرية الرضوخ لقرارات هذا المجمع وأعلنت عدم قبولها أريوس وصحبه في كنيسة الاسكندرية ثانية، ونشط الفريق الأريوسي الذي تولى زعامته الآن يوساب النيقوميدي، بعد عودته من منفاه في غاله سنة ٣٢٨، ليوغر صدر الامبراطور على أسقف الاسكندرية، حتى أصدر قسطنطين أوامره

بنفى اثناسيوس إلى مدينة ترير Trier فى نفس العام (٣٣٥) ، ورفض الموافقة على تعيين أسقف جديد للاسكندرية خلفاً له ، وظل الكرسى السكندرى شاغراً طيلة عامين حتى مات قسطنطين وعاد اثناسيوس ثانية . أما الأكليروس السكندرى وشعب الكنيسة فيها فقد تابع أسقفه فيما ذهب إليه ، وأدى دخول أريوس الاسكندرية بعد نفى اثناسيوس ، إلى وقوع الاضطرابات العنيفة بين النيقيين والأريوسيين ، مما اضطر الامبراطور - الحريص على إقرار الهدوء فى مصر من أجل القمح والنقود على حد تعبير المؤرخ جونز - إلى إستدعاء أريوس إلى القسطنطينية ولم يلبث أريوس أن حل المشكلة بنفسه عندما مات سنة ٣٣٦ ، وان كانت الاريوسية قد ظلت تمثل للامبراطورية صداعا مستمرا حتى قرب نهاية القرن الرابع .

فخلال مدة تقترب من نصف القرن (٣٣٧ - ٣٧٩) كان على المثل القائل بأن الناس على دين ملوكهم ان يتوارى بالحجب ، لتحل محله ظاهرة فرضت نفسها تقول « الملوك على دين ناسهم » ، ذلك ان أبناء قسطنطين الثلاثة الذين اقتسموا فيما بينهم ، بعد وفاة أبيهم ، إدارة الحكم فى الامبراطورية راحوا يؤيدون دون وعى المعتقد الذى يجدونه كل فى اقليمه ، ولما كان الغرب الرومانى قد آوى إلى النيقية واستمسك بها ، فقد أصبح قسطنطين الثانى وقنسطانز Constans امبراطورا الغرب على النيقية . بينما أيد قسطنطيوس Constantius الاريوسية التى وجدها سائدة فى اقليمه ، أعنى الشطر الشرقى من الامبراطورية . إلا أن هذه الحالة تستمر طويلا . فبعد مقتل الأخوين قسطنطين الثانى وقنسطانز (٣٤٠ ، ٣٥٠ على التوالى) ، انفرد قسطنطيوس بحكم الامبراطورية ، ولما كان يعتنق المسيحية الأريوسية فقد حاول جاهداً فرضها على الغرب الامبراطورى والاسكندرية التى كانت تعد قلعة الارثوذكسية النيقية . غير أن هذه الجهود لم تحقق الآمال التى كان قسطنطيوس يعلقها عليها.

وأن كانت السيادة على أية حال قد أصبحت الآن فى الامبراطورية للمعتقد الأريوسى[٢٤] وارتفع شأنها كذلك على عهد الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ — ٣٧٨) الذى كان يحكم النصف الشرقى من الامبراطورية . فلما خر هذا صريعاً أمام جحافل الفيزيقوط عند ادريانوبل ، اعتلى العرش ثيودوسيوس الأول Theodosius أذنت شمس الاريوسية بالمغيب ، وعلا نجم النيقية وأصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى .

وقد شهدت هذه الفترة وحتى عشرينات القرن الخامس ، عدداً كبيراً من المجاميع الكنيسية المحلية والمسكونية التى عقدت فى معظم الكنائس على إمتداد الامبراطورية من أقصى الشرق إلى الغرب القصى ، سواء بين جماعات الأريوسيين وأنفسهم ، أو النيقيين وحدهم ، أو المجاميع المشتركة التى ضمت هؤلاء وأولئك[٢٥] وحظيت بيت المقدس ببعض منها وشارك أساقفتها فى معظمها وان لم يتخل هؤلاء الأساقفة جميعهم عن النيقية كما أسلفنا .

ففى عام ٣٤٦ ، وكان قسطنطيوس قد فشل فى وقف هجمات الفرس على الحدود الشرقية ، خضع لتهديدات أخيه قنسطانز امبراطور الغرب ، واستسلم لقرارات مجمع سرديكا Sardica الذى عقد سنة ٣٤٣[٢٦] وقرر وجوب إعادة الأساقفة الذين عزلهم ونفاهم قسطنطيوس إلى كراسيهم ثانية . وكان من بين هؤلاء الأسقف السكندرى اثناسيوس ، الذى أمضى فترة نفيه الثانى فى الغرب فى ضيافة قسطنطين الثانى ثم قنسطانز ، ورجال الأكليروس فى الغرب خاصة أسقف روما . ومن ثم سمح قسطنطيوس لأسقف الاسكندرية بالعودة إلى دياره ، فارتحل اثناسيوس قاصداً مصر ، وخرج فى طريقه على كنيسة بيت المقدس ، حيث أوحى إلى أسقفها ماكسيموس أن يدعو لعقد مجمع تحت رئاسته ، يضم أساقفة فلسطين ، لتأكيد تبرئة اثناسيوس والتوكيد على حقه فى العودة إلى كرسى أسقفيته . ولم يتوان ماكسيموس عن ذلك ، فدعا على الفور

عدداً من أساقفة فلسطين وسوريا والتأم عقد المجمع قرب نهاية عام ٣٤٦ ، ورد على اثناسيوس كرامته وشركته فى الكنيسة وبعث المجمع برسالة إلى السكندريين وكل أساقفة مصر وليبيا يمتدح فيها الأسقف السكندرى وخلقه[٢٧] ويعلق المؤرخ الكنسى سقراط على ذلك بصورة ساخرة حيث يقول ان خصوم اثناسيوس راحو يسخرون من ماكسيموس ، نظـــرا لموقفه السابق من اثناسيوس ، حيث كان قد أدانه من قبل ، كما أسلفنا ، ثم عاد ليغير رأية فجأة إلى الإتجاه المضاد تماماً[٢٨] .

وفى سنة ٣٩٩ شهدت كنيسة بيت المقدس مجمعاً آخر دعت إليه الآراء التى دارت من حول فكر اوريجن اللاهوتى السكندرى الأشهر . والحقيقة أن اوريجين قد تعرض لكثير من النقد سواء فى حياته أو بعد موته ، وكان اول المضطهدين له الأسقف السكندرى ديمتريوس ، الذى اضطر اوريجن للارتحال من مصر متجها إلى فلسطين ، حيث اتخذ من قيسارية مستقراً له ومقاماً ، وأقام فيها صورة مصغرة من مدرسة اللاهوت السكندرى ، التى يرتبط علو شأنها باوريجين نفسه . وعلى الرغم مما قدمه اوريجين لعالم الفكر المسيحى فى مجال اللاهوت ، فقد اتهم من جانب مخاصميه بالهرطقة على اعتبار انه يمزج المسيحية بالفلسفة الوثنية . ولم يكن الجدل حول الفكر الاوريجنى قاصراً على بيت المقدس فقط ، بل شهدت الاسكندرية وقبرص مجامع لنفس الغرض ، انتهت كلها إلى لعن اللاهوت الاوريجنى . وكان الذى فجر هذا الجدل آنذاك ما دار من جدل بين كل من القديس جيروم الذى كان يقيم آنذاك بصفة دائمة فى فلسطين ، وابيفانيوس Epipanins أسقف قبرص وروفينوس Rufinus (٣٤٥ - ٤١٠) أحد شيوخ الكنيسة فى اكويليا Aquileia ، وأحد مؤرخى الكنيسة ، وكان قد قدم إلى بيت المقدس فى عام ٣٩٠[٢٩] واستمر الجدل قائما بين أبناء الكنيسة حوالى عشر سنوات (٣٩٣ - ٤٠٢) ، وقد حذا مجمع بيت المقدس حذو قرينه الذى عقد فى الاسكندرية تحت رئاسة

ثيوفيلوس Theophilus ، وتبعها على نفس النهج مجمع قبرص الذى عقد عام ٤٠٢ [٣٠] .

غير أن كنيسة بيت المقدس وجدت نفسها فى بواكير القرن الخامس طرفا فى نزاع لاهوتى من نوع جديد قدم إليها من الغرب الامبراطورى ، وهو شىء لم يكن مألوفاً فى ذاك الشطر من الامبراطورية الرومانية ، أعنى اشتغال كنائس النصف الغربى بالمسائل اللاهوتية المعقـــدة ، فمنذ أقر مجمع نيقية « الهوموسية » Hooumosius ، آوى إليها الغرب ، واعتبرها الإيمان القويم للكنيسة ، وزاده ارتباطاً بها ، الفترة التى أمضاها الأسقف السكندرى اثناسيوس منفيا هناك ما بين (٣٣٥ - ٣٣٧) و (٣٣٩ - ٣٤٦) وبينما استعرت فى الشرق حمى الجدل اللاهوتى من حول المسيح ، انصرف الغرب لقرون متأخرة إلى الوصول بمسائل التنظيم الكنسى إلى النحو الأفضل . وكان ذلك ناجما بلا ريب عن خلو الغرب . إذا ما قورن بالشرق - من المدارس الفكرية والفلسفية اليونانية ، هذا بالإضافة إلى جمود اللغة اللاتينية ، التى لم يكن لها من الحيوية ما يساعد أصحابها على البراعة فى الجدال ، كما كانت عليه الحال بالنسبة لليونانية . ومن ثم نجا الغرب بجمود لغته وافتقاره إلى الفكر الفلسفى اليونانى من الغرق فى متاهات الكريستولوجية التى اصطلى الشرق بموج دروبها .

على هذا النحو نعمت الكنيسة فى الغرب بهدوء ، لم يعكر صفو سلامه إلا جدل عقيدى صاحبه - بلاجيوس Pelagius العلمانى اللاهوتى الذى جذبت محاضراته عن أهمية الإرادة الإنسانية فى الخلاص أسماع الحضور فى روما ، ولقيت مبادئه رواجا واسعا لا فى إيطاليا وحدها بل فى غالة وبريطانيا . ولكنها قوبلت فى افريقيا بعدم الإرتياح عندما انتقل كايلستوس Caelestius تلميذ بلاجيوس ، إلى قرطاجه ، حيث تمت إدانته هناك على يد أوريليوس Aurelius رئيس أساقفة قرطاجة . وقام القديس أوغسطين St. Augustinus بدور بارز

فى التصدى للبلاجية[٣١] أما ما كان من أمر بلاجيوس فإنه هجر روما ، بعد أن اجتاحتها قبائل القوط الغربيين تحت زعامة الاريك سنة ٤١٠ ، وولى وجهه شطر بيت المقدس ليبشر بدعوته هناك . ولا شك أن الآمال كانت تداعب بلاجيوس حول إمكانية النجاح الذى يرتجى تحقيقه هنا ، يدفعه إلى اليقين بذلك ما يعلمه عن طبيعة اللاهوتيين الشرقيين وعن خصوبة التربة الفكرية فى هذه المنطقة . وقد حقق بلاجيوس بالفعل بعضا مما كان يؤمله .

تولى القديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠) مهمة الرد على بلاجيوس وتفنيد آرائه ، وما لبث أورزيوس Orosius القس الأسبانى وأحد تلامذة القديس أوغسطين ، ان وفد إلى بيت لحم مبعوثا من قبل أستاذه ، ليشارك فى دحض الآراء البلاجية ، وفى سنة ٤١٥ دعا يوحنا (٣٨٨ ٤١٦) أسقف بيت المقدس مجمعا ضم أساقفة فلسطين وممثل أوغسطين لبحث الفكر البلاجية . وقد أحاط أوروزيوس المجتمعين علما ، بما تم إتخاذه من إجراءات ضد كايلستوس فى قرطاجة ، والرسالة التى وضعها أوغسطين فى الرد على دور الإرادة الإنسانية فى الخلاص كما أوضحه بلاجيوس .

وبناء على توجيهات يوحنا ، اضطر بلاجيوس إلى المثول بنفسه أمام المجمع ، فابتدره الحضور يسألون عما إذا كان قد أعلن حقيقة ذلك المعتقد الذى أدانه أوغسطين فأجاب لفوره : «لست أدرى ما أنا فاعل بأوغسطين» . وقد عد المؤتمرون ذلك نوعا من القحة تجاه رجل يسمو فى نظرهم إلى عليين ، ومن ثم استبد بهم الغضب إلى الحــــد الذى تصايحوا فيه ليس فقط بطرد بلاجيوس من قاعدة المجمع ، بل بلفظه تماماً خارج البيعة . غير أن يوحنا لم يلق بالا لكل هذه الاحتجاجات ، وسمح لبلاجيوس بالبقاء .

وتدلنا شخصية يوحنا على أنه كان يسعى إلى أن يجعل من نفسه حكما في

المسائل اللاهوتية حتى يكسب لكنيسته بذلك مرتبة بارزة ومكانة ، فى وقت كانت قد بدأت تظهر فيه بوضوح بوادر التنافس بين الكنائس على مراكز الزعامة فى العالم المسيحى ، هذا على الرغم من أن المصادر لا تحدثنا فى كثير أو قليل عن معرفة لاهوتية حاز قصب السبق فيها يوحنا أو دراسات عقائدية وضعها . وهذه سمة واضحة سوف نجدها فى جل أساقفة كنيسة بيت المقدس أبان هذه الفترة ، وان كانوا قد ساروا على نفس النهج الذى اختطه يوحنا ، بل وتفوقوا عليه فى ذلك .

وقد وجد يوحنا فى المشكلة البلاجية فرصة يحقق بها مبتغاه ؛ فقد أعلن فى المجمع انه يعتبر نفسه الممثل الحقيقى لشخص أوغسطين ، فواجهه أوروزيوس بقوله : « إذا كنت حقاً تمثل أوغسطين فعليك إذن أن تسير على هديه » وقد علق أوروزيوس على ذلك أن يوحنا فعل هذا ليعطى لنفسه الحق فى التغاضى عن إهانة بلاجيوس لأوغسطين . ولم يلبث يوحنا أن طلب إلى أساقفة المجمع أن يعرضوا أولا الشكايات المقدمة ضد بلاجيوس ، فأعلن أورزويوس أن بلاجيوس يؤكد أن الإنسان يمكن أن يكون بلا خطيئة ، فقط إذا أراد ذلك . وهنا يؤكد بلاجيوس على دور الإرادة الإنسانية . فلما صدق الراهب الإنجليزى على ذلك ، أضاف القس الأسبانى قوله بأن هذا المعتقد قد سبق شجبه فى مجمع قرطاجة ، وأدانه كل من أوغسطين وجيروم .

ولما حمى وطيس الجدال ، قطع يوحنا ذلك بقوله انه يجب على أوروزيوس ومشايعيه أن يعلنوا بصفة رسمية أنهم يمثلون طرف الإدعاء ضد بلاجيوس ، وان يعترفوا بيوحنا قاضيا فى هذا الخلاف . غير أنهم رفضوا الاقتراح ، وفشل يوحنا فى استمالة أوروزيوس إلى القول بأن الله قد جعل طبيعة الإنسان فى ذاتها شريرة .

والغريب أن اللغة لعبت هى الأخرى دوراً كبيراً فى إتساع هوة الخلاف

بين يوحنا و بلاجيوس ومؤيديه من ناحية ، واللاتين وعلى رأسهم أوروزيوس من الناحية الأخرى . فقد ذهب بلاجيوس خطوات بعيدة عندما أعلن أنه لم يقطع بأن الإنسان لا يمكن أن يكون بطبيعته دون خطيئة ، ولكن أى فرد يمكنه تجنب الإثم بأن يستمد من الله العون والقوة ، وبدون هـذا العون السماوى لا يمكن أن يصبح بلاخطيئة . وأكد أوروزيوس هو الآخر ذلك. غير أنه لما كان أوروزيوس يتحدث اللاتينية ، بينما كان لسان يوحنا يونانيا ، فقد زاد المترجم الأمر سوءاً بالكثير من الأخطاء التى وقع فيها ، وهو ينقل للرجلين آراء كل منهما .

ولا شك أن أوروزيوس أدرك ما يضمره يوحنا سعياً إلى هدف معين ، وأيقن أن المجمع سوف يدور فى حلقة مفرغة دون أن يصل إلى نتيجة حاسمة ، بل ربما أعلن أرثوذكسية بلاجيوس إذا أفلح أسقف بيت المقدس فى التأثير على أساقفة فلسطين حضور المجمع ، وقد أيدت الأحداث التالية ذلك . ومن ثم فقد حسم القس الأسبانى المسألة بإعلانه ، إنه لما كان خصوم بلاجيوس من اللاتين فإن القرار الذى يتعلق بهذه المسألة البلاجية يجب أن يترك لتقدير أساقفة الكنيسة اللاتينية وحدهم . وكان هذا بطبيعة الحال إرهاصاً واضحاً بما سوف تأتى به سنو النصف الأول من القرن الخامس ، استباقا إلى كرسى الزعامة .

ولما كان معظم حضور مجمع بيت المقدس ، قد ساورهم الشك فى إمكانية التوصل إلى قرار فى هذا الشأن ، فقد تنفسوا الصعداء باقتراح أوروزيوس ، وأيدوه على الفور ، وأمام ذلك أعلن يوحنا من جانبه — وقد قنعت نفسه بما حققه فى المجمع - إنه سوف يبعث إلى البابا أنوسنت الأول(٤٠٢ ٤١٧) بمندوبين عنه يحملون رسائله حول هـذه المشكلة ، مؤكداً أنه سوف يلتزم بقرار أسقف روما . وقد وافق المجمع على ذلك ، وانفض دون أن يصل إلى قرار بعينه .

غـير أنه يبدو أن أوروزيوس كان مصمماً على أن يخرج بقرار إدانة

بلاجيوس من أساقفة فلسطين ، وبدا فى الوقت ذاته أن يوحنا عازم بدوره على أن يتحدى أوروزيوس مهما كلفه ذلك . وعلى هذا النحو تم تصعيد الخلاف إلى مطران الناحية ، أعنى أسقف قيسارية ، الذى دعا إلى مجمع تم عقده فى ديسمبر من نفس العام فى مدينة اللد Diosopolis حضره أربعة عشر أسقفاً وترأسه يولوجيوس Eulogius الأسقف القيسارى ، بينما احتل يوحنا المرتبة التالية له مباشرة فى المجمع تبعاً لما جرى به التقليد الكنسى ، باعتبار أسقف قيسارية رئيساً لأساقفة فلسطين . وقد أدى يوحنا دوره هنا كما يجب ، فأعلن مجمع اللد تبرئة ساحة بلاجيوس مما نسبه إليه من هرطقة وقبوله فى شركة الكنيسة ، مما دفع القس الأسبانى إلى الارتحال عائداً إلى قرطاجة بعد أن ازدادت موجة العداء ضده من جانب أسقف بيت المقدس وأتباعه(٣٢) .

وإذا كان يوحنا قد أفلح فى أن يحقق لكنيسته شيئاً ضئيلا من مكانة كانت تفتقدها باعتبارها تابعة لمطرانية قيسارية فلسطين ، فإن خلفاؤه سوف يحاولون ما وسعهم الجهد أن يقفزوا بكنيسة بيت المقدس خطوات أخرى إلى الأمام ليجدوا لها مكاناً وسط عالم الكنائس الكبرى . وكانت الأحداث التى جرى بها القرن الخامس عاملا هاماً دفعهم إلى سلوك هذا السبيل ؛ ذلك أن الجدال اللاهوتى الذى دار خلال ذلك القرن حول طبيعة المسيح ، كان مظهراً خارجيا يخفى وراءه حقيقة جوهرية ، هى اصطراع الكنائس الكبرى فى الامبراطورية حول الزعامة الكنسية فى العالم المسيحى ، واتخذت كلها من مشكلة الكريستولوجية ستاراً تخفى وراءه حقيقة أهدافها ونواياها . وقد راحت كل من هذه الأسقفيات الكبرى تفتش فى ماضيها ، أو حتى حاضرها ، عن البراهين والأدلة التى يمكن أن تقدمها فى حلبة السباق هذى . وسارعت كل منها إلى وضع النظريات والتفسيرات التى تدعم مركزها وترفعها قدراً عن غيرها .

فقد أذاعت روما أن القديس بطرس هو الذى أرسى قواعد الكنيسة فيها ،

وشاركه فى ذلك أيضا القديس بولس[٣٣] ولما كان بطرس هو أمير الرسل ، والصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته وصاحب الربط والحل على الأرض تباركه السماء فى ذلك ، كما جاء فى حديث المسيح إليه ، فقد اعتبرت كنيسة روما نفسها أعلى كعبا من كل الكنائس الأخرى بطبيعة نشأتها ، وأضافت إلى ذلك عاملا سياسيا يتمثل فى أن روما المدينة كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية لقرون طويلة ، وفيها مستقر الأباطرة ومقامهم . وساعد روما على أن تمسك بهذا الادعاء أن ميدان المنافسة على الزعامة فى الغرب قد خلا تماما من أية أسقفيات أخرى قد تنازع روما هذه المكانة ، هذا إذا استثنينا فقط أسقفية ميلانو إبان فترة قصيرة من الزمن اعتلى فيها كرسى الأسقفية القديس امبروز Ambrosius (٣٧٤ -٣٧٩) ، ومن ثم انفردت روما وحدها فى الغرب بزعامة الكنيسة[٣٤]. يضاف إلى ذلك أن كنيسة روما حظيت منذ القرن الثالث بعدد من الشخصيات القوية التى تولت أمور أسقفيتها ، كان من بينهم ديونيسيوس Dionvsius (٢٥٩ — ٢٦٨ . وليو الأول Leo I (٤٤٠ ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius I. (٤٩٢ ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius I (٥٩٠ - ٦٠٤) هذا بالإضافة إلى البابوات الذين تولوا كرسى أسقفية روما بعد ذلك خلال القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر .

أما الاسكندرية فقد كانت تعتبر نفسها بلا منازع كعبة الفكر اليونانى والثقافة فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وقبلة العلوم والمعرفة الإنسانية بمختلف فروعها ، يقصدها حجيج الدارسين من مختلف ولايات الامبراطورية ، حتى من بين فلاسفة اليونان أنفسهم . وقد ذهبت مدارسها الفلسفية بشهرة واسعة ، فلما جاءتها المسيحية لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق . ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب ، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والجديدة وامتزجت فيها المسيحية بالتراث الفكرى الكلاسيكى ، فقدر لها بذلك أن تؤدى دوراً بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا ،

وقدمت لعالم هذه العقيدة الجديدة أشهر آبائه فى اللاهوت يأتى فى مقدمتهم كلمنت Clemens (حوالى ١٥٠ - ٢١٥) واوريجين (١٨٥ - ٢٥٤) وديونيسيوس Dienysius الذى تولى أسقفية الاسكندرية فيما بين عامى (٢٤٦ - ٢٦٥) وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين[٣٥] إلى الحد الذى دفع واحد من المؤرخين إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد أثر فى تطوير العقيدة المسيحية، مثلما فعلت مصر. بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية[٣٦].

وإذا كانت روما تفاخر بأن مؤسس كنيستها هو بطرس، فإن الاسكندرية راحت تعلن أن واضع أسس أسقفيتها هو القديس مرقس، ولا ينقص من قدرها أن مرقس كان تلميذا لبطرس ومترجما وابنا له بالتبنى، وإنه وضع إنجيله بناء على «رغبة الإخوة فى روما» ثم جاء ليبشر به الإسكندرية[٣٧]. ومن ثم فهى تعتبر نفسها كنيسة رسولية بالانتساب إلى بطرس ممثلا فى شخص مرقس ولم تنس الإسكندرية فى خضم هذا الاصطراع أن تذكر الجميع دائما أنها كانت لثلاثة قرون خلت قبل الميلاد عاصمة امبراطورية البطالمة أصحاب السيادة البحرية فى شرقى المتوسط إبان تلك الفترة، وأن روما لم تعد تبزها هذه المكانة بعد أن هجر الأباطرة التيبر إلى البسفور، بل إن أباطرة النصف الغربى أيضا فى القرن الخامس قد ولوها ديرهم ليقيموا فى رافنا.

ولم تكن كنيسة انطاكية تعتبر نفسها أقل شأنا من قرينتيها، فقد كانت حاضرة سوريا السلوقية زمنا ليس باليسير، كما أنها كانت هى الأخرى أحد مراكز الفكر الفلسفى اليونانى فى الشرق، واشتهر من بنيها الفيلسوف الوثنى ليبانيوس Libanius (٣١٤ - ٣٩٣) الذى كان أستاذاً للامبراطور جوليان،

ويوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) اللاهوتى الأنطاكى الشهير[٣٨] وأسقف القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٣) ونسطور Nestorius الراهب الذى تولى أسقفية القسطنطينية فى عشرينيات القرن الرابع، وأذاع آراءه الشهيرة حول العذراء أم المسيح. وحرصت الكنيسة الأنطاكية على أن تقدم من خلال مدرستها اللاهوتية المسيحية فى صورة عقلانية متبعة فى عرضها إياها النهج الأرسطى، وعدت نفسها كنيسة رسولية لاتقل عن روما مكانة حيث أن القديس بطرس كان قد أسس كنيستها قبل أن يبشر بالعقيدة المسيحية فى روما حيث أمضى هناك سبع حجج تقريباً ما بين عامى (٣٤، ٤١)[٣٩].

أما القسطنطينية، فقد ألفت نفسها مدينة حديثة عهد بالحياة، ومن ثم كانت فى القرن الخامس الميلادى، ما تزال تحبو فى عمر الزمن إذا ما قورنت بروما والاسكندرية وانطاكية، فقد احتفل بافتتاحها فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ بعد أن بدأ الامبراطور قسطنطين يضع حجر الأساس فى بنائها عام ٣٢٤، ولهذا وجدت نفسها وقد افتقدت الأصالة التاريخية، ولكنها سرعان ما استعاضت عن ذلك بإعلانها أن هذه المدن الثلاث نشأت أصلا مدنا وثنية، بينما بنيت القسطنطينية منذ اليوم الأول لها مدينة مسيحية لم تحن جبهتها فى يوم لوثن. وانه إذا كانت روما والاسكندرية وأنطاكية تفاخر بأنها كانت حواضر للامبراطورية الرومانية ودولتى البطالمة والسلوقيين على التوالى، فان ذلك شيئا «كان» أما القسطنطينية فهى عاصمة الامبراطورية الرومانية «الآن» وهى مستقر الأباطرة ومقامهم. وانها قلعة المسيحية الأرثوزكسية التى تصدت، وما تزال، بحزم لهجمات جحافل الجرمان الذين اعتنقوا المسيحية الأريوسية[٤٠] وراحوا يقطعون أوصال النصف الغربى من الامبراطورية بعد معركة ادريا نوبل سنة ٣٧٨ وعلى إمتداد القرن الخامس.

ولكن كنيسة القسطنطينية كانت تشعر بقصر قامتها إزاء الأسقفيات

الرسولية الأخرى التى أرسى قواعدها رسل المسيح ، إذ أن نشأتها الحديثة لم لم تتح لها أن تحظى بمثل هذه المرتبة ، غير أن القسطنطينية لم تعدم وسيلة إزاء ذلك بحيث تتوافر لديها الأسانيد الكفيلة بدفعها للمزاحمة على مركز الزعامة الكنسية ، ووجدت ضالتها فى إنجيل يوحنا الذى ينفرد عن بقية الأناجيل الثلاثة الأخرى ، بسبق تعرف القديس أندراوس إلى المسيح قبل أخيه بطرس ولما كانت الروايات تنسب إلى اندراوس تأسيس كنيسة بيزنطة حيث ألقى على عاتقه مهمة التبشير بالمسيحية فى منطقة سكيزيا Scythia الأوروبية (شمال البحر الأسود ما بين الدانوب وطانى Tanais) . وتم نقــــل رفاته إلى القسطنطينية على عهد الامبراطور قسطنطيوس سنة ٣٥٧[٤١] . ولما كانت القسطنطينية قد بنيت على اطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة ، وكنيستها تعد إمتداداً لها ، فانها تقفز بذلك إلى المرتبة الأولى بين الكنائس الرسولية . وإن كانت كنيسة القسطنطينية لم تزين مفرقها بلقب رسولى ، ومن ثم لم تعلن رواية إنتساب كنيستها إلى القديس اندراوس إلا فى فترة لاحقة أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع .

وليس من شك فى أن كنيسة بيت المقدس كانت تفوق هذه الكنائس جميعها مرتبة وترتفع بهامتها فوق الكراسى الرسولية الأخرى ، فهى الأم الأولى لكل الكنائس الأولى والنواة الرئيسية للمجتمع المسيحى كله ، ونقطة الإنطلاق فى التبشير بالمسيحية . أرسى المسيح بنفسه فيها كنيسته وتولى أمرها من بعده وكان أول أساقفتها جيمس ، الذى دعى « بأخى الرب » وذاع صيته باسم « العادل »[٤٢] وشهدت مولد ما عرف باسم « الشيوخ السبعة » للقيام بالخدمة اليومية ، فكان ذلك فاتحة لمسائل التنظيم الكنسى فيما يتعلق بخدمة القداس ورعاية شعب الكنيسة[٤٣] . وعرفت أول تجمع لآباء الكنيسة جميعهم ، قبل أن يقدم قسطنطين على عقد المجمع المسكونى الأول بثلاثة قرون عندما التقى جميع الرسل الاثنى عشر بها ، بعـــد أن مضوا إلى طريق أمم

واصطدموا بأسلوب التفكير الوثنى وطرائق حياة الاميين[٤٤] بل ان كثيرين من آباء الكنيسة الأول كانوا يفتخرون بالانتماء المجازى إلى مجتمع بيت المقدس ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره بامفيليوس Pamphilius شيخ كنيسة قيسارية فلسطين وأستاذ يوساب المؤرخ الكنسى الشهير ، أثناء التحقيق معه بعد أن ألقى القبض عليه خلال فترة الاضطهاد الأعظم (حوالى سنة ٣١١) ، من انه ينتمى إلى «أورشليم» التى جرى ذكرها بالتمجيد والاطراء على لسان القديس بولس فى رسالتيه إلى غلاطية والعبرانيين[٤٥] . وإلى جانب هذا فهى تضم الأماكن المقدسة التى تهفو إليها قلوب شعب الكنيسة فى الشرق والغرب على السواء .

وكان طبيعيا أن تحرز كنيسة بيت المقدس قصب السباق فى ميدان التنافس على الزعامة ، بكل هذا التراث الذى تحمله على عاتقها تباهى به ؛ ولما كانت الكنائس الأسقفية الأخرى تدرك ذلك تماما ، فقد حرصت منذ البداية على أن تقنن أوضاعها ومراكزها ، متغافلة عن عمد كنيسة بيت المقدس ساعية كلها إلى إحباط مساعيها حتى لا تدخل حلبة المنافسة بادىء ذى بدء . وساعدتها الظروف على ذلك نتيجة تلك الضربات التى كالتها الامبراطورية الرومانية للمدينة من جراء ثورات اليهود خلال القرنين الأول والثانى للميلاد ، واختصاص فلسطين ، إلى جانب مصر بالمزيد من الاضطهاد الوثنى لجماعة المسيحيين . كما أن كنيسة بيت المقدس حتى ، بعد تحول الدولة المسيحية افتقرت إلى الشخصيات القوية التى يمكن أن تتولى أمورها ، ولم تحظ بمثل ما حظيت به كنيستى روما والاسكندرية ، ومن ثم لم تجد مدافعاً عن حق لها فى المجامع الكنسية المسكونية التى جرى فيها تقنين مراتب الأسقفيات الرسولية . ولما كان التنظيم الكنسى قد جرى منذ البداية على هدى التقسيم الإدارى للامبراطورية ، ولما كانت قيسارية قد أصبحت عاصمة لولاية سوريا الرومانية منذ عهد الامبراطور أسكندر سفروس Alexander Severus (٢٢٢ — ٢٣٥) فقد أصبح أسقفها

بالتالى مطران الولاية ، وكان على كنيسة بيت المقدس أن تصبح تابعة لها رعويا[٤٦] .

وقد خطت الأسقفيات الكبرى أول خطوها فى سبيل الزعامة ، وعرقلة أى جهد قد تقوم به ، أو أمل تسعى إليه كنيسة بيت المقدس فى ميدان هذا التنافس ، وذلك من خلال القوانين التنظيمية التى صدرت عن مجمع نقية سنة ٣٢٥ ، فقــــد نص القانون السادس على أسبقية الأسقفيات الثلاث روما والاسكندرية وأنطاكية ، واعترف بحقها فى الإشراف على المناطق التى كانت قد أصبحت بالفعل تحت رعايتها ، وامتد إليها نفوذها[٤٧] وكان هذا اعترافا صريحا من أساقفة الكنيسة عامة فى الشرق والغرب فى أول مجمع مسكونى ، بما عليه هذه الأسقفيات الثلاث من التقدمة على غيرها .

وعلى سبيل الترضية ، أردف المجمع هذا القانون ، بالقانون السابع الذى نص على كنيسة بيت المقدس تحتل المكانة التالية (الرابعة) فى المجد والكرامة بعد الكنائس الثلاث الأولى على أن تظل خاضعة لإشراف مطرانية قيسارية فلسطين .

ورغم ما يذكره بعض المؤرخين[٤٨] من أن هذا القانون ، أو هذه الكلمات المفعمة بالمودة ، تحدد الخطوة الحاسمة فى عملية الخلق التى تمت فى القرن الخامس بالنسبة لبطريركية بيت المقدس ، إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها أن القانونين السادس والسابع يتضمنان أمرين لا يمكن إغفالهما .

أولهما . أن الكنيسة الجامعة ، ممثلة فى المجمع المسكونى الأول ، قد اعترفت صراحة بأسبقية روما والاسكندرية وانطاكية على بقية الكنائس دون منازع . ولم يرد للقسطنطينية ذكر هنا ، حيث لم يكن قد اكتمل بعد بناؤها .

والأمر الثانى ، أن المجمع قد حدد ــ بما لا يدع للشك ــ وضع كنيسة بيت المقدس ، وأذن لها باحتلال المرتبة الرابعة بعد هذه الكراسى الثلاثة . وزاد هذا الأمر سوءاً ، أن المجمع التزم هنا بالتقسيم الإدارى الامبراطورية والذى سار عليه منذ بداية وضع أصول التنظيم الكنسى ، فأخضع كنيسة بيت المقدس لأسقفية قيسارية . ومنذ هذا التاريخ غدا من سلطة المجامع المسكونية أن تحدد ترتيب الأسقفيات وأسبقية هذا الكرسى أو ذاك . وهكذا ضمنت هذه الكنائس الثلاث بمقتضى قانون كنسى عالمى ــ عدم مزاحمة كنيسة بيت المقدس لها بعد ذلك إبان فترة الاستباق من أجل الزعامة الكنيسة فى عالم المسيحية .

وكأن كنيسة بيت المقدس قد رضيت بذلك الأمر، وإن كانت كارهة خاصة وإنها لم تجد لها من بين حضور المجمع من يتولى مهمة الدفاع عن حق لها ، ولم يجيء لها القدر ــ كما أسلفنا ــ أيا من الشخصيات القوية التى يمكن أن تعمل جاهدة من أجل هذا الحق . ومن ثم اقتصر صراعها فقط على أن تتحرر من سيطرة قيسارية . وكان ذلك يمثل السمة العامة لها طوال القرن الرابع والخامس الميلاديين .

ولعلنا نلمس ذلك بوضوح فيما أقدم عليه أساقفتها خلال تلك الفترة، من إظهار نوع من التحدى عنيفاً كان أو يسيراً ــ لأسقفية قيسارية ؛ ففى عام ٣٤٦ ، التأم كما أوضحنا عقد مجمع بيت المقدس لمناصرة الأسقف السكندرى اثناسيوس الذى عاد فى هذه السنة من منفاه فى الغرب متوجها تلقاء الإسكندرية وكان من الطبيعى ــ كما جرى به العرف وكذا القانون الكنسى ــ أن يحصل ماكسيموس أسقف بيت المقدس على موافقة الأسقف القيسارى لعقد هذا المجمع، غير أن ماكسيموس تجاهل تماماً هذا الحق، وضرب بالعرف والقانون الكنسى عرض الحائط(٤٩) ، وأخذ على عاتقه وحده مسئولية توجيه الدعوة

إلى أساقفة فلسطين، وترأس جلسات المجمع وأصدر قراراته المؤيدة لإثناسيوس وكان هذا إمعاناً فى التحدى خاصة إذا علمنا أن أسقف قيسارية « أكاكيوس »[٥٠] Acacius كان من أشد المتحمسين للمسيحية الأريوسية. بل كان زعيما لإحدى الفرق الأريوسية القوية.

وقد رأينا من قبل ذلك الدور البارز الذى قام به يوحنا أسقف بيت المقدس، خلال اشتداد الجدال حول المشكلة البلاجية وما انتهى إليه أمر مجمعى بيت المقدس واللدسنة ٤١٥، رغم أن المجمع الأخير كان تحت رئاسة يولوجيوس أسقف قيسارية، وكيف سعى يوحنا إلى إحباط جهود أوروزيوس لدى الأسقف القيسارى أن رفع القضية إليه.

وازدادت حمى الصراع، وظهرت بواعثه سافرة إبان أسقفية كيرلس (٣٥٠ – ٣٨٨) التى استمرت لفترة طويلة، فقد دخل منذ البداية فى نزاع على مع أكاكيوس الأسقف القيسارى، حول حقوق المطران، وهى الحقوق التى يطالب بها باعتبار أسقفيته أسقفية رسولية[٥١] بل أكثر من هذا أنها أم الكنائس، والنواة الأولى للمجتمع المسيحى.. وقد أدى هذا الجدل إلى إثارة شعور العداء بين الأسقفين، وراح كل منهما يتهم الآخر بانتسابه إلى صفوف الهراطقة. ولما كان أكاكيوس أسقف قيسارية آريوسيا. وكانت الامبراطورية آنذاك على عهد الامبراطور قسطنطيوس تؤيد الأريوسية وتضطهد خصومها، تعرض كيرلس للعزل من منصبه على الرغم من أنه كان يمثل جيل النيقية المعتدلة بعيداً عن التطرف الذى يمثـــله إثناسيوس الأسقف السكندرى ويوستاتيوس Eustathius الانطاكى الذى أفلح الأريوسيون فى عزله من منصبه سنة ٣٣٠. غير أن كيرلس لم يستسلم لقرار عزله، فبعث برسالة تحمل التهديد إلى خصومه بأنه سوف يصعد القضية إلى أعلى المستويات. ومن ثم بعث بشكايته للامبراطور قسطنطيوس، الذى صدق على هذا الملتمس. ويقول المؤرخ الكنسى سقراط

معلقا على هذا الموقف «أن كيرلس كان أول اكليروسي ، بل رجل الدين الوحيد الذي غامر بالخروج على التقليد الكنسي وذلك باستئناف الحكم الصادر ضده كما هو شائع في القضاء المدني» [٥٢] ، وعلى الرغم من أن المنشقين عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ قد حكموا بإعادته إلى كنيسته إلا أن انتصار الامبراطورية للأريوسية أتاح لأكاكيوس وحزبه ، أن يستولى على كنيسة بيت المقدس ، وأن يتتابع عليها ثلاثة من الأريوسيين إلا أن كيرلس سرعان ما عاد ثانية إلى كرسيه وظل فترة طويلة حتى نهاية عمره يحتفظ بسيادته، على كنيسة بيت المقدس ، حتى أن مؤرخ الكنيسة في القرن الخامس سوزومين Sozomenos يذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه كل الكنائس أريوسية طوال عهد فالنز (٣٦٤ — ٣٧٨) وأوائل عهد ثيودوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) ، فقد وقفت بيت المقدس وحدها وسط هذا المحيط الأريوسي نيقية تحت زعامة كيرلس [٥٣] .

ولما كانت القسطنطينية قد وجدت نفسها بين تلك اللدات الثلاث ، روما والاسكندرية وأنطاكية دون سند قانوني من مجمع مسكوني يعترف بقدرها، فقد اهتبلت فرصة عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١، لمناقشة الآراء المقدونية التي أذاعها مقدونيوس Macedonius أسقف القسطنطينية حول خلق الروح القدس [٥٤] لتحقق بغيتها . ومن ثم صدر القانون الثالث للمجمع على النحو التالي : «يحتل أسقف القسطنطينية المرتبة الأولى بعد أسقف روما حيث أن القسطنطينية هي روما الجديدة» [٥٥] وكان معنى هذا القانون أن تهبط كل من الإسكندرية وأنطاكية إلى المرتبة التالية ، وأن تتوارى كنيسة بيت المقدس إلى المرتبة الخامسة ، ولم تجد نفعا الاحتجاجات التي أعلنها أساقفة روما ضد هذا القانون [٥٦]. ومما هو جدير بالذكر أن كيرلس أسقف بيت المقدس ، كان بين حضور هذا المجمع وأعطى تصديقه على هذا القرار ، ولم يبد أي تعليق إزاء وضع أسقفيته [٥٧] .

وقد كتب أساقفة مجمع القسطنطينية رسالة مجمعية مطـــولة إلى البابا

داماسوس الأول (٣٢٦ - ٣٨٤) الذى كان قد دعا إلى عقد مجمع مضاد فى روما[٥٨] فى العام التالى مباشرة (٣٨٢) أعلن تمسكه بالقانون السادس لمجمع نيقية . وتناولت هذه الرسالة بالتفصيل الاضطهادات التى تعرض لها النيقيون فى الشرق على يد أساقفة الأريوسية وأباطرتها قبل عهد ثيودوسيوس ، وأثنت على كيرلس . « الوقور التقى » أسقف كنيسة بيت المقدس أم كل الكنائس وجهاده الكبير ضد الأريوسيين ، ولكن هذا الاعتراف لم يغير شيئاً من الحقيقة الواقعة بوضع كنيسة بيت المقدس صراحة فى ذيل قائمة الكنائس الرسولية .

غير أن الجدل اللاهوتى الذى اندلع فى النصف الأول من القرن الخامس فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، حول طبيعة المسيح كان فرصة سانحة حرصت الكنائس جميعها على انتهازها ، لتحقيق الزعامة الكنسية ، واتخذت هذه الأسقفيات كلها من المسألة الكريستولوجية ستاراً تخفى وراءها أهدافها الحقيقية . وشاركت كنيسة بيت المقدس هى الأخرى بدور فعال بغية احتلال أحد المراكز الهامة فى ميدان الزعامة . ولا يعنينا هنا أمر هذا الجدل اللاهوتى وتفاصيله العميقة ، إلا بالقدر الذى يسمح بإلقاء الضوء على الدور الذى قامت به كنيسة بيت المقدس خلال ذلك الاصطراع الكنسى .

فى عام ٤٢٨ اعتلى الراهب الأنطاكى نسطور Nestorius كرسى أسقفية القسطنطينية ، وهو يعود بجذور تفكيره وأصول ثقافته إلى المدرسة العقلانية الأنطاكية ، ويؤمن بما جاء فى قانون الإيمان النيقى ، « إن ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء » والعذراء بشر والبشر لا تلد إلها . ومن ثم فليس من المنطق القول عنها أنها «أم الإله » ، وهو يعترف بطبيعتين للمسيح ، طبيعة ابن الله المساوى للأب فى الجوهر ، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء ويغلب الطبيعة البشرية فى المسيح . وعليه يغدو تعبير « والدة الإله »

خلطاً بين اللاهوت والناسوت . العذراء إذن أم المسيح البشر ، وليست أم المسيح الإله »[٥٩] .

وقد ارتاعت القسطنطينية فور سماعها بهذه الأنباء ، حيث عمد أسقفها الجديد إلى حرمان المدينة نخار حاميتها « أم الرب » غير أن نسطور لم يأبه بشيء من ذاك ، وخاطب الامبراطور بقوله : « اعطنى الأرض وقد تطهرت من المارقين « أمنحك نعيم الجنة المقيم » .

وعلى حين وقف الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠) إلى جانب أسقفه ، أعلن الأسقف السكندرى كيرلس (٤١٢ - ٤٤٤) إدانته لآراء نسطور ، ووافقه الرأى أسقف روما ، وفوضه — دون أن يعلم شيئاً عن حقيقة هذه المسألة اللاهوتية — فى عزل نسطور . وأقنع أسقف القسطنطينية الامبراطور بالدعوة لعقد مجمع كنسى لحسم هذا الجدال . وفى أحد العنصرة Whit Sunday السابع من يونية سنة ٤٣١ التأم عقد المجمع المسكونى الثالث فى مدينة أفسوس Ephesus ولما كان كيرلس السكندرى قد عزم على أن يكسب هذه الجولة من جولات الصراع الكنسى ، كما كسب سابقتها ثيوفيلوس[٦٠] ، فقد اصطحب معه إلى مدينة المجمع عدداً كبيراً من أكليروسه ورهبان مصر لمساندته فى موقفه .

ولقد ظهر واضحاً منذ البداية وحتى قبل أن يلتئم عقد المجمع ، إن هناك انقساما واضحاً بين الأساقفة المشتركين فيه ، وإن كلا منهم يسعى لاستقطاب أكبر عدد من الحضور إلى جانب هذا الفريق أو ذاك . فوقفت روما تؤيد الاسكندرية ، كوسيلة لقهر أسقف القسطنطينية ، وتعبيرا عن الحقد الذى كان يعتمل فى نفس كل من الكنيستين تجاه القسطنطينية نتيجة لما خصها به المجمع المسكونى الثانى ، هذا بالإضافة إلى أن كنيسة القسطنطينية قد كسبت لنفسها عددا من الأعداء الذين يحيطون بها ممثلين فى كنائس آسيا الصغرى ، نتيجة لامتداد

سلطانها إلى عدد من كنائس هذه المنطقة ، وكذا منطقة تراقيا التى كانت كنائسها تخضع قبل ذلك لأسقفية هرقليا Heraclea وكان عدد كبير من هؤلاء يتوق إلى الحصول على حرياتهم وسلطاتهم . ومن ثم أصبح ممنون Memmnonius أسقف أفسوس من أشد الأساقفة تأييداً لكيرلس السكندرى[٦١] . أما أنطاكية فكانت تقف فى الناحية الأخرى تشد من أزر القسطنطينية حيث كان نسطور أحد تلامذة مدرستها ورئيساً لواحد من أديرتها . ولم تكن آراؤه عن «أم الإله» جديدة على الفكر اللاهوتى الأنطاكى .

هذا بينما صمت كنيسة بيت المقدس منذ اللحظة الأولى ، على أن تخرج من هذا الاستباق بشىء ، وأن لاتقف هكذا موقف المشاهد فحسب . . بل يجب أن تشارك بدور ، مهما يكن حجة لتحريك الأحداث ، والتأثير فيها كلما أمكنها ذلك . وساعدتها الظروف حيث كان يلى أمرها آنذاك جوفينال Juvenalius (٤٢٥ – ٤٥٨) ، وهو شخص عرفه الجميع ، كما يدل سجله الوظيفى ، مداوراً أثيما نهازا للفرص مستهترا طموحا بغير حدود . كان هدفه الأساسى والوحيد أن يجعل من أسقفيته بطريركية . ولما كان يوحنا أسقف أنطاكية ، الذى يمثل خصمه العنيد فى هذا المشروع ، يقف إلى جانب نسطور ، فقد أعان جوفينال انضمامه إلى كايرلس السكندرى[٦٢] .

على هذا النحو جرت الأحداث فى مجمع أفسوس ، فلم يكن مجمعاً بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، وإنما اتخذت قراراته كلها بصورة حزبية . فاجتمع كايرلس وممنون وجوفينال وأدانوا نسطور وعزلوه ، فلما حضر الوفد الأنطاكى بزعامة يوحنا ، وكان قد تأخر به الطريق ، عقد اجتماعاً مع أسقف القسطنطينيين تحت رعاية كانديديان Candidianus ممثل الامبراطور ، وتقرر إدانة كيرلس وممنون وعزلهما . ولم يشمل قرار الإدانة هذا جوفينال ، وربما يعود ذلك إلى أسلوب المداورة والمداهنة الذى يجيده أسقف بيت المقدس ، وسوف نلمس

ذلك بوضوح فى مواقفه المتباينة بل المتضادة . أو لعل الفريق القسطنطينى الأنطاكى كان يطمع فى استرضائه وضمه إلى صفه للحصول على تأييده . وسرعان ما وصل مندوبو البابا فأعلنوا على الفور مساندتهم للإسكندرية وحلفائها .

أعيا خلاف الرأى والهوى هذا ثيودوسيوس الثانى الامبراطور ، وحتى يكون مع نفسه والحق منصفاً ، فقد صدق على عزل الأساقفة الثلاثة رؤوس الجدال ، كيرلس ونسطور وممنون ، ولعن كل فارق عن الإيمان النيق والغريب أيضاً أن قرار الامبراطور قد خلا من إدانة جوفينال ، وقد صمتت المصادر عن ذلك تماما ، ولا نجد لهذا الموقف تفسيرا ، إلا ما ذكرناه للتو ، أعنى سياسة المراوغة التى كان يتبعها أسقف المدينة المقدسة ، والتى نجح من خلالها فى الافلات من إدانة الأساقفة وغضبة الامبراطور . وإن كان هذا فقط هو كل ما استطاع جوفنال أن يحققه من هذا المجمع .

خلاصة القول أن كيرلس السكندرى لم يستسلم لهذا القرار وأفلح عن طريق وسائله الخاصة فى إلغاء قرار عزله ، وأن يستعيد كرسيه الأسقفى ثانية ، وأن يحقق لحليفه ممنون أسقف أفسوس نفس النتيجة(٦٣) .

ولم يمض على ذلك أقل من عشرين عاماً ، حتى اندلع الصراع من جديد ، أو بتعبير أدق ، ازداد أواره ، حيث أنه لم يخب طوال هذه السنين ، فقد انقسمت الكنيسة بين مؤيد ومعارض للآراء النسطورية أو الكيرللية ، ووصل التطرف هنا وهناك مداه فى نهاية النصف الأول من القرن الخامس . حيث أكد الراهب القسطنطينى يوطيخا Eutyches على الطبيعة الواحدة فى المسيح وهى الطبيعة الألهية . وقد عرف أصحاب هذا الرأى بالمنافرة Monophysites وأعلنت كنيسة الاسكندرية قانون إيمانها على لسان أسقفها الجديد ديوسقورس Dioscorus الذى خلف كيرلس سنة ٤٤٤ ، ويقول بوجود طبيعة واحدة فى المسيح من

طبيعتين . ولماحى وطيس الجدال بين يوطيخا من ناحية ، وفلافيان Flavianus أسقف القسطنطينية ، ويوساب أسقف ضورلة Dorylaeum ، وليو الأول أسقف روما من ناحية أخرى ، أقدم الامبراطور ثيودسيوس الثانى على توجيه الدعوة لعقد مجمع كنسى جديد ، اتخذ من مدينة أفسوس للمرة الثانية مكانا لانعقاده .

وفى الثامن من أغسطس سنة ٤٤٩ بلغ عدد الأساقفة الذين تقاطروا على مدينة المجمع ١٣٠ أسقفاً تمثلت الأغلبية فى الأساقفة المصريين بزعامة ديوسقورس، والاكليروس الفلسطينى يقود جمعه جوفينال ، وترأس الأسقف السكندرى جلسات المجمع . وقد قام أسقف بيت المقدس هنا بنفس دوره فى المجمع السابق ، ذلك أنه لما كان دومنوس Dominus أسقف أنطاكية مؤيدا لكنيسة القسطنطينية وأسقفها فلافيان ، فقد راح جوفنال يعضد يوطيخا والأسقف السكندرى ديوسقورس . وانتهى الأمر بتبرئة ساحة يوطيخا وإعلان قوامة إيمانه . وإدانة فلافيان ويوساب ودومنوس وعزلهم من أسقفياتهم . وعاد جوفنال يتباهى بما حققه من نصر على الأسقف الأنطاكى الذى كان يمثل له حجر عثرة يعوقه عن الارتقاء بأسقفيته إلى مكانة مرموقة بين قريناتها .

ويبدو أن كنيسة بيت المقدس ، قد أضحت الآن فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما كان يسعى إليها أساقفتها. وساعدت الأحداث السياسية نفسها على تيسير هذا المبتغى . فقد توفى ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ ، ولما لم يعقب وريثاً ذكرا ، فقد خلفه على العرش مارقيان Marcianus عضو السناتو ، الذى كان يدرك تماما أنه لا ينتمى إلى الأسرة الثيودوسية ، ومن ثم اقترن باخت الامبراطور الراحل بولكيريا Pulcheria زواجا سياسيا محضا . ولكنه كان يحرص فى الوقت ذاته على استرضاء أسقف روما بعد أن تدهورت الحالة السياسية فى النصف الغربى من

الامبراطورية تحت ضربات جحافل الجرمان ، حتى يضمن بذلك عونه فى الحصول على رضاء امبراطور الغرب فالنتينيان الثالث عن اعتلائه العرش، حيث كان امبراطور الغرب يعتبر الوريث الشرعى لابن عمه وصهره ثيودوسيوس الثانى . وحيث كان البابا يتمتع بنفوذ واسع فى بلاط الغرب[٦٤] .

وكان الغضب قد تملك على ليو الأول كل سبيل من جراء ما أسفرت عنه جلسات مجمع إفسوس الثانى ، حيث رفض ديوسقورس قراءة «رسالة العقيدة» TOMUS التى كان قد بعث بها ليو إلى المجمع . ولهذا شرع مارقيان يدعو الأساقفة لعقد مجمع عام ، عرف بالمجمع المسكونى الرابع ، وشهدته مدينة خلقيدونية Chalcedon فى الثامن من أكتوبر سنة ٤٥١ . وقد اتضح منذ الجلسة الأولى ما كانت تبيته روما والقسطنطينية للنيل من المكانة التى ارتقت إليها كنيسة الاسكندرية على امتداد الصف الأول من القرن الخامس على يد ثيوفيلوس وكيرلس وديوسقورس . وكانت الجلسة الثالثة من جلسات المجمع محاكمة صريحة لأسقفية الإسكندرية فى شخص ديوسقورس ، الذى رفض المثول أمام المجمع فصدر بالتالى ضده قرار الإدانة والعزل . ووقف الا كليروس المصرى وحده يدافع عن قضية إيمانه ومكانة كنيسته .

أدرك جوفنال أن دفة الأحداث تسير الآن فى اتجاه معاكس ، وأن سفينة الاسكندرية وديوسقورس لامحالة غارقة ، ومن ثم أسرع يطلب النجاة ليحقق بعض طموحه ، فأعلن تخليه عن الأسقف السكندرى ، وصدق على إدانته . وكذا – كما يقول المؤرخ « Chadwick » ارتد جوفنال بحركة مسرحية عن موقفه الأول وتمت مكافآته على ذلك باحتفاظه بأسقفيته[٦٥] .

وإن لم يستطيع أن يعود إليه حقاً إلا بعد عامين كاملين ، نتيجة الثورات التى اندلعت بين الرهبان فى فلسطين احتجاجا على موقفه هذا . واضطرت

الحكومة إلى استخدام القوة لاخمادها[٦٦] بل لقد ذهب المجمع خطوات أبعد من ذلك تجاه كنيسة بيت المقدس، فأعلن تحريرها من سيادة قيسارية وأمكن التوفيق بين ماكسيموس Maximus الأسقف الأنطاكي، وجوفنال، حيث خلع على الأخير منصب البطريرك ومنحت أسقفية بيت المقدس المرتبة الخامسة بين الكنائس الرسولية الكبرى. بشرط أن لا يتجاوز سلطانها الرعوى كنائس فلسطين فقط[٦٧].

وقد عرف هذا الترتيب بالنظام «الخماسى» فى الكنيسة، وأنه قد اكتمل على هذا النحو بناؤه. وأذاعت الكنائس الخمس أنها رسولية، على أنه إذا كانت الكراسى الأربعة الأولى (روما – القسطنطينية – الاسكندرية – أنطاكية) تمثل أكثر المدن أهمية فى الامبراطورية، فإن كنيسة بيت المقدس قد ألحقت بهم فقط على اعتبار أنها المكان الذى انطلقت منه الدعوة المسيحية والموضع الذى شهد معاناة المسيح[٦٨]. وهكذا قنعت كنيسة بيت المقدس بما وصلت إليه، وإن كان ذلك قد جاء متأخرا (فى القرن الخامس)، وجاءت هى الأخرى فى نهاية القائمة، على الرغم من أن كنيسة القسطنطينية، حديثة العهد بالحياة، قد أفسحت لنفسها مكانا مرموقاً، وزاحمت روما والاسكندرية بوحى من الامبراطور وبقرار من رجال الكنيسة فى مجمع مسكونى.

وقد أكد الامبراطور جوستنيان Justinianus I (٥٢٧ – ٥٦٥) الاعتراف بالوضع الجديد لكنيسة بيت المقدس فى «المتجددات» Novellae التى صدرت حول المسائل المتعلقة بالتنظيم الكنسى، واعتبرت هذا النظام «الخماسى» يمثل الوحدة التامة للكنيسة الكاثوليكية (الجامعة)[٦٩].

هكذا ألقت كنيسة بيت المقدس أسلحتها الواهنة، بعد أن حققت بيد الضعف مكانة كانت تسعى إلى غيرها، وقنعت بأن تعد ضمن الكنائس الرسولية الكبرى، حتى ولو جاء ترتيبها الخامسة بين تلك الذات. ولا شك أن الكراسى

الأربعة الأخرى قد هدأت نفساً بإقرارها لهذا الترتيب «الخماسى» . وإن كان فى حلق الاسكندرية غصة بعد أن أزاحتها القسطنطينية سنة ٣٨١ لتحتل مكانها. ولم تغفر الاسكندرية للقسطنطينية هذا التعدى فانتقمت لنفسها خلال الجولات الثلاث على امتداد النصف الأول للقرن الخامس الميلادى . حقيقة ردت للقسطنطينية اعتبارها فى المجمع الخلقيدونى ،وجرعت الاسكندرية كأساً كانت قد ذاقت مرارته ثلاث مرات قبل ذلك . غير أن خسارة القسطنطينية كانت عندنصرها فى خلقيدونية أفدح بكثير لحظة هزيمتها . ذلك أن المناطق الامبراطورية الشرقية فى سوريا وفلسطين ومصر ، أصبحت تموج بحركات العداء الكامن تجاه القسطنطينية ، وذلك نتيجة للسياسة العقائدية التى اتبعتها كنيسة العاصمة والأباطرة تجاه كنائس هذه المناطق بسبب الخلاف المذهبى ، بالإضافة إلى السياسة الاقتصادية المتمثلة فى الضرائب الباهظة التى ألقيت على كواهل الأهلين فى هذه الولايات لمواجهة الأعباء الناجمة عن محاولة الامبراطورية ، خلال عهد جوستنيان ، استعادة الولايات الضائعة فى الغرب ، والتى تساقطت فى أيدى زحوف الجرمان فى نهاية القرن الرابع وعلى امتداد القرن الخامس تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف ، ثم مواجهة الامبراطورية لهجمات عناصر الآفار والصقالبة على البلقان ، ومن ثم بات واضحا أن هذه المناطق الشرقية تشكل خطرا حقيقياً على الامبراطورية ، يتمثل داخليا فى الاضطرابات التى اندلعت فيها لقرنين تاليين ، وخارجياً فى الطموح الفارسى الساسانى الذى يبتغى القفز إلى سواحل البحر المتوسط ، وقد تحقق ذلك بالفعل فى السنوات الأولى من القرن السابع ، ولم يلبث المسلمون بعد ذلك أن أدخلوا هذه المناطق فى دائرة نفوذهم .

من هنا راحت السياسة الامبراطورية تتقلب بين اللين والهوادة ومحاولة الاسترضاء تارة ، والعنف تارات ، وعانت كنائس الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس كثيرا من جراء هذا التقلب . غير أن هذه المحاولات كلها لم تثمر

فى نهاية الأمر . إلا شيئاً واحدا ، هو ضياع هـذه الأقاليم الامبراطورية ضياعا لا رجعة بعده .

وقد ساعد على اشـــتداد حركة العـداء فى فلسطين بالذات ، تجـاه القسطنطينية، ازدياد نمو الحركة الرهبانية فى هذه المنطقة ، وكانت فلسطين — بلا شك — أكثر المناطق تأثرا بالنظام الرهبانى فى مصر ، وبرز من هؤلاء الرهبان فى القرن الرابع القديس هيلاريون Hilarion الذى عاش فى صحراء غزة ، والقديس شاريتون St, Chariton الذى يعزى إليه إقامة سيق (٧٠) . (لافرا Lavra) فاران فى صحراء اليهودية Judaea . وكان هذا النسق من الرهبنة أكثر الأشكال الرهبانية انتشارا فى فلسطين . ويستدل مما كتبه كيرلس السبيسانى Cyril of Scythopolis فى القرن السادس ، على الانتشار الواسع للحركة الرهبانية وازدياد عدد الرهبان فى فلسطين خلال القرنين الخامس والسادس(٧١) . ولما كان الرهبان هم أكثر المسيحيين تمسكا بعقيدتهم، وأشدهم تعصبا لما هم به يدينون ، كان من الصعب أن تفلح معهم محاولات الحكومة الامبراطورية لاستمالتهم إلى مذهب آخر غير الذى يقومون على اعتناقه .

وإن كان الرهبان فى فلسطين مع ذلك لايشكلون قوة حقيقية يمكن أن تعتمد عليها كنيسة بيت المقدس ، إلا فى حالات نادرة ومن ثم افتقدت كنيسة بيت المقدس ما تمتعت به كنيسة الاسكندرية من اعتماد أساقفتها على الرهبان المصريين فى تحديها لسلطان الأباطرة ، إلى جانب أسلحتها الأخرى . حيث كان الرهبان المصريون يشكلون بهراواتهم — كما يقول المؤرخ Budge جيشا قوياً يقلق بال الحكومة الامبراطورية .

ففى عام ٤٨٢ أقدم الامبراطور زينون على إصدار ما يعرف بقانون الاتحاد Henotikon تضمن موافقته على مراسيم الإيمان الصادرة عن نيقية

والقسطنطينية ومبادىء كيرلس السكندرى ، وإدانته لنسطور ويوطيخا . ولكن المرسوم لم يذكر شيئا عن طبيعة واحدة للمسيح كما يؤمن المنافزة أو طبيعتين كما يعتقد الخلقيدونيون . وكان زينون الذى يبدو وأنه يميل للمونوفزية - يريد بهذا القانون استرضاء كنائس سوريا وفلسطين ومصر ، غير أن كنيسة بيت المقدس بتأييد من رهبان فلسطين رفضت هذا القانون ، فقد أعلن الرهبان أن هذا القانون لا يتضمن إدانة صريحة للخلقيدونية . غير أن الحكومة لم تكن جادة فى مباشرة تنفيذ هذا القانون وحمل مسيحيي الشرق على الأخذ به ، ومن ثم وقفت موقفاً سلبيا إزاء صيحات الاحتجاج هذه .

وكان الامبراطور أنسطاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١ ٥١٨) الذى خلف زينون أكثر ميلا للمونوفيزية من سلفه ، وأشد رغبة فى استرضاء أهالى الولايات الشرقية ، خاصة وأن أنسطاسيوس لم يكن يبدى اهتماما خاصا بما يجرى فى الغرب الامبراطورى ، الذى راح يقع فى أيدى الجرمان ولاية وراء أخرى ، ومن ثم أولى الشرق ، والمسألة العقيدية جل اهتمامه . وكان يتولى رعاية أسقفية بيت المقدس الياس الذى أظهر ميله فى بادىء الأمر للمعتقد الخلقيدونى ثم أعلن انحيازه له صراحة بعد ذلك . ويبدو أن الياس ، الذى أمضى أسقفاً لبيت المقدس ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة (٤٩٤- ٥١٦) ، قد تمكن من استمالة مجموعة كبيرة من الرهبان فى فلسطين الى جانب الطبيعتين فى المسيح ، بحيث تحولوا على هذا النحو إلى الجانب المضاد تماماً . وقد ظهر ذلك واضحاً عندما أخذ الامبراطور فى السنة العشرين من حكمه يعلن جهارا ميله للمونوفيزية ويعزل أساقفة الخلقيدونية[٧٢] وإن كان قد اصطبر على الياس حتى عام ٥١٦ حيث أصدر قرار عزله ونفيه نتيجة لما يعلمه من نجاحه فى تحويل نفر كبير من الرهبان إلى الخلقيدونية ومناصرة هؤلاء له . ومن ثم فقد لقى صعوبة بالغة فى فرض إرادته هنا ؛ ذلك أن يوحنا ، الذى كان أحد شمامسة الياس واختير من قبل السلطات الامبراطورية خلفاً لأستاذه ، كان عليه أن يعلن جهاراً إنزال اللعنة

على المجمع الخلقيدونى ، وقد فعل . فلما كان يوم رسامته لمنصب الأسقفية ، أحاط به عشرة آلاف راهب فلم يجد من سبيل إلا أن يصرح علانية ساعتها تمسكه بقانون الإيمان الخلقيدونى . وكان قائد حامية فلسطين على قدر كبير من الذكاء أدرك به أنه من الأفضل أن ينسحب بقواته بهدوء دون تدخل من جانبه ، كما كانت تقضى الأوامر الامبراطورية . فقد أبصر العواقب الوخيمة التى يمكن أن تؤدى اليها مثل هذه المواجهة بين قواته وجيش الرهبان .

وقد عاشت كنيسة بيت المقدس ، شأن الكنائس الأخرى فى الامبراطورية ، فترة قلقة يسودها التوتر والاضطراب خلال العهد الطويل للامبراطور جوستنيان Justinianus I (٥٢٧ — ٥٦٥) — فقد كان قلب الامبراطور يهوى الغرب ، ولكن بصره كان معلقاً بالشرق ، يروم استعادة — الولايات الامبراطورية فى النصف الغربى ، ويسعى لحماية ولايات الشطر الشرقى من الخطر الفارسى . وبين قلب الامبراطور وبصره ، تأرجحت فى العقيدة سياسته ومن ثم كانت العقيدة عنده تسير فى رحاب الجيش ، يقلب الامبراطور بين كفيه كنائس الامبراطورية حسبما تقضى بذلك مصلحته السياسية ومتطلباته العسكرية[٧٣] . وقد أظهر جوستنيان فى السنوات الأولى من حكمه ، ميلا تجاه المنافزة ، حيث كانت الجيوش تحارب الفرس على جبهة الفرات ، ولهذا كان حريصاً على استرضاء أهالى الولايات الشرقية حتى يضمن هدوء الجبهة الداخلية . هذا بالإضافة إلى أن زوجه ثيودورا كانت تبدى تعاطفاً طبيعياً مع المونوفيزية . ولما أمن جبهة فارس بمعاهدة سلام اشتراها ، ونقل قواته للغرب محارباً محاولا استرداد أفريقيا وإيطاليا ، أدار للطبيعة الواحدة فى المسيح واتباعها ظهره ، وولى وجهه شطر روما الخلقيدونية يطلب ودها . وعلى هذا النحو تعرضت الكنائس للكثير من مظاهر تدخل الدولة فى عزل أساقفتها وتعيين غيرهم تبعاً للمصلحة السياسية . وإن كان هذا لا يعنى أن — الامبراطور لم يكن راغبا حقيقة فى التوصل إلى صيغة واحدة للإيمان تجتمع عليها أمبراطوريته .

غير أن كنيسة بيت المقدس تعرضت لهزة عنيفة إبان عهده ، من جراء الصراع الذى نشب من جديد حول فكر الفيلسوف واللاهوتى السكندرى أوريجن . واشتد أواره بفعل اشتراك متقفى الرهبان فيه . وزاد الأمر حدة أن أفاجريوس Evagrius الذى كان رئيس الشمامسة فى القسطنطينية ، قد غادر العاصمة واتجه إلى بيت المقدس ، وراح ينشر وجهة نظره المؤيدة للاوريجنية . وساعده فى ذلك اللافرا الجديدة التى كانت قد أقيمت فى صحراء اليهودية Judaea أصبحت تمثل مركز الفكر الأوريجنى فى فلسطين . وعلى الرغم من أن أفاجريوس قد غادر بيت المقدس إلى الصحراء المصرية لإعجابه بالحياة الديرانية هناك ، إلا أن حدة الجدال لم تلته ، مما دفع الامبراطور جوستنيان أن يصدر فى سنة ٥٤٣ مرسوما مطولا يدين فيه الأوريجنية ، وليعود بعد ذلك بعشر سنوات ، يؤكد هذه الإدانة فى المجمع المسكونى الخامس الذى شهدته القسطنطينية سنة ٥٣٣ ، وليشرك فى اللعنة مع أوريجن ، أفاجريوس وديدوموس الضرير الذى كان رئيسا لمدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع .

وبموت جوستنيان ، دخلت الامبراطورية فى طور من الضعف امتد قرابة نصف قرن من الزمان (٥٦٥ ٦١٠) ، ورغم أن بعض أباطرة هذه الفترة مثل الامبراطور موريس Mauricius (٥٨٢—٦٠٢) قد حاول جاهدا الحفاظ على كيان الامبراطورية ، إلا أن الأحداث الخارجية التى عاجلت الامبراطورية بضرباتها عند الدانوب وعلى الفرات ، كانت أقوى من جهود خلفه فوقاس Phocas الذى يعد عهده (٦٠٢ — ٦١٠) من أسوأ الفترات فى تاريخ الامبراطورية .

انتهز الفرس فرصة الضعف الذى ترددت فيه الامبراطورية ، والفتنة الداخلية التى رفعت فوقاس إلى العرش[٧٤] . ووجهوا جيوشهم نحو الولايات الشرقية للامبراطورية ، لتحقيق حلمهم الذى كانوا يطمحون إليه منذ زمن بعيد ، بالوصول

إلى شواطىء البحر المتوسط الذى كان يمثل مركز الثقافة والحضارة آنذاك . واستطاعوا فى سنوات قليلة الاستيلاء على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، ووقفت جيوشهم على الشاطىء الآسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية، ولم يستطع الامبراطورهرقل Heraclius حتى السنة الخامسة عشرة من حكمه (٦٢٥) أن يتصدى لهذا الزحف .

وقد تعرضت بيت المقدس للتخريب على يد الفرس ، فقد نهبت الكنائس ، وجردت كنيسة القبر المقدس من كنوزها وأشعلت فيها النيران ونقلت كثير من النفائس التى كانت تزدان بهـا المدينة ودور العبادة المسيحية إلى المدائن Ctesiphon ، ونقل معها أيضاً صليب الصلبوت الذى قيل ـ كما أسلفنا ـ أن رحلة هيلانة والدة قسطنطين استهدفته وتم العثور عليه . هذا بالإضافة إلى عدد من الأسرى كان فى مقدمتهم زكريا Zacharia أسقف كنيسة بيت المقدس. ولم يأت عام ٦١٨ حتى كانت مصر هى الأخرى قد سقطت فى أيدى الفرس . هكذا فقدت الامبراطورية كل ولاياتها الشرقية . وكان الآفار فى الوقت ذاته قد عاثوا فى البلقان فسادا ، وألقوا على القسطنطينية حصارهم . وهكذا لم يبق من بيزنطة الامبراطورية إلا بيزنطة المدينة !!

غير أن الامبراطور هرقل ، تشاركه الكنيسة ، بذل جهودا كبيرة فى سبيل استعادة هذه الولايات الضائعة ، وفى ديسمبر سنة ٦٢٧ حقق هرقل نصره الكبير، وقدر أن تشهد نهاية العام خاتمة الصراع بين الامبراطورية وفارس . وعند أطلال نينوى ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، بعد أن سجلت آخر سطور ملحمة الصراع الطويلة بين الفريقين . ولم نسمع مرة فى التاريخ البيزنطى عن حرب خاضتها الامبراطورية ضد فارس ، لا لأن بيزنطة كانت قد كالت لعدوها الكثير . . ولكن لأن دولة الفرس سرعان ما زالت تماماً بعد ذلك ببضع سنين على يد المسلمين .

وعاد هرقل إلى عاصمته تحفه أكاليل الغار وزهو الانتصار ، يحمل إلى شعب القسطنطينية صليب الصلبوت ، الذى طيف به أمام مذبح أياصوفيا . وفى سنة ٦٣٠ ارتحل الامبراطور وزوجته مارتينا Martina قاصدين بيت المقدس، حيث أعيد الصليب - فى احتفال مهيب إلى سابق مكانه[٧٥] .

ولا شك أن هرقل كان يدرك تماماً الأسباب الحقيقية لضياع هذه الولايات على هذا النحو من السرعة ، واتخاذ الأهلين فيها موقف السلبية تجاه هذا الغزو الفارسى . (وسوف يتكرر هذا المشهد ثانية إلى حد كبير أمام حركة الفتوح الإسلامية الأولى) ، نتيجة ضجرهم ونقمتهم على القسطنطينية لسياستها العقيدية المخالفة لهم ، والمتعنتة فى معاملتهم . غير أن هرقل عندما حاول معالجة هـذه الناحية ، لم يخرج عن السبل التى رسمها أسلافه من قبل ، وهى محاولة التوفيق بين أصحاب الطبيعة الواحدة المنافزة ، وأصحاب الطبيعتين الخلقيدونيين ، وهى سياسة أثبتت على مر القرون فشلها بسبب الخلاف الجـــذرى العقيدى بين هؤلاء وأولئك . والأحقاد الدفينة منذ سنى الاصطراع استباقاً من أجـل الزعامة الكنسية . إلا أن هرقل كان يحدوه الأمل فى إتمام الوحدة الكنسية حتى يضفى على نصره العسكرى شيئاً من قداسة ، خاصـــة وأن البدايات هيأت له بعض التفاؤل .

فقد انتهز الامبراطور فرصة وجوده على رأس حملاته العسكرية فى حرب فارس ، وراح يتفاوض مع أساقفة بعض الكنائس الواقعة فى دائرة عملياته العسكرية ، ونعنى بذلك بولس الأسقف الأرمنى ، وذلك فى عام ٦٢٣، وأبدى راعى الأرمن هنا ارتياحه لرغبة الامبراطور فى توحيد الكنيسة . وكذلك قيرس Cyrus أسقف فاسيس Phasis فى بلاد الأكراد ، واثناسيوس الجمال أسقف أنطاكية . ولعب البطريرك سرجيوس أسقف القسطنطينية دوراً كبيراً فى محاولة استمالة عدد من رجال الإكليروس إلى الدعوة الجديدة التى ابتدعها الامبراطور .

ولما أعجب هرقل بلباقة قيرس واندفاعه فى تأييد الامبراطور وآرائه ، عينه أسقفاً على الإسكندرية .

أذاع هرقل بيان إيمانه Ecthesis سنة ٦٣٨ بعد أن اطمأن إلى رضاء عدد من أساقفته عنه ، وتضمن هذا المرسوم القول بالطبيعتين فى المسيح حسبما أقر الإيمان الخلقيدونى ، وأضاف القول بالمشيئة أو الإرادة الواحدة(Thelima). ومن هذه الكلمة اليونانية اشتق مصطلح المونوثلية(٧٦) Mon Monotheletism وتولى سرجيوس مسألة الصياغة اللاهوتية لهذا المرسوم العقيدى الجديد الذى كان يبغى فى ظاهره التوفيق بين أنصار المذهب الخلقيدونى ، وأصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية). وعلى الرغم من أن البابا هونوريوس الأول Honorius 1 اعترف بخطورة كل المناقشات التى تثور حول المشاكل العقيدية التى لم تقرها المجامع المسكونية ، فقد أعلن صحة التعاليم القائلة بإرادة واحدة .

غير أن كنائس الولايات الشرقية رفضت الاعتراف بهذه البدعة الجديدة، وقاد البطريرك السكندرى بنيامين حملة المعارضة فى مصر ضد الأسقف الامبراطورى (الملكانى) قيرس . أما كنيسة بيت المقدس فقد علا صوتها بالاحتجاج الصارخ على هذا التشويه للعقيدة المسيحية ، وكان بطريركها صفرونيوس Sophronius الراهب الفلسطينى ، وتلميذ الإسكندرية، أشد رجال الاكليروس تحدياً للمونوثلية التى اعتبرها صورة ممسوخة من مذهب الطبيعة الواحدة وشكلا فاسداً للايمان الخلقيدونى . وكتب رسالة مجمعية إلى أسقف القسطنطينية ناقش فيها بمهارة واضحة وذكاء عدم قوامة التعاليم المونوثلية . وكان فشل كل الجهود الدبلوماسية التى بذلها الامبراطور وأسقفه سرجيوس أمام المقاومة العنيدة التى أبداها صفرونيوس ، دافعاً حمل هرقل على اتباع سياسة العنف بغية تحقيق أهدافه . غير أن هذه السياسة لقيت هى الأخرى فشلا ذريعاً، وكان عاقبة أمرها خسراً ، إذ لم يمض على ذلك أشهر قلائل حتى كان المسلمون

قد أخضعوا هذه المناطق لسلطانهم . ويعلق المؤرخ بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » على ذلك بقوله « . . . لقد كان رأى الامبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأيا بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدىء العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب ، فما كان منه إلا أن ازداد العاصفة هياجا ، ولم يستطع الصبر على الخيبة ، ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الاعتدال ، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطالع جنود الإسلام » .

هكذا رأينا كيف عاشت كنيسة بيت المقدس تعانى لفترة طويلة أوجاع اضطهاد نبيل خصتها به قريناتها . . روما والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية لتضمن بقاءها فى مرتبة دنيا ، تقصر هامتها دون رقاب تلك الأسقفيات ، وأولاء اللدات تعلم علم اليقين أنه لو أتيحت لكنيسة بيت المقدس الفرصة فى منافسة عادلة ، لعلت برصيدها الروحى ، فقط ، والذى لا تمتلك سواه ، سمت رفعة وفخار يفوق ما كان لهؤلاء جميعاً من ماض وثنى تتباهى به روما ، وحاضر تزهو به القسطنطينية ، أو فكر فلسفى تتعالى به الإسكندرية وأنطاكية . وليس غريباً أن يشارك الأباطرة أساقفتهم هذا السبيل ، فإذا كان الامبراطور هو الكاهن الأعظم فى الوثنية ، فقد أصبح الآن الأسقف الأعلى فى المسيحية ، ورأس الكنيسة ، يعين الأساقفة ويعزلهم ، ويدعو لعقد المجامع الكنسية العالمية ، وحتى المحلية ويترأس جلساتها ويصدق على قراراتها ، ويتدخل فى أمر العقيدة والتنظيمات الكنسية . ويكفى أن نقف على سياسة قسطنطين إزاء المسيحية ، أو متجددات جستنيان ، لنعلم إلى أى حد بلغ سلطان الأباطرة على الكنيسة . ومن ثم كان من اللائق بل من الضرورى أن تحتل أسقفية العاصمة المرتبة اللائقة بها . ولكى يصاغ الترتيب الذى عمدت إليه هذه الكنائس فى قالب مقدس ، أصبح من سلطة المجامع الكنسية ، حتى المحلية منها أن تصدر قوانينها بأسبقية

هذا الكرسى الأسقفى أو ذاك . على هذا النحو سار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ والقسطنطينية سنة ٣٨١ وخلقيدونية سنة ٤٥١ . بل وأيضا مجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة ٣٤١ ، حيث نص القانون التاسع على إضفاء المرتبة الأولى على الأساقفة الذين يرعون كنائس عواصم الولايات(٧٧) . ووسط متاهات الكريستولوجية السحيقة التى تفرقت بها السبل فى القرن الخامس الميلادى لهثت الكراسى التى عدت نفسها رسولية وتقطعت أنفسها جريا وراء مركز للزعامة مرموق فى عالم المسيحية . مستترة برداء تنشره فى وجه الخصوم ، هو الدفاع عن لاهوت المسيح عند نفر ، وناسوته عند آخر .. وعن هذا وذاك عند ثالث .

وتركت الظروف الخاصة بكنيسة بيت المقدس أيضاً بصماتها على موقع هذه الكنيسة . فافتقدت القوة الرهبانية التى يمكن أن تجد فيها سنداً ومعيناً يحمى ظهرها فى مواجهة السلطة الامبراطورية ، وهى القوة التى فازت بها كنيسة الاسكندرية ، وعرف أساقفتها كيف يفيدون منها إلى أقصى حد . كما أن أحدا من الشخصيات القوية لم تحظ به كنيسة بيت المقدس أسقفاً لها ، يمكن أن يجهر بحق الكنيسة فى مرتبة متقدمة ، بل شغل أساقفتها ، حتى ذوى السمعة منهم وهم قليلون ، برفع عقيرتهم بالشكوى من خضوعهم لقيسارية ، فلما آنست الكنائس الرسولية من نفسها قوة ، سمحت لكنيسة بيت المقدس أن تلحق فى النهاية بركب قافلة الكراسى الأربعة الكبار ، وتنزل المنزلة الخامسة .

وقد يقال أن هذا التنظيم «الخماسى» لا يعنى ترتيب مكانة . صعوداً إلى روما أو نزولا إلى بيت المقدس . فالكل فى حق الأخوة والرفعة سواء . وإذا جاز أن يصدق هذا القول من الناحية النظرية وحدها ، فإن الواقع العملى بالصورة التى جرى بها فى القرن الخامس يرفض هذا الادعاء ويدحضه . ولعل المحاكمة الشهيرة التى جرت للأسقف السكندرى ديوسقورس فى المجمع الخلقيدونى ، والإهانات التى وجهت إليه ، وبلغت حسب رواية بعض المصادر إلى حد الاعتداء ، خير شاهد على ما نذهب إليه ، وحسبنا ما قاله أسقف سلوقية أمام هذا المجمع

دليلا مؤكداً ، يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه.. ويدعى هذا القديس أنه يدافع عن العقيدة الحقة . غير أنه يعتبر شخصه فوق الله وفوق رسل روما والقسطنطينية وأنطاكية وجميع الأساقفة الآخرين .. فإذا هزمت الإسكندرية وقضى ديوسقورس نحبه ،فإن يظل العالم بلا أسقف»!!

والأسقف السلوقى بقوله هـذا يعبر بصراحة مفرطة عن هـذا الصراع الرهيب الذى دار بين الكنائس من أجل الزعامة،ويخص بالذكر عُمُداً ذلك الصراع : روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية ويجعل بيت المقدس فى زمرة «الأساقفة الآخرين» الذين يتعالى عليهم جميعاً أسقف الاسكندرية .

وقد قنعت كنيسة بيت المقدس بما حققته فى منتصف القرن الخامس ، وأكده جوستنيان فى القرن السادس . ورضيت بقدرها ذاك . حتى كان عام ٦٣٨ عندما فتح المسلمون فلسطين ، وسلم صفرونيوس بيت المقدس بنفسه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لتبدأ كنيسة البيت المقدس بذلك رحلة جديدة فى تاريخها عبر العصور الوسطى .

الحواشى

(١) عن اررواقية انظر : دكتور عثمان أمين : الفلســـفة الرواقية . وراجع أيضا :

Cary; A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

ويقول ول ديورنت : ان فكرة المسيح الاله قد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية .. ومن ثم كان فى وسع العلم الوثنى أن يحتضنها ويرضى بها . ان المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها . ذلك ان العقل اليونانى المحتضر عاد الى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان على السياسة ، أداة الآداب والطقوس المسيحية (قصة الحضارة : المجلد الثالث الجزء الثالث . ص ٢٧٥ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن فلسفة القديس توماس الاكوينى انظر :

Knowles : The evolution of Medieval Thought, pp. 255-268; De Wulf : Philosophy and civilization in the Middle Ages, p. 81 sqq; Dawson : Religion and the rise of Western Culture, p. 171 sqq. Hughes : A history of the Church, vol. 2 pp. 423-434.

وراجع أيضا دكتور حسن حنفى حسين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى : أوغسطين انسلم . توماس الاكوينى . — وكذلك يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط . — وأيضا عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى .

(٣) عن أوريجن السكندرى والأوريجنية انظر :

EVSEB. hist. eccl. VI, 2-4, 8, 16, 19, 23, 24, 27, 30, 32, 34, 39. Shiel : Greek thought and the rise of Christianity, Copleston : A history of Philosophy, vol. 2- Mediaeval Philosophy, part I Ware. The Orthodox Church, 72-73; Chadwick, the Early Church, 100-114, 184-9, 209-210, 215.

(٤) كا نمن البدهى أن تنتشر دعوة اريوس السكندرى القائلة بخلق المسيح ، وتلاقى رواجا كبيرا فى الأوساط السورية ومنطقة آسيا الصـــغرى التي برز فيها تأثير المدرسة الانطاكية العقلانية ، دون أن تحظى دعوته بمثل

هذا الرواج في الاسكندرية التي ينتمي اليها ومن الجدير بالذكر أن أريوس تلقى تعليمه اللاهوتي في مدرسة انطاكية ، وكان زميلا ليوساب Eusebius أسقف نيقوميديا الذي تولى زعامة الفريق الأريوسي بعد وفاة أريوس سنة ٣٣٦ ، حتى لقد أصبح من المألوف القول بأن المدرسة الانطاكية هي موطن المعتقد الاريوسي ، وان لوسيان رأس هذه الكنيسة ، هو الأريوسي قبل اريوس نفسه . ويصفه شيخ مؤرخي الكنيسة يوساب القيساري بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية . انظر :

EVSEB. hist. eccl. VIII. 13 ; IX. 6. Hier : Vir. ill. 77; Knowles, op. cit., pp. 3-15; Lietzmann : From Constantine to Julian, a history of the early Church, p. 107; Downey : A History of the Byzantine Empire, I. p. 55; Dictionaire de Théologie Catholique, vol. I art Arian. A Dictionary of Christian Biography, vol. I. art Arian.

وراجع للباحث : الدولة والكنيسة ، الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٥) انقضى وقت طويل قبل أن يجذب المسيحيون — كطائفة جديدة — نظر السلطة الامبراطورية ، ذلك ان الحكومة الرومانية ظلت لفترة ليست بالقصيرة تنظر الى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود انظر :

Painter, A history of the Middle Ages, 284-1500, p. 13.

(٦) انظر :

Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 395, Chadwick, op. cit. pp. 21-22.

(٧) انظر : EVSEB. hist. eccl. III. 33, IV. 9.

(٨،٩) يتضمن كتاب التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica الذي وضعه يوساب القيساري ثبتا كاملا بأسماء رجال الاكليروس وأساقفة الكنيسة الذين لقوا مصرعهم على امتداد القرون الثلاثة الأولى ومطلع القرن الرابع للميلاد ، هذا بالاضافة الى ما ذكرناه بالمتن عن الفصل الخاص بشهداء فلسطين . انظر :

Hist. eccl. II. 23, 25. III. 27, 32, IV, 16; V. 1, 21; VI. 1, 28, 39 VII. 1, 10, 12, 15, 32, VIII. 1-13; IX. 6-8.

أما لاكتانتيوس فقد ترك رسالة « عن موت المضطهدين » De Mortibus persecutorum تحدث فيها تفصيلا عن الأساليب العنيفة التي اتبعها الأباطرة الرومان في اضطهاد المسيحيين وأوضح بأسلوب تراجيدي ساخر في الوقت ذاته النهايات المحتومة التي تعرض لها هؤلاء الأباطرة الوثنيون المضطهدون .

(١٠) عن الأسباب التى دعت الى عقد هـــذا المجمع والظروف التى احاطت به ، وقراراته والرســـالة التى بعث بها الرســـل منه الى مختلف الكنائس .. راجع أعمال الرسل ١٥ وأيضا :

Bullough, Roman Catholicism, p. 163; Ware : The Orthodox Church, p. 24.

(١١) عرفت الكنيسة منذ تاريخها المبكر المجامع المحلية أو المــكانية وهى التى تعقد فى عاصمة الأقليم تحت زعامة الكنائس التى حظى أساقفتها بمرتبة المطرانية ، وكانت روما والاســـكندرية وانطاكية فى مقدمة هـــذه الكراسى . وقد ساعدت السياسة العدائية التى اتبعتها الدولة الرومانية الوثنية تجاه المسيحية على تعميد هذا الاتجاه ، فقد كانت الامبراطورية تنظر الى المسيحية نظرة كلية ، ولم يكن يعنيها أمر الخلاف العقيدى الذى انتشر بين المسيحيين وأنفسهم منذ القرن الأول ، والذى كانت تعالجه هذه المجامع المحلية . فلما مالت الدولة الى المسيحية بعد ذلك زمن قســـطنطين ، ثم أصبحت هى عقيدتها الرسمية زمن ثودوســـيوس الأول فى آخريات القرن الرابع ، وارتبطت الكنيسة بالدولة ارتباطا وثيقا ــ كما يذكر مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس .. سقراط ــ استن قسطنطين لخلفائه سنة عقد المجامع المسكونية التى بلغت سبعة مجامع فى الكنيسة الشرقية ما بين عامى ٣٢٥ ، ٧٨٧ .

(١٢) انظر : EVSEB; hist. eccl. V. 23.

(١٣) للوقوف على آراء المؤرخين ، القدامى والمحدثين والمناقشـــات التى دارت حول « مسيحية قسطنطين ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة . الجزء الأول . الفصل الثالث .

(١٤) يتحدث يوساب القيسارى باسهاب كامل عن تشييد كنيســـة القيامة ، ويصفها وصفا دقيقا ، ومدى تفوقها على سائر الكنائس الأخرى فى العالم المسيحى ، والرسائل التى بعث بها قســـطنطين الى عمـــاله فى الولايات والأسقف مكاريوس يحدثهم فيها عن بناء هذه الكنيسة واعتزازه بها

EVSEB, Vita Const. III. 42-46.

(١٥) انظر للمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلة :

EVSEB. Vita. Const. III. 42-46. Sozom. hist. eccl. II. 2; Socrat. hist. eccl. I. 17.

(١٦) يذكر يوساب القيسارى Hist. eccl. VI. 11 ان أول حاج الى بيت المقدس الأسقف الكبادوكى اسكندر فى عام ٢١٢ .

(١٧) انظر :

Ware, The Orthodox Church, p. 145.

(١٨) عقب صدور قرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ بادانة الاريوسية ، واعدام العمل الذى وضعه اريوس والمسمى Thalia ، والذى يتضمن فكر اريوس والمبادىء الاريوسية الأصلية ، اصبح المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى معرفة حقائق المعتقد الاريوسى ، هى كتابات أساقفة النيقية وهى بطبيعتها ما جاء فى الثاليا هذه من كتابات اثناسيوس أسقف الاسكندرية (٣٢٨ — ٣٧٣) والد أعداء الاريوسية ، وكذلك من الشذرات المتفرقة التى خلفها مؤرخو الكنيسة المعاصرون . انظر :

Athanas. Orat. C. Arian. I-IV, depos. Ar., de decr. III. 6. Sozom. hist. Eccl. I, 15; Theod. Hist. eccl. I, 3, 4, 5. Dictionary of Christian Biography, Art. Arianism. Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. I. Art. Arianism.

(١٩) انظر : THEOD. hist. eccl. I, 4.

(٢٠) انظر :

Socrat. hist. eccl. II. 8; Sozm. hist. eccl. III. 5.
Hefele, History of the Councils, II. pp. 56-82.

(٢١) انظر :

EVSEB. Vita Const. IV. 43; Socr. hist. eccl. I. 33; Sozom. hist. eccl. II. 27; Theod. hist. eccl. I. 28-29. Hefele, op. cit. II. p. 26.

(٢٢) تم نفى اريوس وصحبه الى الليريا بعد أن أدينت الاريوسية فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ غير أنه لم تمضى على ذلك ثلاث سنوات ، حتى كان الامبراطور قد أصدر أوامره بالعفو عن يوساب النيقو ميدى وثيوجنس أسقف نيقية ، المؤيدين لاريوس ، وعودتهما الى كنيستيهما ، كما دارت المراسلات بين قسطنطين واريوس ، وعاد اريوس ويوزيوس الى القسطنطينية بعد تدشينها فى عام ٣٣٠ وقدما للامبراطور وثيقة ايمان عدها قسطنطين « قويمة » ، رغم انها جاءت غامضة بل وخالية تماما مما تضمنه قانون الايمان النيقى ، خاصة عبارتى « مساو للاب فى الجوهر » Homoousius « ومولود قانون مخلوق » الا أن الامبراطور رغبة منه في احلال السلام ،

وفى الوقت ذاته لعدم وعيه بحقيقة المسائل اللاهوتية « صدق على هذه الوثيقة ، دون الرجوع الى رأى الاكليروس ، بعد أن سلمت له الكنيسة فى جدتها بالتدخل فى أدق ما يتعلق بشئونها الداخلية . انظر نص وثيقة الايمان الخاصة باريوس ويوزيوس فى
SOCR. hist. eccl. I. 26.

(٢٣) انظر :
EVSEB. Vita. Const. III. 3; Socr. hist. eccl. I. 9.

(٢٤) تناول الباحث بالتفصيل كل هذه الأحداث فى كتابه : الدولة والكنيسة . الجزء الثانى اثناسيوس .

(٢٥) راجع كل هذه المجامع بالتفصيل فى الجزء الثانى من الدولة والكنيسة للباحث .

(٢٦) انظر :
SOCR. hist. eccl. II. 20, 23, SOZOM. hist. eccl. III. 11
THEOD. hist. eccl. II. 6, Hefele, op. cit. pp. 86-176.

(٢٧) انظر :
SOCR. hist. eccl. II. 24. SOZOM. hist. eccl. III. 22.
ATHANAS, hist. Arian. 25, apol. C. Arianos, 57. Hefele, op. cit. II. p. 184.

(٢٨) انظر :
SOCR. Hist. Eccl. II. 24, 8.
GENN. de vir. ill. c. 17.

(٢٩) انظر :
Hefele, op. cit. II. pp. 418-419.

وكان روفينوس من أشد الناس تحمسا لاوريجن والاوريجينية . وقام بترجمة عدد من أعماله الى اللاتينية ، وكان هذا كافيا لاتهامه بالهرطقة من جانب أصدقاء جيروم الذين كانوا يقيمون فى روما ، هذا بالاضافة الى أن ثيوفيلوس أسقف الاسكندرية كتب الى انسطاسيوس الأول ، أسقف روما (٣٩٩ — ٤١٠) يوضح له هرطقة أوريجن ، ويبين له ضرورة ادانة روفينوس . لان ذلك يتضمن بالتالى الادانة لاوريجن نفسه . وقد كتب روفينوس دفاعا عن نفسه قدمه الى البابا انسطاسيوس سنة ٤٠٠ ذكر فيه ان ايمانه يتفق مع ما بشرت به كتب بيت المقدس . انظر دفاعه عن نفسه ورسالة أسقف روما الى يوحنا أسقف بيت المقدس ودفاعه عن اوريجين وجداله مع جيروم ورد هذا عليه فى
Nicene and post Nicene Fathers, vol. III pp. 420-541.

وللمزيد من التفاصيل عن الجدل حول الاوريجينية . انظر :
Chadwick, op. cit. pp. 209-210.

(٣٠) لم يعدم أوريجن المدافعين عنه ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى ، وديديموس Didymus الضرير ، الذى كان من اشهر مثقفى عصره ، وكان آخر من تولى رئاسة مدرسة اللاهوت السكندرى . ثم يأتى بعد ذلك آباء اللاهوت الكبادوكيون الثلاثة ، جريجورى النازيانزى وجريجورى القيسارى وباسليوس أسقف قيسارية الكبادوك ، وروفينوس المؤرخ الكنسى . أما الأسقف السكندرى اثناسيوس ، فقد كان يقف الى جانب أوريجن وان كان بشىء من التحفظ .

(٣١) للمزيد من التفاصيل عن البلاجية وردود الكنيسة عليها انظر :

Encyclopaedia of Religion and Ethics, art. Pelagianism The Catholic Encyclopedia, art. Pelag.

The new Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge, art. Pelag. Leff, Medieval thought from St. Augustine to Ockham, pp. 52-54.

(٣٢) ومن المعروف ان المشكلة البلاجية انتقلت بعد ذلك بالفعل الى الغرب فعقد مجمعان كنسيان فى قرطاجة وميلفى Melevis فى نوميديا فى عام ٤١٦ ، أعادا من جديد ادانة البلاجية فى شخص كايلستوس تلميذ بلاجيوس ، ثم رفعوا الأمر الى البابا انوسنت الأول بالاضافة الى ما بعث به اليه يوحنا أسقف بيت المقدس ، وقد سعد أنوسنت الثالث بالنغمة التى خاطبه بها رجال الاكليروس فى أفريقيا ونوميديا ، فأظهر ارتياحه لادانة بلاجيوس . غير أن البابا زوسيموس ZOSIMUS أعاد من جديد نظر القضية وأعلن براءة بلاجيوس . غير انه اضطر الى التراجع عن رأيه فيما بعد حيث أدينت البلاجية من جانب الكنيسة والدولة . للمزيد من التفاصيل عن مجمعى بيت المقدس واللد ، والدور الذى لعبه يوحنا ، وما تبع ذلك من احداث .. انظر :

Jones, Later Roman Empire, vol. I, 209; Hefele, op. cit. Vol. II pp. 448-454.

Hughes, A history of the Church, vol. II, pp. 13-18.

Laistner, Thought and letters in Western Europe, pp. 61-63.

Leff, Medieval thought from St. Augustine to Ockham, pp. 52-54.

(٣٣) راجع رسالة روما ١٥/١٩ :

EVSEB, hist. eccl. II. 14. III. 4; VI. 25.
HIER. de vir. ill. c. I.

(٣٤) انظر : Ware, op. cit. p. 30.

(٣٥) انظر : EVSEB. hist. eccl. V. 8, 11.

F. Jackson : The history of the Christian Church from the Earliest times to the death of St. Leo the Great. pp. 269-270. CMH. vol. IV. part 2. pp. 57, 244, 265, 267. Vasiliev, A history of Byzantine Empire, vol. I p. 45.

Latourette : Expansion of Christianity, vol. I. p. 348.

وللمزيد من التفاصيل عن مدرسة الاسكندرية انظر للباحث الدولة والكنيسة : الجزء الثاني الفصل الأول .

(٣٦) انظر :

Creed ; Egypt and the Christian Church (in Legacy of Egypt) p. 300.

(٣٧) انظر رسالة بطرس الأول ٥/١٣

EVSEB. hist. eccl. II. 15, 16.

HIER. de vir. ill. c. 1, 8.

(٣٨) انظر : SOCR. hist. eccl. III, 1, 17; VI, 3.

Sozom. Hist. Eccl. VI. 17. VIII. 2.

THEOD. hist. eccl. III. 17.

(٣٩) انظر أعمال الرسل ١١/٢٠ ، ٢٦

EVSEB. hist. eccl. II. 1.

HIER. de vir. ill. c. I.

CMH. vol. IV. part. 2 pp. 212-214.

Vasiliev. op. cit. I. p. 116.

(٤٠) انتشرت المسيحية الاريوسية بين القبائل الجرمانية ـ عدا الفرنجة ـ فى أوائل الأربعينيات من القرن الرابع ، حيث كان أحد رجال الدين فيهم وهو أولفيلا Ulfilas حاضرا لمجمع التدشين الذى عقد فى انطاكية سنة ٣٤١ وهو يعد من اشهر المجامع التى عقدها الاريوسيون فى عهد الامبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ ـ ٣٦١) . واكد ذلك أيضا بتقبله لرسوم الايمان الاريوسى الصادر عن مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ . والذى اقر فى نيقا Nice فى نفس العام ثم القسطنطينية سنة ٣٦٠ . انظر :

THEOD, hist. eccl. IV. 33.

SOCR. hist. eccl. II. 41; IV. 33.

SOZOM. hist. eccl. IV. 24; VI. 37.

وراجع للباحث : العالم البيزنطى (ترجمة) ص ١٠٠ حاشية ١ .

(٤١) انظر : يوحنا ١/٤٠ — ٤٢

EVSEB. hist. eccl. III. 1.

HIER. de vir. ill. c. 7.

Nicene and post-Nicene Fathers, vol. I. p. 132 n. 3, 4.

Hussey : The Byzantine World, p. 17.

وقارن للباحث الترجمة العربية لهذا الكتاب حاشية ١ ص ١٠٧ و ١٠٨

Baynes & Moss : Byzantium, p. 128.

(٤٢) انظر رسالة غلاطية ١/١٩ :

EVSEB. hist. eccl. II. 1.

HIER, de vir. ill. c. 2.

Nicene and post-Nicene Fathers, vol. I. pp. 99 n. 14.

(٤٣) انظر أعمال الرسل ١/٢٣ — ٢٦ ، ٦/١ — ٧ .

EVSEB. hist. eccl. II. 1.

Bainton : History of Christianity, vol. I p. 86.

(٤٤) انظر أعمال الرسل ١٥ .

(٤٥) « واما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعا فهى حرة » (غلاطية ٤/٢٦) .

« بل قد أتيتم الى جبل صهيون والى مدينة الله الحى أورشليم السماوية ، والى ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة ابكار مكتوبين فى السموات والى الله ديان الجميع والى أرواح ابرار مكملين » (عبرانيين ١٢/١٢ — ٢٣) .

EVSEB. hist. eccl. (Martyrs of Palestine, c. 11.

(٤٦) انظر :

THEOD. hist. eccl. II. 22.

(٤٧) انظر :

Hefele, op. cit. vol. I. pp. 388, 404.

Percival : The seven ecuminical councils. (Nivene and post-Nicene Fathers. vol. XIV. pp. 15-16, 178-179.

(٤٨) انظر :

Chadwick : op. it. pp. 131-132.

Ware, op. cit. p. 30.

(٤٩) انظر :
Nicene and post-Nicene Fathers, vol. II. p. 52 n. 1.

(٥٠) تولى اكاكيوس أسقفية قيسارية سنة ٣٤٠ بعد وفاة شيخ مؤرخى الكنيسة وأسقف قيسارية يوساب وكان اكاكيوس تلميذا له ومن أشد الناس تعلقا به . وان كان قد ذهب خطوات بعيدة عن طريق أستاذه فى اعتناق الاريوسية ، وسرعان ما تولى رئاسة الفريق الاريوسى اليوسابى بعد وفاة يوساب النيقوميدى سنة ٣٤٢ ، وكان هذا الأخير قد اعتلى كرسى أسقفية القسطنطينية سنة ٣٣٩ . وقد لعب اكاكيوس دورا بارزا فى المجامع الكنسية التى عقدت فى عهد قسطنطيوس خاصة مجمع انطاكية سنة ٣٤١ وسلوقية سنة ٣٥٩ . انظر :

SOCR. hist. eccl. II. 4, 40, 42.
Sozom. hist. eccl. II. 2, 5 IV. 23.
THEOD. hist eccl. II. 22, 24.
HIER. de vir. ill. c. 98.

(٥١) انظر : SOZOM. hist. eccl. IV. 25.

(٥٢) انظر : Socr. hist. eccl. VI. 25 غير أنه من المعروف أن عددا من الأساقفة قد فعلوا ذلك أيضا ، بالالتجاء مباشرة الى السلطة الزمنية ممثلة فى الامبراطور . وهناك من الأمثلة ما يدل على ذلك ، فقد لجأ الدونا تيون سنة ٣١٥ الى الامبراطور قسطنطين وهو بعد سيد الغرب ليفصل فى النزاع القائم بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة ، بعد أن رفضوا الانصياع لقرارات مجمع روما سنة ٣١٣ وآرل سنة ٣٢٤ . وكذلك فعل أيضا هيلارى Hilarius أسقف بواتييه عندما كتب دفاعا الى الامبراطور قسنطيوس Apologia ad Constantium Imperatorem ونهج نفس السبيل اثناسيوس الأسقف السكندرى عند ما شخص بنفسه الى القسطنطينية لعرض شكايته على الامبراطور قسطنطين بعد أن أدرك ما بيبته له أعضاء مجمع صور المنعقد سنة ٣٣٥ ونياتهم العدائية ضده ، كما أنه كتب أيضا دفاعا من نفسه للامبراطور قسطنطيوس بعد ذلك Apologia ad Constantium وقد نصت الفقرة الأخيرة من القانون السادس لجمع القسطنطينية على تحريم استئناف القضايا المتعلقة برجال الدين أمام الامبراطور أو المحاكم المدنية انظر :

Hefele. op. cit. II. p. 366.

(٥٣) انظر :

SOZOM. hist. eccl. IV. 30; VII. 2.

(٥٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة : انظر :

SOCR. hist. eccl. II. 6, 12, 16, 38, 42, 45, IV. 2.
Sozom. hist. eccl. III. 3, 9; IV. 2. 20, 26, 27.
Dictionaire de theologie Catholique, art. Mac.
Encyclopeadia of Religion and ethics, art. Mac.
The New Schaff-Herzog encyclopeadia of religions Knowledge, art. Mac.

(٥٥) انظر :
SOCR. hist. eccl. V. 8; SOZOM. hist. eccl. VII. 9.
Percieval : op. cit. vol. XIV.
HEFELE, op. cit. II. p. 357.

(٥٦) اعلن المندوب البابوى لوكنتيوس Lucentius فى الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ اعتراضه على هذا القانون ، وظلت روما ترفض الاعتراف بهذا الوضع الجديد الذى يخالف صراحة القانون السادس لمجمع نيقية ، وذلك حتى نجح الصليبيون فى احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وأقاموا فيها الامبراطورية اللاتينية ، وعندها سمح البابا انوسنت الثالث والمجمع اللاتيراتى الرابع سنة ١٢١٥ لبطريرك القسطنطينية باحتلال المرتبة الأولى بعد أسقف روما انظر :
Hefele. op. cit. II. pp. 538-9.

(٥٧) انظر : SOZOM. hist. eccl. VII. 7.
SOCR. hist. eccl. V. 8; THEOD. hist. eccl. V. 8.

(٥٨) يذكر يثودوريت Hist. eccl. V. 6 ان مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كان قاصرا فقط على أساقفة النصف الشرقى من الامبراطورية حيث وجه اليهم تيودوسيوس وحدهم الدعوة . ويعلل ثيودوريت ذلك بقوله، ان هذا النصف كان قد غرق حتى آذانه فى الجدل الاريوسى والفرق الأخرى المنشقة ، بينما آوى الغرب هادئا الى عقيدة نيقية ، حيث حافظ ولدا قسطنطين هناك عليها بعد وفاة أبيهما وكذلك فعل فالنتينيان الأول .

(٥٩) انظر : SOCR. hist. eccl. VII. 31, 32.
Genn. de vir. ill. c. 54.
Dict. theol. Cath. art. Nest.
Encycl. relig. Eth. art. Nest.
Jones, op. cit. vol. I. pp. 213-214.

(٦٠) نشب الصراع بين الأسقف السكندرى ثيوفيلوس ، وأسقف القسطنطينية يوحنا ذهبى الفم فى مطلع القرن الرابع ، نتيجة لما حسبه أسقف الاسكندرية تدخلا من جانب أسقف العاصمة فى شئون أسقفيته ، وتدخل الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) وزوجته الامبراطورة يودوسيا التى كانت تحمل العداء الكامل لأسقف العاصمة ، لحسم هذا الخلاف . وانتهى الأمر بعزل يوحنا ذهبى الفم ونفيه . انظر :

Socr. hist. eccl. VI. 2, 5, 9.
Sozom. hist. eccl. VIII. 2, 12, 13, 14, 16-19.
THEOD. hist. eccl. V. 34.

(٦١) انظر :
Chadwick, op. cit. p. 197.
Jones. op. cit. I. p. 214.
Hefele. op. cit. vol. II. pp. 355-6.

(٦٢) انظر :
SOCR. hist. eccl. VII. 34.
Jones. op. cit. vol. I. p. 214.
Chadwick, op. cit. pp. 197-198.

(٦٣) لمزيد من التفاصيل عن مجمع افسوس . انظر :
SOCR. hist. eccl. VII. 34.
Hefele, op. cit. vol. III. pp. 599.

(٦٤) انظر :
Jones. op. cit. vol. I. pp. 215, 219-221.

(65) The early Church, p. 203.

(66) Vasiliev. op. cit. vol. I. p. 105.
Baynes & Moss, op. cit. p. 99.

(67) CMH. vol. IV. part. 2 p. 107.
Hefele. op. cit. vol. III.
Percival. op. cit. vol. XIV.

(٦٨) انظر :
Ware, op. cit. p. 34.

(٦٩) انظر : CMH. vol. IV part, I. p. 19. ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور جوستنيان كان يعترف صراحة بالمركز المتفوق لأسقفية روما على بقية الكنائس الرسولية . ويبدو هذا واضحا فى رسائله وقوانينه . ففى

رسالته الى البطريريك ابيفانيوس يقول « ندين نسطور ويوطيخا ، محافظين بكل أسلوب على وحدة الكنائس المقدسة مع بابا وبطريرك روما القديمة ، لأننا لا يمكن أن نتسامح مطلقا مع أى نظم كنيسية تقر بعيدا عن قداسته ، باعتباره راس كل رجال الله المقدسين » . وجاء فى نوفلاه الشهيرة رقم ١٣١ والتى صدرت فى عام ٥٤٥ « تطابقا مع ما اتفق عليه مسبقا (المجامع المسكونية الأربعة) نعلن : البابا المقدس لكرسى روما يعتبر الأول بين كل رجال الدين ، وان بطريرك القسطنطينية المبارك — روما الجديدة — يأتى ترتيبه الثانى بعد كنيسة روما المقدسة الرسولية » . انظر :

CMH. vol. IV. part. I pp. 436-7.

ومن المعروف ان جوستنيان كان رومانيا بالقلب والقالب ، حتى عده بعض المؤرخين آخر الاباطرة الرومان انظر :

Hussey, op. cit. p. 21.

ومن ثم كان لا يجد فى القسطنطينية (روما الجديدة) عوضا كاملا عن روما القديمة على التيبر ولهذا كان حريصا على استعادتها من أيدى القوط الشرقيين ، وقد تحقق له ذلك بعد حرب طويلة معهم دامت عشرين عاما (٥٣٤ — ٥٥٥) .

(٧٠) كلمة Lavra مشتقة من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة . وتأتى فى المخطوطات العربية القديم باسم السيق وجمعها «أسياق» . انظر : الأب متى المسكين : الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص ٤٥ .

(٧١) للمزيد من التفاصيل عن الحركة الرهبانية فى فلسطين انظر :

Sozom. hist. eccl. III. 14, V. 10.

وقارن :

Pallad : hist. Laus. trans. by Budge in Stories of the holy Fathers.

Baynes & Moss : op. cit. pp. 138-139.

Hussey : op. cit. pp. 107 n. 1, 109.

وراجع الترجمة العربية « العالم البيزنطى للباحث ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، حاشية ١ ، ٢ ، ٣ ص ٢٨١ .

(٧٢) كان يشد من أزر انسطاسيوس فى سياسته العقيدية المؤيدة للمونوفيزية لاهوتيان هما فيلوكسنوس Philoxenus وهو سورى من منبج Hierapolis وسفروس Severus البيسيدى . وكان مقدونيوس أسقف القسطنطينية خلقيدونيا متعصبا ، ومن ثم تبودلت الاتهامات بينه وبين الامبراطور ، فأعلن انسطاسيوس أن أسقفه يدين بالنسطورية ، ورد عليه الأسقف التهمة بأن الامبراطور يوطاخيا . وفى ٦ أغسطس ٥١١ تم عزل مقدونيوس ونفيه ، وفى السنة التالية عزل فلافيان Flavianus أسقف أنطاكية .

انظر :

Jones : op. cit. vol. I pp. 222-3, 233-4.
Vasiliev : op. cit. vol. I p. 111.
Chadwick : op. cit. pp. 206-208.

(٧٣) لمزيد من التفاصيل عن سياسة جوستنيان العقيدية انظر :

Ure : Justinian and his age, pp. 84, 599.
Vasiliev : op. cit. I. pp. 148-154.
Jones : op. cit. I. pp. 285-287, 296-298.
Chadwick : op. cit. pp. 208-209.
CMH. vol. IV. part. I. pp. 436-8; part. II. pp. 126-128.

(٧٤) فى عام ٥٩١ تم اغتيال الملك الفارسى هورميزدا ، ووجد ابنه كسرى نفسه عاجزا عن الاحتفاظ بعرشه فى مواجهة فاران Varanes الذى تمرد فى ميديا . واضطر كسرى ابرويز للهروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة الامبراطور البيزنطى ، وعرض عليه التنازل عن ميافارقين Martyropolis ودارا Dara والتخلى عن ادعاءاته فى أرمينية ، مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد قبل موريس ذلك واوفى بما عاهد عليه ملك الفرس . وفى سنة ٦٠٢ تمردت القوات الرومانية ضد الامبراطور عند الدانوب ، يتزعمها فوقاس ، الذى عاد الى القسطنطينية ، وقتل موريس مع أبنائه الخمسة ، رغم فرارهم الى الشاطىء الاسيوى واحتمائهم بكنيسة الشهيد أوتونوموس Autonomus ومن ثم أعلن الملك الفارسى استياءه لمقتل حليفه ، وساق جيوشه داخل الأراضى الامبراطورية ، معلنا عزمه على الانتقام من فوقاس . انظر :

Jones : op. cit. vol. I. pp. 311, 315-6.
Vasiliev : op. cit. vol. I. pp. 174-175.
CMH : vol. IV. part. I. pp. 29-30.

(٧٥) يحلو لبعض المؤرخين أن يخلعوا على حملات هرقل ضد فارس صفة الصليبية . ولعل ذلك يعود الى ما واكب هذه الحمـــلات من مظاهر وطقوس دينية ، شارك هرقل بنفسه فى عدد منها ، فقد انقطع عن دنيـــا الناس عدة أيام آوى خلالها الى أحد الأديرة . كما أنه وضع ايقونة العذراء فى مقدمة جيوشه ، وأحاط به عند خروجه فى حملته الأخيرة عدد كبير من رجال الاكليروس . هذا بالاضافة الى الجهود الكبيرة التى بذلتهـــا الكنيســـة فى العاصمة وبطريركها سرجيوس ، سواء بتوفير الأموال اللازمة لهذه الحرب ، أو قيام البطريريك بدور فعال أثناء حصار العاصمة من جانب الآفار ، كل هذا بالطبع الى جانب الاهتمام الواضح بعودة صليب الصلبوت الى مكانه فى بيت المقـــدس .

انظر : Hussey : The Byzantine World, p. 23.

والترجمة العربية ص ١٣٠

(٧٦) للمزيد من التفاصيل عن المونوثلية وسياسة هرقل العقيدية ازاء الولايات الشرقية : انظر :

Dictionaire de théologie Catholique, vol. X part. 2 art. mono.

Encyclopeadia of religion and ethics, art. Mono.

The New Schaff-Herzog encyclopedia of Religious Knowledge, Art. Mono.

Baynes & Moss : op. cit. p. 103.

Vasiliev : op. cit. Vol. I. pp. 222-223.

(٧٧) انظر :

Hefele : op. cit. vol. II. p. 69.

المصادر والمراجع

اولا — المصادر

— Ante — Nicene Fathers, ed. by A. Roberts & J.D. onaldson, Michigan 1892 sqq.

— ATHANASIUS : — A pologia contra Arianus; Nicene IV 2, 100-147 (= P.G. XXV 248-409).

— Depositio Arii : Nicene IV 2, 69-71 (= P.G. XXV 1, 691-695).

— Historia Arianorum ad Monachos, Nicene IV 2, 270-302 (= P.G. XXV 696-796).

— Orationes Contra Arianos : Nicene IV 2, 306-447 (= P.G. XXVI 12-525).

— EUSEBIUS : — Historia Ecclesiastica : Nicene I 2, 73-387 (= P.G. XX 45-906).

— Vita Constantini : Nicene I 2, 473-580 (= P.G. XX 905-1232).

— GENNADIUS : — De viris illustribus : Nicene III 2, 385-402.

— HIERONIMUS : — De viris illustribus : Nicene III 2, 359-384 (= P.L. XXIII 2, 601-720).

— LACTANTIUS : — De mortibus Persecutorum, Ante Nicene, VII, 301-322.

— Nicene and post : Nicene Fathers of the christian church, ed. by Philip Schaff & Henry Wace, 14 vols. Michigan 1891 sqq.

— PALLADIUS : — Historia Lausiaca, trans. by Budge in (stories of the holy fathers), London 1934.

— RUFINUS : — Historia Ecclesiastica, P.L. XXI 467-538.

— SOCRATES : — Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 1-178 (= P.G. LXVII 23-842).

— SOZOMENOS : — Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 239-427 (= P.G. LXVII 843-1630).

— THEODORETUS : — Historia Ecclesiastica : Nicene III 2, 33-159 (= P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانيا ــ المراجــع

— Bainton (R.), Early christianity, New Jersy 1960.

— Baynes (N.) & Moss (H.), Byzantium : an introduction to East Roman civilization. Oxford 1969.

— Book (A.E.R.), A history of Rome to 565 A.D. New York 1956.

— Bullough (S.), Roman Catholicism London 1963.

— Cambridge Medieval History, planned by S.B. Bury, 8 vols. Cambridge 1964.

— Cary (M.), A history of Rome down to the reign of Constantine. London 1954.

— Chadwick (H.), The early church. London 1974.

— Creed (J.M.), Egypt and the Christian Church (Legacy of Egypt). Oxford 1947.

— Copleston (F.), A history of philosophy, Medieval philosophy, pt. I, New York, 1962.

— Dawson (ch.), Religion and the rise of western culture. New York 1958.

— De Wulf (W.), Philosophy and civilization in the Middle Ages. New York 1953.

— Dictionary of christian biography, 4 vols. ed. by W. Smith & H. Wace. London 1877.

- Dictionnaire de théologie Catholique, 15 vols. Paris 1923.
- Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. New Jersey 1961.
- Encyclopaedia of Religion and ethics. 12 vols. London 1925 sqq.
- The new Schaff-Herzog encyclopedia of religious Knowledge, 13 vols. Michigan 1957 sqq.
- The Catholic Encyclopedia. 15 vols. New York 1913.
- Hefele (C.J.), History of the Councils of the church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark. Edinburgh 1972.
- Hughes (Ph.), A history of the church, vol. 2. London 1918.
- Hussey (J.M.), The Byzantine world. London 1967.
- Jackson (F.), The history of the christian church from the earliest times to the death of St. Leo the great A.D. 461. London 1909.
- Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. London 1964.
- Knowles (D.), The evolution of Medieval thought. Hong Kong 1976.
- Laistner (M.L.W.), Thought and letters in Western Europe, New York 1957.
- Lambert (W.), The canons of the first four general councils of the church, and those of the early local Greek Synods. London S.D.
- Latourette (K.S.), A history of the expansion of Christianity, 7 vols. New York 1937 sqq.
- Leff (G.), Medieval thought from S. Augustine to Ockham, Penguin Book 1958.

— Lietzmann (H.), From Constantine to Julian, a history of the early church. trans. by Bertram Lee Woolf. London 1960.

— Painter (S.), A history of the Middle Ages. New York 1954.

— Percival (H.R.), The Seven ecumenical Councils, Nicene vol. XIV. Michigan 1899.

— Shiel (J.), Greek thought and the rise of Christianity London 1968.

— Ure (P.N.), Justinian and his Age. Penguin Book, 1951.

— Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine empire, 2 vols. Madison and Milwauke 1964.

— Waddell (H.), The desert Fathers. London 1946.

— Ware (T.), The Orthodox Church. Penguin Book 1967.

— **حسن حنفى حسين (دكتور)**

نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : أوغسطين — انسلم — توماس الأكوينى . القاهرة ١٩٦٩ .

— **رأفت عبد الحميد (دكتور)**

— الدولة والكنيسة . الجزء الأول . القاهرة ١٩٧٤

— الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى . (تحت الطبع) .

— العالم البيزنطى . ترجمة وتقديم وتعليق . القاهرة ١٩٧٧

— **عبد الرحمن بدوى (دكتور)**

— فلسفة العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٢

— **عبده فراج**

— معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٩

— **متى المسكين (الأب) :**

الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار . القاهرة ١٩٧٢

— **يوسف كرم**

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط . القاهرة بدون تاريخ .

دولة الخوارج فى اليمن

بنو مهدى فى زبيد

٥٥٤ — ٥٦٩ هـ

الدكتور محمد أمين صالح

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

شهد اليمن ظهور دولة لم يطل حكمها أكثر من خمسة عشر عاماً ، أقامها بحد السيف ودعوى الدين أحد المتصوفة من رعية امارة بنى نجاح بتهامة ، من أهل قرية العنبرة عند نهاية وادى زبيد قرب البحر ، هو أبو الحسن على بن مهدى ابن محمد الحميرى .

فقد نشأ على بن مهدى هذا نشأة دينية على يشةطريقة والده فى العزلة والتمسك بالصلاح . حفظ القرآن والتفسير والحديث فصار غزير المحفوظات . كما كان يلتقى فى مواسم الحج بمكة والمدينة مع علماء العراق ويتضلع فى معارفهم، ويعود إلى بلاده ليقوم بالوعظ والإرشاد بمساجد قرى ساحل زبيد . ولم يلبث أن اشتهر أمره بين أهل هذه القرى بما عرف عنه من فصاحة مع حسن الصوت وطيب النغمة وحلاوة الايراد مع دمعة لا ترقأ فى مقاتيه على مر الأيام(١) .

ويذكر المؤرخون عن على بن مهدى هذا بجانب كونه من رجال الدين ، « أنه كان يتحدث بشىء من أحوال المستقبلات فيصدق(٢) » ، فهو شىء كالرجم بالغيب يستهوى العامة ، فاستمال قلوبهم

وصلت أخبار ابن مهدى مسامع حكام زبيد كرجل صوفى تقى صالح ، ورعاية منهم وعناية كعادتهم فى إكرام رجال الدين صدر أمر باعفائه[٣] من خراج املاكه هو وأخوته واصهاره وكل من يلوذ به فى طريقة الصوفية .

صدر هذا الاعفاء عام ٥٣٦هـ/١١٤١ – ١١٤٢م على عهد القائد سرور الفاتكى الحاكم فى دولة بنى نجاح بتوجيه من « علم » والدة الأمير فاتك ابن منصور ، والتى عرفت بالحرة الحجاجة الصالحة .

وقد يكون على بن مهدى وعد مريديه بهذا الخير مسبقا عندما عزم وكتب إلى حكام زبيد راجيا أو طالبا الإحسان إلى جماعته الصوفية أسوة بفقهاء وعلماء زبيد . فأجابوه بالإعفاء من الضرائب بدلا من العطاء أو الصدقات . فصدق وعده وقوله ، إذ ما لبث أتباعه أن « أثروا واتسع حالهم وركبوا الخيل »[٤] وكانت هذه أولى الخطوات فى طريق القوة السياسية التى مضت قدما من بعد .

فلم يكد يمض عامان حتى عقد ابن مهدى حلفا على النصرة مع قوم أتوه من أهل الجبال ، فتوجه إليهم من تهامة ليجتمع حوله نحو أربعين ألفا ، هاجم بهم مدينة الكدراء عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ – ١١٤٤ م غير أنه تعرض للهزيمة على يد القائد اسحق بن مرزوق والى الكدراء .

ولا تفصح المصادر اليمنية عن الدوافع التى جعلت على بن مهدى يتخذ هذا المنحى السياسى فيقوم بالتحالف مع أهل الجبال ليشن الحرب على مدن تهامة . هل هى دفعة عنصرية قحطانية ضد حكام زبيد الأحباش ؟ أم هى حركة إصلاحية تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحظورات بما ذاع عن مفاسد المجتمع فى إمارة بنى نجاح على عهد الوزراء العظام ؟ يبدو أن الأمر الثانى أقرب إلى الاحتمال لما سنرى من أحكامه .

ثم لماذا لم يعتمد ابن مهدى على العرب من أهالى قرى تهامة كالعنبرة التى نشأ فيها ، وواسط والقضيب والأهواب والمعتق والغازة التى كان ينتقل

بينها وعرفه أهلوها، ولجأ إلى عرب الجبال المطلة على تهامة؟ هل رأى فى أهل السهول الدعة والاستكانة بعكس ما عليه أهل الجبال من حمية وشراسة؟ وهل استجاب له أهل الجبال لتصوفه أو شهرته الدينية، أم بدافع الطمع والغنيمة فى أراضى تهامة؟ تلك أسئلة تكشف عن دوافع حركة ابن مهدى ونوازع أتباعه المتباينة دينا ودنيا.

ومهما يكن من أمر فانه لم يستطع بعد هزيمة الكدراء البقاء بالجبال أكثر من ثلاث سنوات. إذ عاد يكاتب الحرة الصالحة بالعفو عنه والاذن له ولأتباعه بالعودة إلى ديارهم بخفارتها وفى ذمتها[٦]. ونرجح أن ابن مهدى ناشد العاطفة الدينية لدى هذه السيدة، «ففعلت له ذلك رغم معارضة رجال الدولة وفقهاء العصر».

وتتداعى لدينا أسئلة أخرى فى مسألة هذا العفو. لماذا طلب ابن مهدى العودة إلى دياره ولم يظل مع حلفائه فى الجبال؟ هل صادرت الدولة أراضيه وأراضى من التف حوله وتبعه عقابا على هجومهم على الكدراء فانقطعت عنهم الأموال، ومن ثم وجد حرجا من أهل الجبال فطلب العودة إلى الديار؟ وهل شمل طلب العفو تجديد الإعفاء الضريبى السابق؟

لانشك فى حدوث المصادرة وضيق ذات اليد بالنسبة للقوة المادية اللازمة لمثل هذه الحركة التى ينشدها ابن مهدى فسعى للعودة بامتيازاته السابقة بتعهد قدمه للحرة الصالحة بالتزام طريق الدين. وهكذا عاد على بن مهدى إلى بلاده عام ٥٤١ هـ/١١٤٦ - ١١٤٧م، وأقام يستغل أملاكه وهى مطلقة الخراج عدة سنوات «فاجتمع له من ذلك مال»[٧]. وبات ينتظر وقتا إذ كان يقول فى وعظه[٨]: «أيها الناس، دنا الوقت، أزف الأمر، كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عيانا». وما كان هذا الوعد للناس بالنسبة له معرفة بالمستقبل كما يشاع عنه.

ذلك أن ابن مهدى كان يرى نفسه ملتزما بتعهده السابق أمام الحرة الصالحة شخصيا دون غيرها من رجال إمارة بنى نجاح . فهو ينتظر وفاتها ليحل نفسه من لرتباطاته ، لينطلق فى حركته السياسية ويطبق ما ارتآه من مذهب . ولم يطل انتظاره أكثر من أربع سنوات . فما أن توفيت الحرة الصالحة بزبيد عام ٥٤٥ / ١١٥٠ حتى أصبح فى الجبال مرة ثانية عند الداسرمن بلاد خولان ثم ارتفع منه إلى حصن الشرف [٩] ليبدأ تنظيماته وحروبه ضد تهامة .

فمنذ عام ٥٤٥ / ١١٥٠ ولمدة تسع سنوات متواصلة شن على بن مهدى حربا متواصلة ضـــد دولة الأحباش فى زبيد . أخذت فى السنوات الست الأولى منها شكل غارات تخريبية على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال . وهدف ابن مهدى من هذه الغارات ارضاء خولان أهـل حصن الشرف بالغنائم . فكانت الغارة سريعة وخاطفة تبدأ فى الصباح الباكر على القرى تعمل الحرق والنهب ، وتعود بالأنعام والأسرى حتى أرهب وأرهب أهل البوادى وأخرب قراهم فتعطلت الزراعة وانقطعت التجارة [١٠] .

وهكذا كان ابن‌مهدى ينال كثيرا من ملك الأحباش بتهامة دون الالتقاء معهم فى معركة قد يهزم فيها كما حدث سابقا . فلم تزل امارة بنى نجاح قوية بتواجد القائد سرور الفاتكى وبمـا كانت ترسله من الحاميات فى المراكز المختلفة [١١] ، غير أنها لم يكن فى مقدورها مطاردة المغيرين حتى مواقعهم بالجبال ، أو إرسال جيش كبير للقضاء على ابن مهدى ذاته فى موقعه بحصن الشرف ، وذلك لعوامل استراتيجية خاصة بطبيعة المنطقة فصلها عمارة اليمنى فى ثلاث نقاط [١٢] :

أولا : مناعة موضع حصن الشرف ذاته وبكثرة أهله من خولان .

ثانيا : خطورة الطريق الوحيد المؤدى إليه . فهو وادى طويل ضيق بين جبلين « مسافة يوم وبعض يوم » يصل إلى أصل الجبل الذى فيه الحصن . ثم الصعود اليه « مسافة نصف يوم » .

ثالثا : اتصال مجرى هـذا الوادى عند هبوطه إلى تهامة بأرض حراج ، وهى أراضى واسعة كثيرة الأشجار والأعشاب تصلح مخبأ أو مكمنا طبيعيا للجيوش ، فكان المغيرون يكمنون فى تلك الحراج فى حالة الضرورة ، « فلا يوصل إليها ولا يقدر عليها » .

وسلك ابن مهدى فى عدائه للأحباش ناحية أخرى . فهو بنفسه ذهب إلى ذى جبلة عام ٥٤٩ / ١١٥٤ لمقابلة محمد بن سبأ بن أبى السعود بن زريع الحاكم فى اليمن الأسفل خلفا للصليحيين فى ذلك الوقت ، يستعديه على حكام زبيد وعاد من مسعاه فاشلا[١٣] . ولم يبين عمارة اليمنى رغم معاصرته ومقابلته[١٤] لابن مهدى أثناء تواجده فى ذى جبلة، سبب رفض الداعى محمد بن سبأ بن أبى السعود سعى ابن مهدى . ومرده نحن فى أمرين أساسيين : أولهما ، أن العداء التقليدى بين الصليحيين وبنى نجاح لم يعد من القوة التى كانت عليه من قبل . فقد انتقل الحكم من بيت الصليحى من حمير ، إلى آل زريع بن العباس ابن المكرم اليامى من همدان ، الذين حكموا فى عدن وأقاموا علاقات حسن جوار مع الأحباش فى زبيد . وثانيا : تعارض الأسس التى قامت عليها دولة بنى زريع مع تنظيمات ابن مهدى وحركته ، فبنو زريع هم دعاة الاسماعيلية ويدينون بالتبعية للخلافة الفاطمية التى تعادى أهل السنة عامة . فكيف يحالفون ابن مهدى وقد نحى فى تنظيماته منحى الخوارج كما سنرى فيما بعد .

لهذه الأسباب فشل ابن مهدى فى مسعاه فى ذى جبلة وعاد إلى مقره فى حصن الشرف يدبر أمرا آخرا ضد حكام زبيد هو اغتيال القائد سرور ، مقدرا حدوث الاضطراب الداخلى للتنافس المتوقع بين الرؤساء على منصبه . وفعلا نجح رجل من أتباع ابن مهدى فى قتل القائد سرور الفاتكى فى مسجده عند صلاة العصر يوم الجمعة ١٢ صفر ٥٥١ / ٦ أبريل ١١٥٦ « فانفتح على الدولة بعده باب الشر المسدود ، وانحل عقدها المشدود[١٥] » .

وفى الحال غير ابن مهدى من أسلوب المعركة . فقد ترك حصن الشرف وهبط إلى الداسر أقرب الجبال إلى زبيد . وبث أتباعه بين أهل السهول من عرب تهامة «فكان الرجل من أصحاب ابن مهدى يلقى أخاه أو قريبه من رعايا الحبشة فيفسده» ولم يزل الأمر كذلك حتى زحف ابن مهدى إلى زبيد فى عوالم لا تحصى[١٦] .

وقاومت زبيد الحصار نحو ثلاث سنوات متحصنة بسورها وصد الأهالى نحو اثنين وسبعين زحفا لابن مهدى ، وتكبد الفريقان خسائر متعادلة فى الأرواح . غير أن الضر والجوع من شـــدة الحصار وقلة الأقوات نال من الأهالى، ودفع اليأس بهم إلى طلب المساعدة من الامام الزيدى أحمد بن سليمان صاحب صعدة وأغروه بملك زبيد . فاشترط عليهم قتل أميرهم محمد بن منصور ابن فاتك آخر امراء بنى نجاح . ومع كل فقد عجز الشريف الزيدى عن نصرتهم على ابن مهدى ، وتركهم بعد ستة أيام يواصلون القتال بمفردهم حتى انهارت المقاومة ودخـــل ابن مهدى زبيد عنوة يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٥٤[٩٧] ٢ أغسطس ١١٥٩ .

تلك هى الأعمال العسكرية التى استطاع بها على بن مهدى أن يقيم لنفسه حكما أو دولة على أنقاض بنى نجاح فى زبيد ، لا تدين بالتبعية الروحية لأى من الخلافتين العباسية السنية فى بغداد أو الخلافة الفاطمية الشيعية بالقاهرة . فهى دولة مستقلة ذات تنظيمات خوارجية .

فقد أقام ابن مهدى حكمه على أساس دينى . فهو أولا من أهل السنة على المذهب الحنفى تضلع فى معارف علماء ووعاظ العراق . ثم اتخذ مسحة من مبادىء الخوارج مثل التكفير بالمعاصى والقتل بها ، وكذا قتل كل من يخالف اعتقاده من المسلمين واستباحة الوطء لسباياهم واسترقاق ذراريهم، وجعلهم دار حرب يحكم فيهم حكمه فى أهل دار الحرب[٩٨] .

كذلك كان ابن مهدى متطرفا فى أحكامه على رجال جيشه . فكان يحكم بقتل المنهزم فيهم أو من يشرب الخمر أو يسمع الغناء أو يقارف الزنى، أو من يتأخر منهم عن صلاة الجماعة ، أو يتأخر عن مجلس وعظه يومى الخميس والجمعة ، أو عن زيارة قبر أبيه . على أن أحكامه المدنية فى الرعايا كانت أخف وطأة[19] .

أما عن تنظيمات ابن مهدى فقد بدأ باعطاء ألقاب دينية سياسية لأتباعه مميزا بين أهل السهل وأهل الجبل ، مثل ما كان على عهد النبوة من مهاجرين وانصار . فأطلق على من صعد معه من أهل تهامة إلى حصن الشرف ، لقب المهاجرين ، وسمى أهل الحصن بالجبال بالأنصار . ثم طلب من كل فريق اختيار رجل منهم عينه نقيبا على طائفته. ونعت كلا منهما بشيخ الاسلام. وهذان وحدهما لهما حق الاتصال به ، فهما همزة الوصل بينه وبين كل من المهاجرين والأنصار، أما هو فقد احتجب عنهم جميعا[20] .

فهل كان هذا الاحتجاب سوء ظن منه بأتباعه وخوفاً على نفسه كما يقول عمارة اليمنى[21] حتى إنه نزع الخيل والسلاح منهم، ووضع الخيل فى اصطبلاته والسلاح فى خزائنه فإذا أراد الغزو أخرج إليهم ما يلزم من خيل وعدة[22] . أم أنه كما نرجح أراد أن يعطى الهيبة لشخصه والخضوع لأتباعه ؟ ونجح فى ذلك بأحكامه المدنية والعسكرية ، وبما أحاط به نفسه من القداسة والرهبة والجبروت ، ظهر فى صور متعددة للطاعة له والانقياد المطلق .

فهو مثلا يستطيع إذا شاء قتل نفر من جنده وهم لا يجرؤون على قتله دينا وعقيدة ! ! وإذا غضب على واحد من أكابرهم حبس نفسه فى الشمس وامتنع عن الطعام والشراب وقاطع أسرته ، ولا شفاعة له حتى يرضى عنه ابن مهدى من تلقاء نفسه ! ! . كذلك كان يمتحن إيمان فريق المهاجرين من أتباعه امتحانا عسيرا بأن يأمر الواحد منهم فيطيع، بقتل أبيه أو أمه ، أخيه أو ابنه، تأويلا منه لقول الله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد

الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . وأيضا تجبر حتى سيطر على أمور معاشهم بأن ألزمهم تسليم ما تغزل نساؤهم وبناتهم إلى بيت المـال ، والتزم هو بكسائهم جميعا[٢٣] .

وهكذا كان على بن مهدى يقود أتباعه بدعوى الدين حتى تمـكن من احتلال زبيد فى رجب عام ٥٥٤ هـ مسيطرا على تهامة . غير أنه لم ينعم طويلا بملكه إذ لم يلبث ان توفى فى شوال من نفس السنة ليواصل اولاده من بعده الحروب والأعمال العسكرية فى نجد اليمن .

خلف على بن مهدى أربعة من الأبناء هم : مهدى وعبد النبي وعبدالله واحمد . وينقل ابن الديبع[٢٤] الأقوال المختلفة عن تسلسل حكمهم . فرواية تقول ان الأول منهم هو مهدى ، ورواية اخرى تقول ان عبد النبى تولى تدبير المملـكة وأخوه مهدى قيادة الجيش . فى حين يذكره ابن سمره[٢٥] ان عبد النبي خلف اخاه مهدى بعد وفاته . اما عمارة[٢٦] وهو اقدمهم فيقول ان الأمر انتقل إلى مهدى ثم عبد النبي ثم إلى عبد الله ثم عاد إلى عبدالنبى . ويبدو ان خلافا قد حدث بين عبد النبى وأخيه عبد الله لم يفصح عنـه عمارة ، وهو خلاف كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وسوف نشـير إلى توقيته وأثره .

ويلزم ان ننظر إلى الأحوال السياسية فى اقليم الجبال باليمن الذى اعتراه التجزؤ وقتذاك . ففى الشمال كان الأئمة الزيديون يتناوبون السيادة فى صعدة ويمدون نفوذهم جنوبا إلى صنعاء وذمار حسب الظروف المواتية . وفى صنعاء ظهر بنو حاتم من همدان يحافظون على التوازن بين الزيدية فى الشمال والاسماعيلية فى الجنوب . اما عن دولة الصليحيين فى اليمن الأسفل وحتى عدن جنوبا

فقد انتقلت السيادة فيها من بيت الصليحى من حمير إلى بنى زريع من همدان الذين تقلدوا الدعوة للخليفة الفاطمى، مع وجود بعض جيوب من بقايا رجال الصليحيين فى حصون متفرقة.

تلك هى القوى السياسية التى سينازلها بنو مهدى بنجد اليمن فى محاولة لإقامة دولة من دول الانتحار العسكرى على أنقاض هؤلاء جميعا، لا تدين بالتبعية لأى من الخلافتين العباسية السنية فى بغداد، أو الفاطمية الشيعية بالقاهرة. فهى دولة خوارج عرضنا لمبادئها سلفا.

وتبدو لنا من دراسة حروب بنى مهدى التى أوردها المؤرخون فى روايات مجملة مختلفة ودون تسلسل تاريخى، استراتيجية معينة للسيطرة على اليمن الأسفل. فهم قد بدأوا غزواتهم نحو الجند كرأس حربة لتفصل ملك بنى زريع فى عدن ولحج وأبين بالسهول الجنوبية، عن بقية أملاكهم فى التعكر وذى جبلة وغيرها فى الجبال شمالا إلى نقيل صيد، مع تهديد مستمر لأهم معاقلهم فى عدن والدملوة، تمهيداً للسيطرة على تلك المناطق جميعا. كذلك لم يغفل بنو مهدى شأن العامل النفسى بجعل الناس فى رعب وفزع شديدين بما تحدثه غاراتهم من قتل ونهب وتخريب لأعدائهم المخالفين لعقيدتهم، وخاصة الفقهاء الذين كانوا يفرون من بطشهم، فأبدلهم من بعد أمنهم خوفا. وحقق بنو مهدى بهذه الاستراتيجية انتصارات مبدئية كاسحة.

بدأ مهدى بن على بن مهدى سلسلة من الحروب مبتدئا بالهجوم على اليمن الأسفل من الجنوب. ففى عام ٥٥٧ هـ قام بغارة استكشافية تخريبية على الجند وبواديها فقتل أهل القرى ونهب وأرعب[٢٧]. وفى العام التالى قام بالاستيلاء عليها إذ دخل الجند فى شوال ٥٥٨ هـ وأعمل القتل فى الأهالى من صغير وكبير ورماهم فى البئر التى فى المسجد ثم «حرق المسجد بمن فيه من الضعفاء والعواجز والعواكف والودائع والكتب والمصاحف»[٢٨]. ويقال إن الخلق سعت

وشفعت فى إيقافه . فقال : « قد استوجب النار لأنه قد خطب على منبره الاسماعيلية فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم . وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار »[٢٩] كذلك وقعت فى يد المهدى وبسهولة بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحريم وريشان من السلطان على بن أبى الفتوح الوليدى[٣٠] ، وتعز وصبر شراءاً من أحمد بن المنصور بن المفضل[٣١] .

ويضيف المؤرخون إلى أعمال المهدى الحربية غارته على لحج مرتين[٣٢] وأنه « قتل من أهلها عددا كبيراً وسبى الحريم والأموال الجزيلة » دون تحديد لتاريخ . ونرى حدوثهما إما فى نطاق غارته الاستكشافية الأولى فى الذهاب وعند العودة، أو فى نطاق الغزوتين المتتاليتين على الجند . وكلاهما بهدف واحد هو حماية للظهر وتهديد عدن تكتيكيا .

ومع كل فقد انتهى أمر هذا الطاغية المهدى بوفاته عقب عودته إلى زبيد بعد أعماله الأخيرة بالجند أواخر نفس العام وقبر مع أبيه فى مشهدهم بزبيد[٣٣] ليبدأ عهد وحروب الطاغية الثانى والأخير من بنى مهدى .

فقد واصل عبد النبى بن مهدى تنفيذ الاستراتيجية السابقة بأن خرج بجيش جرار عام ٥٥٩ /١١٦٣ - ١١٦٤) إلى جهة أبين، فأحرق وقتل وعاد إلى زبيد[٣٤] تاركا القيادة إلى أخيه أحمد بن مهدى الذى صمد وهاجم الجوة التى كان قد تجمع بها جيش الداعى عمران بن محمد بن سبأ. فانهزمت قوات بنى زريع فى وقعة مشهورة فى ذى الحجة ٥٥٩ هـ/نوفمبر ١١٦٤ . ودخل أحمد بن مهدى الجوة وأحرقها[٣٥] .

ولم تؤد هذه الحملة الأخيرة إلى نتيجة سوى ما أحدثته من قتل وتخريب وإقرار نفوذ بنى مهدى فى جهات تعز والجند والجوة بالجنوب ، إذ تأجلت ضربتهم التالية وتحقيق أهدافهم بغزو وامتلاك الأراضى والبلاد شمالا إلى مخلاف التعكر وذى جبلة مدة عامين رغم سنوح الفرصة .

فى عام ٥٦٠ / ١١٦٤ توفى الأمير الزريعى الداعى عمران بن محمد بن سبأ بعدن عن أطفال صغار نقلوا إلى حصن الدملوة تحت كفالة مولاه وعامله فى الدملوة جوهر المعظمى، بينما استمر وزيره ياسر بن بلال بن جرير المحمدى فى نيابة عدن . وتقوقع بنو زريع بذلك فى الدملوة وعدن وتركوا سائر أملاكهم بعد هزيمة الجوّة فى فراغ سياسى لم يستفد منه عبد النبى ، إذ لم تؤرخ له غزوات فى هذا العام . ربما يكون بسبب انشغاله بخلاف قد حدث فى زبيد من جانب أخيه عبد الله . وهو ما أشار إليه عمارة اليمنى دون تصريح بقوله : أن الأمر انتقل إلى مهدى ثم عبد النبى ثم إلى عبد الله ثم إلى عبد النبى.

وكذلك عام ٥٦١ / ١١٦٦ انشغل عبد النبى بن مهدى بغزوة أو قضية أخرى ناحية المخلاف السليمانى . حيث كان الأشراف من بنى سليمان يحكمون وقد أورد المؤرخون أخبار الغزوة وأحداث القتال وأقوال الشعراء وما كان من نتائجها دون أن يذكروا لها سبباً . وأكبر الظن أن أشراف المخلاف السليمانى قد امتنعوا عن دفع الأموال السنوية، إتاوة قدرها ستون ألف دينار كانوا يقدمونها من قبل لصاحب زبيد من بنى نجاح(٣٦) . وقد تصدى الأشراف بشجاعة لبنى مهدى . فهاجمهم عبد النبى بعنف شديد وهزمهم ثم طاردهم وقتل أميرهم الشريف وهاس بن غانم بن يحيى فأخذ أمواله وسبى حريمه(٣٧) وكان لهذه الواقعة صدى كبير سنعرض له فيما بعد .

ثم عاد عبد النبى نحو الجبال ليستكمل الأهداف بحملة عام ٥٦٢/١١٦٧ سيطر بها على جميع اليمن الأسفل، الذى يحد بنقيل صيد أو بلاد يريم بيحصب العليا شمالا حتى جبال وصاب والشرف غربا ، بجميع مدنه مثل ذى أشرف وإب، وذى جبله وجميع حصونه مثل التعكر والجمعة وحب وغيرها ، مزيلا بذلك ملك آل زريع والصليحيين(٣٨) فى تلك الجهات ،بالإضافة إلى الدملوة التى صالح حاكمها جوهر المعظمى على مال سنوى يقدمه إلى بنى مهدى(٣٩).

تلك هي الغارات والحروب التي شنها بنو مهدي على اليمن الأسفل مستولين على جل مناطقه أو فارضين الأموال على بعضه ، بجانب استيلائهم سابقا على على تهامة ، مندفعين بالجرأة المعروفة عن الخوارج. وقد كان الأحرى ببني مهدي القنوع بملك تهامة غير أنهم اتجهوا صوب الجبال مدفوعين بالطمع إلى الاستيلاء على كنوز الصليحيين بالإضافة إلى كنوز بني نجاح(٤٠)، ومستحلين دماء الناس وأموالهم وخاصة الفقهاء(٤١) الذين هربوا وأهلوهم خوفا من الموت . ولم يكن من المنتظر سكوت القوى الداخلية أو الخارجية عن هذا الطغيان المفترس باليمن .

ففي الداخل حدث تحالف همداني بين بني زريع في عدن وبني حاتم في صنعاء . انضم إليه جنب من مذحج في ذمار. أوقع الهزيمة بجيوش بني مهدي في مواقع ضارية . وتفصيل الأمر أن عبد النبي بن مهدي عاد بعد سبع سنوات يريد الاستيلاء على عدن لحط الحصار عليها أول عام ٥٦٩ / أغسطس ١١٧٣ فالتجأ أحد بني زريع وهو حاتم بن علي الأعز بن الداعي سبأ بن أبي السعود إلى صنعاء وغيرها مستصرخا برجال اليمن . فأجابه علي بن حاتم بن أحمد اليامي أمير صنعاء ، وإن اشترط اشتراك مذحج وعلى رأسها جنب(٤٢) . وربما كان السلطان علي بن حاتم يخشى على صنعاء من جنب إذا هو خرج منها . فلم يتحرك من صنعاء إلا وقد ضمن ذلك . فقد توجه إليهم حاتم الزريعي في ذمار فأجابه السلطان عبد الله بن يحيي والشيخ زيد بن عمرو .

وهكذا خرج السلطان علي بن حاتم بقواته من همدان وسنحان وبني شهاب من صنعاء وعسكر عند نقيل صيد — جبل سمارة — وفي أعقابه جاءت قوات مذحج وعلى رأسها السلطان عبد الله بن يحيي والشيخ زيد بن عمرو . فتقدم إلى السحول وتجمعت قواتهم هناك وزحفوا جميعا وعسكروا بمنطقة إب(٤٣) .

ولم ينتظر عبد النبي بن مهدى زحف هذه الجيوش عليه فى نواحى عدن وإنما ترك جزءا من قواته على حصارها ، وصعد بجل قواته لمواجهة هذا التجمع اليمنى ضده . وقسم عبد النبي جيشه إلى ثلاث وحدات أو فرق: الأولى فى ذى جبلة ، والثانية فى الجبابى ، والثالثة بين حصن المسوار وحول زلال . أما هو فقد أقام بحصن تعز[٤٤] — القاهرة الآن . وهكذا واجهت قوات التحالف قوات ابن مهدى موزعة مما ساعد على هزيمتها الواحدة تلو الأخرى .

فقد بدأت قوات التحالف الهجوم على جيش الجبابى ، وكان به أجود عسكر ابن مهدى ، فانهزم مثخنا بالقتل . وأمسى السلطان على بن حاتم بالجبابى وأصبح قاصدا جبلة فوجدها خاوية ، . ويبدو أن الهزيمة الأولى أحدثت أثرها فى بقية قوات ابن مهدى هناك إذ تركت ذى جبلة ليلا . وتراجعت جيوش ابن مهدى لتلحق أميرهم عبد النبي عند حصن تعز فى المعركة الأخيرة. فقد تقدم السلطان على بن حاتم من ذى جبلة إلى الجند فوجدها خاوية . فنهض بجميع من معه لمنازلة عبد النبي بن مهدى فى موقعة هائلة بذى عدينة - تعز - فى ربيع الأول ٥٦٩ هـ/أكتوبر نوفمبر ١١٧٣ فكانت الدائرة على ابن مهدى. وفى نفس الوقت هزمت قواته المحاصرة عدن . فاضطر عبد النبي إلى التراجع السريع إلى زبيد[٤٥] وزال نفوذه عن جميع اليمن الأسفل .

وقد كان السلطان على بن حاتم اليامى يريد نزول تهامة وتعقب المنهزمين بهذه القوات المتحالفة المنتصرة فلم يستطع ذلك « لأنه شاور جنبا فامتنعت وكسرت عليه»[٤٦] فعادت تلك القوات إلى بلادها وقد انتهى دورهم العظيم .

أما فى الخارج فقد كان هناك جيش آخر تم إعداده فى مصر وأخذ طريقه إلى بلاد اليمن فى نفس العام كى يعيد بها الوحدة السياسية المفقودة على يد الأيوبيين . وتعددت الأسباب الداخلية والخارجية التى أدت إلى تدخل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب فى شئون اليمن. منها مايذكره ابن عبد المجيد

وابن خلكان أن صلاح الدين الأيوبي بلغه ما يزعم به عبد النبي بن مهدى أن دولته ستطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس[٤٧] وليس هـذا فى رأينا سببا معقولا أو مبررا كافيا. ومنها ما يذكره بامخرمة أن أحد أشراف المخلاف السليماني خرج إلى بغداد مستنجدا بالخليفة العباسي ومستنصرا به على عبد النبي الذى قتل أميرهم الشريف وهاس بن غانم. فكتب الخليفة بدوره إلى صلاح الدين بأن يجرد جيشا لقتال ابن مهدى(٤٨).

غير أن العوامل الخارجية وليدة الظروف السياسية والاقتصادية الجارية فى الشرق الأدنى كانت أهم وأقوى بكثير من تلك السابقة. ففى العراق كانت الخلافة العباسية تلتقط بعض أنفاسها من وطأة سلاطين السلاجقة المتنافسين. أما بالشام فقد نجح الصليبيون فى تكوين أربع امارات لهم فى الرها وبيت المقدس وانطاكية وطرابلس، وإن تمكن البيت الزنكي من القضاء على اماراتهم بالرها. واحتفظ البيت الزنكى على عهد نور الدين محمود بإمارتى دمشق وحلب فى مواجهة هذه القوى الصليبية. وفى مصر كان الصراع على أشده بين كل من شـــاور وضرغام وزيرى الخليفة العاضد الفاطمى واستنجد كل منها بالقوى الخارجية بالشام ضد منافسه. فلعب كل منهما بالنـار إذ توالت الحملات النورية والصليبية على القاهرة. وانجلى الموقف بزوالهما، وسيادة الجيش النورى. ثم تولى أسد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب منصب الوزارة للخلافة الفاطمية. وتم على يد صلاح الدين انهاء أمر الخلافة الفاطمية بالدعوة للخليفة المستضىء العباسى فى المحرم ٥٦٧/سبتمبر ١١٧١م. وصار مركز مصر السياسى فى إطار التبعية لدولة السلطان نور الدين محمود. وأصبح صلاح الدين نائبا عنه فى حكم مصر.

هذه الظروف السياسية تفسر كثيرا من عوامل الفتح الأيوبى لليمن.

فقد قيل إن صلاح الدين قام بفتح اليمن بسبب خوفه من السلطان نور الدين محمود، وأنه أراد أن يتخذها مأوى له ولأسرته فى حالة هجوم نور الدين على مصر واقتلاع نائبه[٤٩]. وكانت قد وقعت وحشة بين الرجلين.

وسبب آخر نراه فى الربط بين الأحداث باليمن وتلك الظروف الدولية. فإذا كان أشراف المخلاف السليمانى قد طلبوا النجدة من الخلافة العباسية إزاء ما حل بهم من كوارث على يد بنى مهدى فقد جاءت استجابة هذه الخلافة من واقع الرغبة فى القضاء على النفوذ الفاطمى فى اليمن بعد أن زالت خلافتهم من مصر. وكذا إحلال النفوذ العباسى والمذهب السنى المفقود أو شبه المفقود بتواجد بنى زريع دعاة الفاطميين باليمن الأسفل، وبنى مهدى الخوارج بتهامة، والزيدية فى صعدة بالشمال. ومن ثم جاء تكليف الخلافة العباسية للسلطان نور الدين فعهد بالتنفيذ إلى نائبه صلاح الدين بمصر.

وذكر للحملة الأيوبية سبب آخر جاء ضمن مؤامرة داخلية بالقاهرة عام ٥٦٩/١١٧٣ ضد صلاح الدين نفسه، دبرت من جانب أطراف متعددة بهدف إعادة سيادة الخلافة الفاطمية المصرية التى سقطت عن وشك. وكان من زعمائها الضالعين مؤرخنا الفقيه عمارة اليمنى الذى كان من أنصار الفاطميين وجاء مصر ومدحهم ورثاهم بعد زوال خلافتهم[٥٠]، رغم أنه سنى المذهب!. فعمل عمارة اليمنى على تشجيع حملة اليمن بمدح توران شاه أخ صلاح الدين المرشح لقيادة الحملة وإغرائه بهذا المشروع بغية إبعاد أقوى قواد صلاح الدين فرصة لتنفيذ المؤامرة. وقد اكتشف صلاح الدين المؤامرة واقتص من المتآمرين[٥١].

ولم تقتصر الحملة الأيوبية على تلك العوامل السياسية فقط بل كانت هناك عوامل اقتصادية أخرى. كان هناك مقاطعة صليبية أوربية لتجارة العبور بين الشرق والغرب عبر الأراضى المصرية، وأخذت هذه التجارة سبيلها بداية الحروب الصليبية إلى موانى الشام، وأدت بجانب غيرها من العوامل[٥٢] إلى

خلق أزمة اقتصادية أشار إليها المقريزى فى أحداث عام ٥٦٧ / ١١٧١ بنفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر(٥٣) .

وقام صلاح الدين بعدة إجراءات للاصلاح منها كسر هذه المقاطعة الصليبية . فلم يكن يخفى على صلاح الدين أهمية بلاد اليمن بالنسبة لتجارة البحر الأحمر ، وأن احتلالها يحكم السيطرة على مدخله من طرفه الجنوبى ، ويضمن لمصر استمرار ورود تجارة الكارم من عدن إلى عيذاب ، فيحصل على الذهب من حصيلة الرسوم الجمركية التى تجبى من الثغور المصرية واليمنية على السواء ومن هذه الناحية كان الفتح الأيوبى لبلاد اليمن ضرورة اقتصادية .

وأخيرا كانت حملة اليمن ذات بعد استراتيجى فى مواجهة القوى الصليبية بالشام وأطماعهم التوسعية فى البحر الأحمر وتجرؤهم على الأراضى الاسلامية المقدسة فى الحجاز . فقد ظهر الخطر الصليبى بالبحر الأحمر بعد ثمان سنوات فى حملتين متتاليتين عامى ٥٧٧ و ٥٧٨ / ١١٨١ و ١١٨٢ باشراف البرنس أرناط (رينودى شاتيون) صاحب حصن الكرك جنوب البحر الميت ، سواء فى محاولة الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة،أو ضرب الاقتصاد المصرى بتحويل تجارة البحر الأحمر إلى خليج العقبة وموانى الشام الصليبية كخطة مضادة لاجراءات صلاح الدين السابقة(٥٤) ، حتى إن بعض السفن الصليبية توغلت فى البحر الأحمر قاصدة عدن مركز تجارة الكارمية. وقد فشلت هذه المحاولات الصليبية أمام السيادة الايوبية فى البحر وسواحله الغربية المصرية وسواحله الشرقية بالحجاز واليمن .

فقد وصل الجيش بقيادة توران شاه إلى الحجاز وهو فى طريقه إلى اليمن عام ٥٦٩ / ١١٧٣ فأقر الحكام الاشراف من الحسنيين على حكم مكة والحسينيين على حكم المدينة ، وسيطر على الحجاز . ثم توجه إلى

المخلاف السليمانى . ووصل الخبر إلى عبد النبى بن مهدى بزبيد بوصول توران شاه وجيشه الى أبى تراب - حرض - عند الأمير الشريف قاسم ابن غانم بن يحيى ، وأنهم واصلون معه منجدون له فى قتل أخيه وهاس . فوصل توران شاه زبيد واحتلها بسهولة فى شوال ٥٦٩ /مايو ١١٧٤ ولاشك أن عبد النبى بن مهدى كان منهوك القوى من حروبه وهزيمته الأخيرة بنجد اليمن ، فوقع هو وإخوانه فى الأسر . وزالت بذلك دولة بنى مهدى من تهامة.

وأخذ توران شاه يستعد لمواصلة فتح بقية اليمن(٥٥) .

الحواشى

(١) عمارة اليمنى : المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ٢٤٤ القاهرة ١٩٦٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ، ٣٦٠ القاهرة ١٩٧١ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ٧٠ القاهرة ١٩٦٥ .

(٢) المفيد : ٢٤٤ — بهجة الزمن : ٧٠ — ٧١ ، قرة العيون ، ٣٦٠ .

(٣) المفيد : ٢٤٤ — ٢٤٥ — بهجة الزمن : ٧١ ، قرة العيون ، ٣٥٢ .

(٤) المصـــادر السابقة .

(٥) المفيد : ٢٤٥ بهجة الزمن : ٧١ ، قرة العيون ، ٣٦٠ — ٣٦١

(٦) المصـــادر السابقة .

(٧) المصـــادر السابقة .

(٨) المصـــادر السابقة .

(٩) المفيد : ٢٤٥ ، بهجة الزمن : ٧١ — ٧٢ ، قرة العيون ، ٣٦١

(١٠) المصـــادر السابقة .

(١١) المفيد : ٢٤٦ ، بهجة الزمن : ٧٢ .

(١٢) المفيـــد : ٢٤٦ .

(١٣) المفيد : ٢٤٧ ، قرة العيون : ٣٦٢ .

(١٤) يذكر عمارة ان ابن مهدى عرض عليه فى هذم المقابلة الانضمام الى حركته ويجعله مقدما على كل من أصحابه (نفس المصدر) .

(١٥) المفيد : ٢٤٣ قرة العيون : ٣٥٧ ، ٣٦٣ .

ذكر عمارة فى موضع آخر أن الاغتيال فى ٦ صفر ٥٥١ (نفسه : ٢٤٧). وطارد الناس ذلك القاتل ويدعى محرم وقتلوه فى عشية ذلك اليوم بعد أن قتل جماعة منهم . وفى مصدر آخر يوم الجمعة ١٢ رجب ٥٥١ ، بهجة الزمن: ٧٠ وقرة العيون : ٣٥٧ .

(١٦) المفيد : ٢٤٧ — ٢٤٨ ، بهجة الزمن : ٧٢ .

(١٧) المفيد : ٢٤٨ . تاريخ المستبصر ٧٣ ، بهجة الزمن : ٧٣ ، قرة العيون ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، طبقات فقهاء اليمن : ١٧٩ القاهرة ١٩٥٧ يذكر ابن سمرة دخول ابن مهدى زبيد يوم الجمعة آخر يوم من رجب عام ٥٥٤ .

(١٨) المفيد : ٢٤٣ و ٢٥١ — ٢٥٢ بهجة الزمن : ٧٤ .

(١٩) المفيد : ٢٥٣ با مخرمة : تاريخ ثغر عدن ١٢٨/٢ ، ليدن ١٩٣٦

(٢٠) المفيد : ٢٤٦ ، قرة العيون : ٣٦١ .

(٢١) المفيد : ٢٤٦ .

(٢٢) نفس المصدر : ٢٥٢ ، بهجة الزمن : ٧٤ .

(٢٣) المصدرين السابقين .

(٢٤) قرة العيون : ٣٦٥ — ٣٦٦

(٢٥) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ .

(٢٦) المفيد : ٢٤٩ ، بهجة الزمن : ٧٣ .

(٢٧) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ١٧٩ يقول انه قتل أهل قريتى الذنبتين والعربة وهرب امامه الفقيه على بن أحمد الى الأنصال بقرى العوادر وكان مسكنه اليهاقر ببادية الجند (نفسه ٣ — ٤) وكذا الفقيه يحيى ابن أبي الخير الى ذى أشرق ثم الى ضراس ثم الى ذي السفال (نفسه ١٧٩).

(٢٨) المصدر السابق : ٤ ، ١٨٢ .

(٢٩) قرة العيون : ٣٦٦ .

(٣٠) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٢ .

(٣١) قرة العيون : ٢٨٣ — ٢٨٤

(٣٢) قرة العيون : ٣٦٥ .

(٣٣) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ خرب بنو مهدى جامع الأهواب — الأهواب فرضة المراكب الواصلة من عدن — ونقلوا أخشاب الساج التى جلبت له من الهند الى المشهد الذى بنوه لأبيهم فى زبيد (ابن المجاور : ٢٤٧/٢) وكان على بن مهدى قد عين لولده الموضع وأمره أن يجعله جامعا يصلى فيه الجمعة على نحو ما فعلت الحرة الملكة بذى جبلة . فنفذ ابنه الوصية وقد خرب بعد ذلك وجعل اسطبلا لبعض سلاطين الأيوبيين . ثم سمى معقاب عاتكه جعلت فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم . ثم خرب ولم يبق الا المنارة التى سقطت على عهد بنى رسول ٨٣١ هـ (قرة العيون : ٣٦٥) .

(٣٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٧/٢ ربما كانت عودته بسبب خلاف أخيه عبد الله بزبيد الذى سنشير الى آثاره بعد قليل .

(٣٥) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٧ .

(٣٦) المفيد : ٢٣٤ .

(٣٧) بامخرمة : ١٢٧/٢ ، قرة العيون : ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣٨) المفيد : ٢٤٩ — ٢٥١ ، طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ ، قرة العيون: ٣٦٨ .

(٣٩) بامخرمة : ٤٢/٢ .

(٤٠) « أموال أهل زبيد من عبيد فاتك وجهاته وأعيـان دولته الذين خلفوا الأموال الكبيرة والعيون الوفيرة صـارت جميعها اليه لأنه أمسـك نساءهم وذراريهم فأظهروا له كنوز أموالهم من المصوغ واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها » (المفيد : ٢٤٩) وكذلك ذخائر التعكر وبها من ملك الداعى على بن محمد الصيلحى وابنه المكرم أحمد وزوجته الحرة الملكة (المفيد ٢٥٠) .

(٤١) طبقات فقهاء اليمن : ٣ — ٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، المفيد : ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، بامخرمة : ٥٩/٢ .

(٤٢) بامخرمة : ١٢٨/٢ قرة العيون : ٣٦٨

(٤٢) بامخرمة : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٨ .

(٤٤) نفس المصدر (الجبابى : قرية أعلى عزلة أنامر على سن مخلاف جبلة جنوب غربى اب . وحصن المسوار جنوب اب يسيطر على المحجـة الرئيسية الى الجند وعدن . حول زلال هى أرض زلال ضواحى جبلة . نفس المصدر حواشى للمحقق ص ٣٦٩) .

(٤٥) بامخرمة : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٩ — ٣٧٢ .

(٤٦) قرة العيون : ٣٧٢ .

(٤٧) بهجة الزمن : ٧٥ ، وفيات الأعيان : ٣٠٦/١ .

(٤٨) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٧/٢ — ١٢٨ .

(٤٩) ابن الأثـير : الكامل فى التاريخ ١٧٣/١١ ، ١٧٤ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول السلوك ٥٢/١ تحقيق زيادة القاهرة ١٩٣٤ .

(٥٠) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ٤٩٠ — ٤٩١ .

(٥١) ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ١/٢٢٠ ، بولاق ١٢٨٨هـ

(٥٢) انظر : عطية احمد القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ١٣٥ رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٣ .

(٥٣) المقريزى : السلوك ١/٤٦ .

(٥٤) انظر عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ١٤٤ — ١٤٧ ذكر أخبار الحملتين وأعمالهما العدوانية بالتفصيل .

(٥٥) قرة العيون : ٣٧٣ ، بامخرمة : ٢/١٢٨ رجع الشريف قاسم بن غانم الى بلده وقد حقق ثأره ويقول : من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى فعاش بعد ذلك شهرا (قرة العيون : ٣٧٣) .

طبيعة الكتابات التاريخية

حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر

الأستاذ ناصر الدين سعيدوني

دائرة التاريخ — معهد العلوم الإجتماعية
جامعة الجزائر

— مكانة الفترة العثمانية فى تاريخ الجزائر

— وجهة نظر الكتاب الفرنسيين فى تاريخ الجزائر العثمانية

— محاولة تقييم المساهمة الفرنسية المتعلقة بالفترة العثمانية

— وجهة نظر الكتاب الجزائريين فى تاريخ الجزائر العثمانية

— نحو مساهمة منهجية موضوعية

— مكانة الفترة العثمانية فى تاريخ الجزائر :

تعتبر الفترة العثمانية من تاريخ الجـــزائر الحديث ، فترة مهمة وحاسمة وأساسية ، وذلك لعدة اعتبارات، فبغض النظر عن المدة الزمنية التى استغرقتها والتى تزيد عن ثلاثة قرون (١٥١٦ — ١٨٣٠) ، فانها كانت تتميز بالاعتبارات التـالية :

١ — أنها فترة تعرضت فى مطلعها البلاد الجزائرية للغزو الأسبانى الذى تركز فى المدن الساحلية وكاد أن يعيد بها كارثة الأندلس ومأساة إنهيار الوجود

الاسلامى فى تلك الديار مرة أخرى ، كما شهدت الجزائر فى نهايتها الغزو الاستعمارى الفرنسى وما انجر عنه من ظلم وتعسف واجحاف دام أكثر من قرن وربع قرن (١٨٣٠ — ١٩٦٢) .

٢ — فترة عاشت أثناءها الجزائر مرحلة حاسمة ، تمثلت فى الخصوص فى مواجهة اعتداءات الدول الأوربية ، وعلى رأسها أسبانيا وفرنسا وانكلترا ، التى تكالبت أساطيلها وجيوشها على استغلال خيرات الجزائر والتحكم فى مقدراتها لصالح أوربا وما تحمله من روح صليبية .

٣ — لكون هذه الفترة تعتبر بمثابة المعبر الزمنى الذى حافظ على قيم الجزائر الحضارية وتراثها ومقوماتها الاسلامية العربية ، التى تعمقت جذورها ورسخت دعائمها أثناء الوجود العثمانى بعد أن تبلورت واتضحت معالمها فى الفترة الاسلامية السابقة .

٤ — انها فترة اكتمل فيها كيان الشعب الجزائرى ، وعرفت البلاد الجزائرية مقومات الدولة الخاصة ، بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم أثناء انقسام دولة الموحدين (١٢٦١) وظهور الحفصيين والزيانيين والمرينيين ، وقد برز هذا الكيان بالخصوص فى اختيار عاصمة قارة ورسم حدود معينة ، ووضع أجهزة إدارية ، وسن أنظمة اقتصادية وإقرار أوضاع اجتماعية وانتهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك هذا مع التأكيد على الروابط الوثيقة مع البلاد العربية ، والبقاء ضمن الوحدة الحضارية والفكرية للامبراطورية العثمانية الشاسعة .

ولكن رغم هذه الاعتبارات التى أسبغت على الوجود العثمانى بالجزائر أهمية خاصة ، فإننا نجد الفترة العثمانية لم تنل الدراسة اللائقة بها والاهتمام الجدير بها ومرد ذلك حسب ما نرى ، أن الكتاب الفرنسيين لم يكونوا يرون

أي شيء جدير بالتنويه والاشادة في تاريخ الجزائر سوى العهد الروماني وفترة الاحتلال الفرنسي ، كما أن الكتاب الجزائريين ظلوا هم الآخرون يعتبرون الفترة العثمانية خاتمة لأبحاثهم المتعلقة بالعصور الوسطى أو تمهيدا لدراساتهم المتصلة بفترة الاحتلال، بينما أغلب من ارخوا للحركة الوطنية أرجعوا أصول هذه الحركة إلى مقاومة الامير عبد القادر أو رأوا انها تنبع من رفض الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي لا أكثر ولا أقل ، وبذلك انتهى أغلبهم إلى القول بأن تكوين الأمة الجزائرية يرتبط باندلاع المقاومة ضد الفرنسيين متجاهلين عن قصد أو غير قصد فترة ما قبل الاحتلال ، التي عرفت أثناءها الجزائر كما سبقت الاشارة إلى ذلك مقومات الأمة وكيان الدولة الأمر الذى يجعل الجزائريين يرفضون فكرة الاستعمار وأسلوب الاحتلال بكل الوسائل .

وبفعل بهذه النظرة التي لا تعطي للفترة العثمانية مكانها اللائق بها ضمن تاريخ الجزائر ظل تاريخ الجزائر العثمانية أشبه شيء بفترة ما قبل التاريخ حسب تعبير جال بيرك(١)، إن لم تقل بأنها تشكل الحلقة المفقودة في تاريخ الجزائر.

وانطلاقا من هذه النظرة راح بعض الكتاب يقومونها حسب ما استخلصوه من دراسات الأوربيين العامة وآرائهم حول هذه الفترة ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث والرجوع إلى المصادر الأساسية والوثائق الأصلية ،فني هذا السياق نجد السيد محي الدين جندر يؤكد بأن حكومة أتراك الوجاق والرياس — حسب تعبيره — أنشئت وتدعمت وحافظت على بقائها إلا نتيجة تطور محلى ساهم به السكان وإنما بفضل تحكم الاقطاع وتفكك المجتمع وتلاشى السلطة وركود الاقتصاد وانهيار المدن وتقهقر الزراعة ، (٢) ولا تختلف عنه في هذا الشأن الكاتب بن اشنهو الذى يرى» بأن الإدارة التركية عبارة عن أداة تعمل لملء أكياس الخزينة وجيوب الأقلية التركية الحاكمة

المسيطرة ، مما يجعل ثروات البلاد فى مثل هذا الوضع أشبه شىء بقطعة حلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخول له منصبه[٣] ، ونفس الحكم يشاطره فيه السيد ملود قايد الذى يستنتج بأن الأتراك أجانب وقد ظلوا أجانب طيلة القرون الثلاثة وذلك لعدم تمكنهم من الإتصال بالسكان المحليين رغم انه فى دراسته لم يصل إلى أى شىء يؤكد له عدم الصلة وانقطاع التعامل الذى يشده[٤]) .

فبغض النظر عن هذه الآراء والاعتبارات ، فان النظرة الموضوعية للفترة العثمانية من تاريخ الجزائر تفرض علينا ان نقر بأن فهم تاريخ الجزائر الحديث فهما صحيحاً متماشيا مع الواقع والحقيقة لا يتأتى إلا بدراسة هذه الفترة دراسة تعتمد على المصادر الأساسية وتستند إلى الوثائق الأصلية التى تشكل المادة الخام والعمود الفقرى لأى بناء تاريخى .

وانطلاقاً من هذه النظرة نحاول التعرف على نوع وطبيعة الدراسات التى تمت فى هذا المجال وذلك بتلمس خصائص الإنتاج التاريخى المتعلق بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ، هذا الإنتاج الذى يمكن أن ندرجه فى ثلاثة أصناف مختلفة :

— صنف كتبه الفرنسيون أثناء فترة الإحتلال ولا زالوا يواصلون الكتابة فيه ، وهو أكثر تخصصاً وأغزر إنتاجا ، ويمكن أن نطلق عليه وجهة نظر الكتاب الفرنسيين ، وصنف ثان كتبه جزائريون وهو أقل إنتاجاً وأكثر شمولا ، ويمكن أن نعرفه تجاوزاً بأنه وجهة نظر الكتاب الجزائريين التقليدية وهناك صنف ثالث بدأ يساهم به خريجوا الجامعات من جزائريين وغيرهم وهو يتصف باحترام المنهج التاريخى وبالتقليد بطرق البحث الحديثة ، وعدم اتخاذ موقف محدد قبل التوصل إلى نتائج معينة وهذا الصنف الأخير رغم انه لايزال نادر الإنتاج ، ولم يغط أغلب المواضيع لحداثته وقلة المنتسبين إليه ، فانه يمثل

فى نظرنا مساهمة جديدة لإعادة تقييم تاريخ الجزائر العثمانية ، ضمن إطار مدرسة موضوعية ومنهجية .

وجهة نظر الكتاب الفرنسيين فى تاريخ الجزائر العثمانية :

أما وجهة نظر الكتاب الفرنسيين التى يطلق عليها البعض من قبل التعميم :

« المساهمة الفرنسية أو المدرسة الفرنسية فى تاريخ الجزائر ، فهى وإن كانت تتعلق بكل فترات تاريخ الجزائر من أقدم العصور وحتى الثورة التحريرية الكبرى ، إلا أن ما يهمنا منها هنا لا يتعدى العهد العثمانى من تاريخ الجزائر الذى تناولته وجهة النظر هذه انطلاقاً من خصائص ومميزات نوجز أهمها فيما يلى من النقاط :

١ - ان المادة التاريخية التى استعملها الفرنسيون لم تكن تتجاوز فى أغلب الأحيان المصادر الغربية والأرشيفات الأوروبية ، التى يتألف أغلبها من مذكرات الرحالة ومراسلات القناصل وحكايات المسافرين وتقارير البحارة وانطباعات الرهبان والجواسيس ، وبذلك ظلت المصادر الأساسية المتمثلة فى وثائق الأرشيفات ومخطوطات المكتبات المحلية الموجودة بالجزائر وتركيا مهملا ، مع كونها تتضمن المادة الخام فى مثل هذه الدراسات . والغريب فى الأمر أن الكتاب الفرنسيين لم يفكروا فى الرجوع إليها واستغلالها فى الكتابة التاريخية ، بل لم يكلفوا أنفسهم حتى البحث عن أماكن وجودها بالجزائر واستانبول(٥) .

وهذا الاعتماد على المصادر الأوربية دون سواها ، راجع حسب ما نرى إلى أن الذين كان فى مقدورهم جمع هذه المصادر المحلية وهم الحكام العسكريون والإداريون انصب اهتمامهم على محاولة التعرف على واقع الجزائر آنذاك من

خلال المشاهدة والملاحظة لا بواسطة الوثائق والكتب ، أما الكتاب الآخرون منهم من ذوى الاختصاصات فى الدراسات التاريخية والذين كان فى استطاعتهم استغلال الوثائق التركية والعربية فانهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة الترجمة وتعلم لغة تلك الوثائق ، ولم يروا فائدة فى الرجوع إلى تلك المصادر بعد أن وجدوا ضالتهم فى الأرشيفات والكتب الأوربية السهلة المنال وقد نتج عن هذا أن أصبح كثير من هؤلاء الكتاب يشكون فى صحة تلك الوثائق العربية التركية ، ويصفونها بالتجريد والمبالغة ، وهذا ما أشار إليه غرامون فى كتابه تاريخ الجزائر تحت الحكم التركى(٦) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل راح بعض الكتاب المختصين يؤكدون بأن الجزائر التركية يجب أن تدرس من خلال الروايات والملاحظات الأوربية وبواسطة وثائق الأرشيفات التى هى فى الواقع الأرشيفات الأوربية المتوفرة، لاعن طريق المصادر المحلية(٧) . بحجة أن هذه المصادر الأخيرة لم تهتم بالسادة الأتراك ولا بعلاقاتهم مع الأوربيين أو السلطان(٨) حسب تعبيراتهم .

وهكذا نرى أن إهمال المصادر العربية ـ التركية والاعتماد الكلى على الوثائق الأوربية المتصلة بالفترة العثمانية بالجزائر ، كان بمثابة رفض التعرف على الحقيقة التاريخية ، ومعاداة الرؤية السليمة للتاريخ ، وتجاهل صريح لواقع الطرف الآخر الذى يكتبون عنه بغية التعرف عليه .

٢ ـ ان جل ما كتب حول الفترة العثمانية يعتبر بالنسبة لاهتمامات التاريخ الجزائرى من قبيل القضايا الجانبية والموضوعات الهامشية : بحيث ظل الاهتمام والتركيز منصبا على مدينـــة الجزائر وما يهم الأوربيون من نشاطها مثل الاحتكارات التجارية ومشاكل القرصنة المعلقة بفداء الأسرى ودفع الأتاوات والهدايا من طرف الدول الأوربية ، وما انجر عن هذا النشاط من أعمال

فدائية وغارات وهجومات إنتقامية شنها الأوربيون على السواحل الجزائرية ، وإذا تجاوزت هذه الكتابات الفرنسية مدينة الجزائر وقلما تفعل ذلك — فلا تبرز أوضاع البلاد إلا من خلال الحملات الإنتقامية للحكام الأتراك ، والإعتداءات المتكررة لرجال البايليك ، والفوضى والإضطرابات التى كانت تعيشها المجموعات العشائرية ، وحتى يكاد المتتبع لمثل هذه الدراسات يسلم بأن مثل هذه الحالة لايمكن أن يوضع لها حد إلا بالتدخل الأوربى المتمثل فى الغزو الفرنسى .

أما حكومة الايالة الجزائرية وجهازها الحكومى ووضعية أسطولها وتنظيمات جيشها ، وعلاقاتها الخارجية ولا سيما مع بقية أقاليم الامبراطورية العثمانية وافريقيا وما كانت تمتاز به أوضاعها الاجتماعية وأنظمتها الاقتصادية وأحوالها الثقافية ، فقد ظلت فى مثل هذه الدراسات مهملة ان لم تكن مشوهة(٩) . ولعل هذا راجع إلى طبيعة مصادر هذه الدراسات التى لم تكن تعكس بصدق وضعية البلاد وحالة السكان . فهى فى أغلبها مصادر أوربية — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — كتبها أجانب لم يكونوا يعيشون الأحداث أو يتفاعلون معها ، بل كانوا يتفرجون عليها ويسجلون منها ما كان يتماشى مع طباعهم الأوربية ونظرتهم الخاصة إلى الحياة ، هذه النظرة التى تتجلى لنا بكل وضوح فى بعض عناوين هذه المصادر مثل : كتاب مشاهير الأسرى أو تاريخ بلاد البربر وقراصنتها للأب دان(١٠) ، أو تاريخ استعباد الأب دومون بافريقيا(١١) .

٣ — ان أغلب الدراسات التاريخية بالجزائر العثمانية ، والتى تمت على يد كتاب فرنسيين تعتبر دراسات مغرضة ، فهى تهدف إلى خدمة الاستعمار وتبرير الوجود الفرنسى بالجزائر ، وذلك بتغيير صورة الماضى وتشويه الواقع التاريخى حتى يصبح متماشيا ومصالح الاستعمار ، بحيث تخضع منهجية التاريخ ومتطلبات

البحث إلى واقع الاحتلال ومرامي السياسة الاستعمارية ، مما يحط بمثل هذه الدراسات في بعض الأحيان إلى مستوى الدعاية المغرضة .

فالوجود العثماني بالجزائر في نظر المساهمة الفرنسية كان بمثابة العامل الذي حال دون اكتساب الجزائر مقومات الدولة القومية وعاق تطور النظم الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك ليخلصوا إلى مقارنته بالحضور الفرنسي فالحكم التركي في هذه المقارنة غير العادلة كان يقوم على الاستبداد ويتصف بالظلم والعدوان ، بينما الحضور الفرنسي كان حسب استنتاجاتهم أقرب الى العمل الحضاري منه إلى التدخل الاستعماري .

وقد أدت هذه النظرة المغرضة بالكتاب الفرنسيين إلى تجاهل الوجود التاريخي للشعب الجزائري واعتبار الجزائر منطقة فراغ حضاري يفتقر إلى وجود شعب متماسك وأمة متكاملة ، فبهذه النظرة لم تكن الجزائر تعدو عن كونها منطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكام وتتنقل عبرها القبائل المتنابزة والعشائر المتنافرة والجماعات المتطاحنة التي لا تخضع إلا إلى القوة ولا تسكن إلا تحت الارهاب والقسر الذي طالما سلطه عليها الحكام الأتراك حسب زعمهم . فالجزائر بهذا المفهوم كان ينظر إليها على إنها جزء من الغرب اغتصب وافتك من طرف الشرق ، في مناسبتين الأولى عند الفتح الاسلامي (القرن ٧م) والثانية مع ظهور الأتراك وتأسيس ايالة الجزائر (القرن ١٦م)[١٢] .

كما لم تكن الجزائر بهذا المفهوم تتجاوز لفظ اخترعه الفرنسيون (E'Algèrnè) سنة ١٨٣٨ ليطلقوه على جزء اقتطع اعتباطا من أفريقيا الشمالية حسب تعبير قزال[١٣] .

ولقد بلغت هذه الأحكام المتحيزة أوجها مع الذكرى المائوية للإحتلال (١٩٣٠) ، عندما انعقد في الجزائر المؤتمر الوطني الفرنسي الثاني للعلوم التاريخية

تحت شعار تبرير الاستعمار والتأريخ له والعمل على انجاحه واستمراره بكل الوسائل، وبذلك ضحى المؤرخ الفرنسي في الجزائر بقيم البحث وأخلاقياته في سبيل مصلحة استعمارية وقضية سياسية غير عادلة[14] .

وهكذا نلاحظ أن الكتاب الفرنسيين من خلال دراساتهم المغرضة حاولوا التعرض إلى كل الموضوعات تقريبا سوى المجتمع الجزائري ، الذي لم يسلموا بوجوده[15] ، وأن هم استعملوا مثل هذه العبارة في بعض الأحيان فانهم كانوا يقصدون بها طائفة المستعمرين الدخلاء الذين كانوا يرون فيهم البديل الشرعي للشعب الجزائري .

أما مرد هذه الدراسات المغرضة التي عبربها الكتاب الفرنسيون عن وجهة نظرهم ازاء الجزائر العثمانية ، فهي صادرة عن عقدة الذنب ومركب التفوق الذي أصاب الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد أن واجهته مقاومة الشعب الجزائري المتمسك بقيمه الحضارية والدينية، مما جعل الاستعمار ينطلق في معاملته للشعب الجزائري من مفهوم السيطرة ومبدأ القوة والاكراه ، هذه القوة التي دفعت الحكام الفرنسيين إلى إنكار وجوده ومحاولة تذويبه بكل الطرق، وهي نفس القوة التي أملت على كثير من الكتاب الفرنسيين تشويه ماضيه والحط من عاداته وتقاليده وثقافته .

٤ — أن وجهة نظر الكتابات الفرنسية حول الفترة العثمانية ، رغم الهدف الواحد الذي ترمى إليه والمتمثل بالخصوص في خدمة الاستعمار، تتصف بتعدد المشارب وتنوع الاهتمامات واختلاف المستويات الثقافية، وقد نتج هذا التنوع لكون الكتاب الفرنسيين كانوا يختلفون من حيث نوعية الثقافة والتكوين ، فمنهم من كان ينتسب إلى سلك القادة العسكريين والحكام المدنيين ، ومنهم من كان يعتبر من أساتذة الجامعات أو من الباحثين والعلماء المختصين .

وقد كان للقادة العسكريين والحكام المدنيين قصب السبق طيلة السنوات

الخمسين الأولى للاحتلال ، أى من ١٨٣٠ إلى ١٨٨٠ ، ففى أثناء هذه المدة واظب هؤلاء القادة والحكام على نشر كثير من المذكرات الشخصية والتقارير الرسمية والروايات التاريخية ، اعتمادا على وثائق مكتوبة أو روايات شفوية تمكنوا من حيازتها بفضل الحملات العسكرية التى كانوا يقومون بها أنوا وسطة المكاتب العربية التى كانوا يشرفون عليها ، وهى فى أغلبها عبارة عن وثائق العائلات الخاصة .

لكن انعدام التخصص واعتماد هؤلاء الحكام والقادة على دافع الهواية الشخصية فى تسجيل الأحداث ووصف الانطباعات والتعليق عليها ، جعل مثل هذا الانتاج أقرب إلى الثقافة العامة منه إلى الكتابة التاريخية بالمعنى الصحيح للكلمة وهذا ما يلاحظه على كتابات كل من : آرنو(١٦) A'Arnaud وإسترهازى(١٧) W.Esterhazé ودبان(١٨) N.Robin. وفلاندان(١٩) M.J. Flandin وفيرو(٢٠) L.Ch.Fèraud وديلسى(٢١) Denniéè ورين(٢٢) L.Rinn. ودوما(٢٣) Daumas, وتروملى(٢٤) Trumelet .

أما اساتذة الجامعات وذوى الاختصاصات فى مجال الدراسات التاريخية فانهم واصلوا الكتابة حول تاريخ الجزائر طيلة السنوات الممتدة من ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ مثل: رونى باسى R.Basset مرسى E.Mercier واسكار G.Esquer وماسون P.Masson واندى جوليان Ch. A. Julien وايفر G.yver وامرى M.Emerint ، وذلك بفضل البيئة الملائمة والظروف المساعدة المتمثلة فى توفر إنتاج الفئة السابقة من الحكام والقادة وإنشاء المدارس العليا عملا بقانون ١٨٨٠ ، وافتتاح الجامعة الجزائرية سنة ١٩٠٩ وما أعقبها من أحداث معهد للدراسات الشرقية بالجزائر ١٩٢٣ وتكوين معهد للأبحاث الصحراوية عام ١٩٤٠ .

وقد ساهم هؤلاء العلماء والمختصين عن طريق التدريس وتأسيس الجمعيات

التاريخية والأثرية، والمشاركة فى المناسبات الثقافية التى وجدت دافعا قويا لهـا باحياء الذكرى المائوية للاحتلال ١٩٣٠ ، فى اثراء المساهمة الفرنسية وتنويع إنتاجها واختصاصاتها .

على أن الشيء الملاحظ هو أن اختلاف الاختصاصات وتنوع اهتمامات الكتاب الفرنسيين جعل جهودهم غير منسقة وغير مترابطة ، ممـا أبقى فجوات وثغرات شبه مجهولة أو مهملة ، رغم المدة الطويلة التى استغرقتها والمجلات التى تطرقت لها جهود هؤلاء الكتاب الفرنسيين، وهذا ما لفت انتباه الاستاذ لوتونو عندما تعرض إلى تقييم المجهود الفرنسى فى الكتابة التاريخية بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائة لتأسيس المجلة الأفريقية إذ أشار إلى ذلك بقوله : « أن ما بقى من المجالات التى لم تعالج بشكل أو بآخر من تاريخ الجزائر يماثل ما تم انجازه فى جميع الميادين ، وهذا يرجع إلى كون المساهمين فى هذا العمل القيم لم يعمدوا إلى تنسيق عملهم بالقدر الكافى ، أكثر من يعود إلى كون هؤلاء الباحثين قليلى العدد »(٢٥) .

محاولة تقييم المساهمة الفرنسية المتعلقة بالفترة العثمانية :

وحتى نخرج بتقييم أكثر شمولا وأقرب موضوعية لوجهة النظر الفرنسية فإننا نستعرض جانبى المساهمة الفرنسية فى تاريخ الجزائر العثمانية ، الايجابى منه والسلبى .

فالجانب الإيجابى يتمثل بالخصوص فى هذه النقاط :

- جمع المـادة التاريخية ، وإن كان أكثرها من مصادر غربية وأرشيفات أوربية والقليل منها عبارة عن وثائق محلية تم الاستحواذ عليها فى الغالب بطرق غير شرعية ، مثل الوسائل التى استعملها بيربروقجى Berbrugger فى حيازة حوالى ٨٠٠ مخطوط أثناء مصاحبته للفيلق الثانى الذى دخـل مدينة قسنطينة

غازيا[٢٦] ، أو التى تستر وراءها البارون دوسلان Le Baron de Slane أثناء زيارته لكثير من المكتبات الخاصة بقسنطينة واطلاعه على كثير من ودائعها ، فبفعل نفوذ السلطات الفرنسية الحاكمة بقسنطينة تمكن دوسلان[٢٧] من الانتفاع من مكتبة كل من ؛ السيد حمودة من عائلة بن الفقون التى كانت تضم على ما يزيد عن ٢٥٠٠ مجلة ، ومكتبة باش تارزى التى كانت هى الأخرى تحتوى على ٥٠٠ مجـــلد[٢٨] ، أما رونى باسى Basset فقد آزرته السلطات الاستعمارية وعلى رأسها الوالى العام تيرمان Tirman الذى وجه رسالة فى هذا الشأن إلى سى محمد الصغير رئيس الطريقة التيجانية بتاريخ ٢٦ فيفرى ١٨٨٥م، يحثه فيها على تقديم تسهيلات للسيد باسى فى مهمته، وبذلك تمكن هذا الأخير من اقتناء كثير من المخطوطات ووضع فهارس للمكتبات العربية الموجودة بزوايا عين ماضى وتماسين وورقلة [٢٩] والهـامل [٣٠] أو التى كانت فى حوزة باشا آغا جلفة آنذاك[٣١] ، ومن الجدير بالذكر أن أغلب مخطوطات هـذه المكتبات تعود للفترة العثمانية من تاريخ الجزائر[٣٢] .

٢ ـ استخدام تقنيات البحث الحديث : من حيث تصنيف المادة حسب الاختصاصات والتقيد بالفهارس والتبويب ، مع نقد بعض المصادر والوقوف منها موقف الحـذر والتساؤل لاسيما إن كانت ذات مصدر عربى ، على أن استخدام منهجية البحث أضربها فى كثير من الأحيان التقيد بمواصفات الحضارة الغربية ومتطلبات التاريخ الأوربى الذى لا يرى فى الوجود العثمانى إلا مجرد مرحلة سابقة للاحتلال وممهدة لمشروعاته الاستعمارية[٣٣] .

كما حد من إمكانية استخدام تقنيات البحث موقف الشك والاهمال الذى وقفه الكتاب الفرنسيون إزاء الكثير من المصادر ذات الأصل التركى أو العربى. كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

٣ - تنشيط الدراسات التاريخية وتشجيع الانتاج التاريخي : الذى يتصل الكثير منه بالعهد العثمانى ، فى نطاق هذا النشاط الثقافى نشير إلى أن اللجنة الافريقية أثناء زيارتها للجزائر ١٨٣٣، تركت لنا محاضر جلسات لا يمكن للباحث أن يستغنى عنها[٣٤] وهى تماثل فى عملها ما قامت به لجنة اكتشاف الجزائر العلمى[٣٥] ، تحت اشراف وزارة الحربية الفرنسية ، وقد أدى نشاطها إلى وضع لوحة أو جدول احصائى حول أوضاع الجزائر[٣٦] يشتمل على ١٧ مجلدا ، يتضمن جانب منه بقايا الوجود العثمانى بالبلاد عشية الاحتلال، وتدعم هذا العمل بانشاء مكتبة الجزائر سنة ١٨٣٥ ، التى فتحت أبوابها لأول مرة لجمهور القراء بعد ثلاث سنوات فقط (١٨٣٨) بمقرها القديم الكائن بدار الحاج عمر صهر الداى حسين باشا ، وألحق بها متحف أثرى غنى فيما بعد .

ويدخل فى نطاق تنشيط الدراسات التاريخية انتقاء بعض الصحف كالمرشد الجزائرى (٢٦ فيفرى ١٨٣٠) والاخبار (١٨٣٩) والمبشر (١٨٤٧) وتكوين جمعيات قصـــد العمل على نشر الانتاج التاريخى ، مثل الجمعية التاريخية الجزائرية : Société d'Histovie Algeéuénue سنة ١٨٥٦ ، بوحى من القائد العام للجزائر : الجنرال راندون Randon ومنذ ذلك الحين دأبت هذه الجمعية على إصدار المجلة الافريقية (١٨٥٦) التى أصبحت مع مرور الوقت تزخر بالعديد من المقالات والدراسات والوثائق حول العهد العثمانى ، كما شاركت هذه الجمعية فى عقد كثير من اللقاءات والمؤتمرات والمجامع التاريخية .

ولم يقتصر النشاط التاريخى على مدينة الجزائر وحدها ، بل شاركتها فى ذلك مدينة قسنطينة التى تأسست بها جمعية للآثار بمبادرة شاربونو Cherboneau ومعاضدة كل من فيرو Féraud والكسى بيلامان A.Bilamane عام ١٨٥٢ ، وتمكنت من إصدار تقويم خاص Annucire منذ عهد مبكر ، حولته فيما بعد إلى مجموعة مقتطفات Recueih، ونفس النشاط عرفته وهران، حيث ظهرت بها

جمعية للآثار عام ١٨٧٨، وأصبح لها نشرة خاصة بالدراسات التاريخية تعرف
با : Bulletin de gèographie et d'Hrchive d'Oron

أما الجانب السلبي للمساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ الجزائر العثماني ،فقد نتج عن تلك الصفات التي تميزت بها وجهة النظر الفرنسية ، والتي جعلتنا نستخلص بأن هذه المساهمة الفرنسية كانت : ناقصة وضئيلة وسطحية في آن واحـــد .

فهي مساهمة ناقصة ، لكونها تفتقر إلى الجهد التاريخي المتمثل في البحث عن المصادر وجمع المادة التاريخية من مختلف مضانها وأماكن تواجدها ، والعمل على الوصول إلى الحقيقة التاريخية وتحرى الواقع المجرد عن الميول والعواطف ، وهذا ما لم تتقيد به المساهمة الفرنسية التي اتصفت باهمال وتجاهل المصادر العربية التركية كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وحتى الوثائق الأوربية التي حاول الكتاب الفرنسيون التركيز عليها في دراساتهم واستنتاجاتهم فان الكثير منها لم ينشر ، وهـذا ما دفع الجمعية التاريخية الجزائرية المشرفة على إصدار المجلة الافريقية إلى توجيه نداء إلى مراسليها وقرائها تحثهم فيه على تدارك النقص في هذا المجال بالبحث عن هذه الوثائق ونشرها في المجلة الافريقية مؤكدة لهم بأن هناك نقص « لا يزال يحتاج إلى مزيد من الجهود[٣٧] في ميدان الوثائق التاريخية[٣٨] .

وقد لفت نقص المساهمة الفرنسية انتباه بعض الكتاب ، مثل السيد كات Cat الذي علق على وضعية المصادر قائلا: لقد أصبح التاريخ اليوم يراعي فيه الرغبة في البحث مع مراعاة الحقيقة والبحث عنها، وعدم إهمال ذكرى المصادر المعتمد[٣٩] وقد عقب الأستاذ : مونتران كذلك على نقص المساهمة الفرنسية بقوله :لا يمكن كتابة تاريخ حقيقي للجزائر في القرون التي عاشتها تحت الحكم التركي إلا بالرجوع إلى الوثائق الأصلية التي ظلت مهملة » .

وهكذا نجد بأن النقص الذى كانت تشكو منه المساهمة الفرنسية جعل بعض الكتاب يصف الفترة العثمانية بأنها أكثر غموضا من العهد الرومانى ، الأمر الذى سمح لبعض الكتاب بأن يصفوا هذه المساهمة بأنها انطلقت من البداية دون أن تصل إلى النهاية[٤٠] .

- ويؤخذ على المساهمة الفرنسية كذلك كونها تتصف بالتواضع وضآلة الانتاج ، فرغم الجهد الذى بذله الكتاب الفرنسيون أكثر من مائة سنة ، فإن البحث من تاريخ الجزائر المسلمة ولاسيما العهد العثمانى لايزال بعيدا عن الانتهاء بشهادة أحـــد الكتاب الفرنسيين[٤١] . بل أن المعلومات المتعلقة بالوجود العثمانى لم تعرف تطورا ملحوظا ، ممـا حدى بأحد الكتاب الفرنسيين المهتمين بهذا الموضوع وهو محافظ أرشيف الولاية العامة سابقا والمشرف حالياً على أرشيف ماوراء البحـــار باكيس آن بروفاسن بفرنسا السيد بوايي Pierre Boyer — إلى القول بأن معلومات الفرنسيين عن الجزائر قبل الاحتلال لم تعرف تقدما منذ السنة التى نشر فيها قرامون كتابه عن تاريخ الحكم التركى بالجزائر سنة ١٨٨٧[٤٢] . كما علق على تواضع المعلومات وضآلة الإنتاج الأستاذ دينى أستاذ التاريخ بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر سابقا ، أثناء اجتماع الجمعية التاريخية الحديثة : بقوله أن المكتبة الجزائرية فقيرة بصفة تلفت الانتباه وتسترعى النظر من الكتب التاريخية ذات القيمة العلمية ، رغم الأهمية التى يكتسبها تاريخ الجزائر فى النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية والإدارية بالنسبة للادارة الفرنسية الحاكمة ، وقد أرجع ضآلة الإنتاج وتواضعه إلى حالة المصادر التى هى غير موجودة حسب قوله وأن وجدت فهى تشكو الإهمال وقلة العناية[٤٣] .

وهناك مأخذ آخر يلاحظ على المساهمة الفرنسية ، وهو أن الدراسة التاريخية حول الجزائر العثمانية ظلت فى أغلبها عملا يتصف بقلة العمق وسرعة الاحكام

وسطحية التفسير وهي من هذا الجانب نجدها تتناول كثيرا من الموضوعات ولكن بصفة عامة ، بحيث ظلت هذه الموضوعات وحتى المتأخر منها تفتقر إلى العمق المطلوب فى الدراسة التاريخية الجادة[٤٤]. ومن الملاحظ أن هذا الوضع الذى كانت تعانى منه كتابات الفرنسيين حول الجزائر كان يدفع بعض الكتاب إلى تسليط النقد الجارح على بعض الأعمال التى هى من هذا القبيل . مثل تأليف الأستاذ كامى روسى Camille Rosset الذى علق عليه الكاتب كات Cat بهذه العبارة : لقد شعرنا بخيبة أمل من نوعية الدراسة اتى قدمها السيد كاميل روسى المنتسب إلى الاكادمية الفرنسية ، إذ بعد مرة طويلة قضاها فى تحضير تاريخ احتلال الجزائر فإنه لم يقدم سوى إنشاء تاريخى مقتبس فى أغلبه من كتب بليسى . ورايو ونتيتهان . مع كون مهمته كمحافظ لأرشيف وزارة الحرب تسمح له بالاطلاع فى هذا النوع من الدراسات[٤٥] .

وفى آخر هذا التقييم يجدر بنا أن نسجل بأن كل ماتوصلنا إليه من خلال دراستنا هذه لا يعتبر بوجه من الوجوه حكما مطلقا وقاعدة بدون استثناء ، بل هو يمثل فى نظرنا الصفات الغالبة على وجهة النظر الفرنسية ويقدم لنا الخطوط العامة المميزة للمساهمة الفرنسية فى كتابة تاريخ الجزائر العثمانية .

وجهة نظر الكتاب الجزائريين فى تاريخ الجزائر العثمانية :

كانت بمثابة انعكاس صادق لليقظة الجزائرية الحديثة وما تحمله من شعور وطني فياض ، فهى من هذه الناحية تعتبر إحدى مقومات الحركة الوطنية الجزائرية[٤٦] . أما من حيث التطور الزمنى الذى عرفته وجهة النظر الجزائرية فانه تم أثناء مرحلتين متمايزتين المرحلة الأولى التى نحددها بالسنوات العشرة الأولى من القرن العشرين (١٩٠٠ — ١٩١٠) فقد اتسمت بنشر التراث الذى هو فى واقع الأمر مادة خام ومصدر أساسى لتاريخ الجزائر ، وكان من أهم الكتب التى تم نشرها فى هذا الشأن رحلة بن عمار[٤٧] . (١٩٠٢) وكتاب

البستان لابن مريم(٤٨) (١٩٠٧) وكتاب تعريف الخلف برجال السلف(٤٩) وهو وان كان فى شكل تأليف إلا أنه فى مجمله عبارة عن مقتطفات و اقتباسات من كتب قديمة (١٩٠٧)، ومن ذلك أيضاً رحلة الورتلانى(٥٠) (١٩٠٨) ورحلة الغبرينى(٥١) (١٩١٠) . أما المرحلة الثانية للمساهمة الجزائرية فهى تستغرق مدة طويلة نسبيا (١٩٢٩ — ١٩٦٢) وتتطرق للكتابة عن ماضى الجزائر، ففى هذا المجال نجد الشيخ المبارك بن محمد الإبراهيمى الميلى (١٨٨٠ — ١٩٤٥) يعمل على إخراج كتابة فى تاريخ الجزائر القديم والحديث(٥٢) ، مدفوعا بحماس الحركة الاصلاحية التى كان يشرف عليها بالأغواط (٢٨ — ١٩٢٣) . فنشر الجزء الأول من تاريخه سنة (١٩٢٩) وهو خاص بفترة ما قبل الاسلام ، ثم اتبعه بالجزء الثانى عام ١٩٣٢ الذى أفرده للفترة الاسلامية، ولم يتمكن من إتمام الجزء الثالث الذى عمل على إتمامه ابنه الأستاذ محمد إبراهيمى الميلى ونشر عام ١٩٦٤(٥٣) .

أما الأستاذ توفيق المدنى (١٨٩٩) فانه أصدر بدوره كتاب الجزائر(٥٤) الذى خصص فيه للفترة العثمانية فصلا مركزاً(٥٥) ، ثم أعقبه بكتاب محمد عثمان باشا وخلاصة مفصلة عن العهد التركى بالجزائر ومقتضيات من دفتر التشريفات ومذكرات نقيب الأشراف مع نبذة من فانتور دو بارادى .وذلك عام ١٩٣٨(٥٦) . وأكمل ذلك بإشره أخيرا كتاب : حرب الثلاثمائة سنة بين أسبانيا والجزائر(٥٧) وفى الأخير استكملت وجهة النظر الجزائرية إطارها بلشر عبد الرحمان الجيلالى تاريخ الجزائر العام فى جزءين(٥٨) .

ولعل الشيء المفيد فى وجهة النظر الجزائرية ، وهى ما كانت تمتاز به من صفات وخصائص فهى من هذا الجانب كانت تهدف إلى تحريك الهمم وبث الشعور الوطنى فى نفوس الناشئة ، فالكتاب الجزائريون فى هذا المجال رغم أنهم استمدوا مادة بحثهم من مصادر أوربية وكتب غربية وجهدوا جهودهم

نحو الماضى بنفس القوة والارادة التى واجهوا بها الحاضر ، فالتاريخ بالنسبة لهم ما هو إلا إعادة دائمة للأحداث ، مما يجعل الاستعمار الحديث يتضمن فى طياته نوايا وأهداف الاستعمار القديم(٥٩). وبالتالى يصبح التغلب على مشاكل الحاضر رهين بمعرفة أحداث الماضى وتفهم اتجاهاته، وقد عبر عن هذه الفكرة الشيخ المبارك الميلى عندما كتب فى مقدمة كتابه : بأن التاريخ مرآة الغابر ومرقاة الحاضر(٦٠) . كما أن الشيخ ابن باديس ذكر فى إحدى رسائله التى بعثها إلى المؤلف سنة ١٩٤٧ وذيل بها هذا الأخير كتابه(٦١) هذه العبارة :

« وقفت على الجزء الأول من كتابك «تاريخ الجزائر فى القديم والحديث» فقلت لو سميته « حياة الجزائر » لكان ذلك خليقا ، فهو أول كتاب صور الجزائر فى لغة الضاد صورة كاملة سوية » .

ومما لا شك فيه أن هذا الالتزام بالقضية الوطنية هو الذى دفع بعض الكتاب مثل دى بارمى(٦٢) . وأين الشنب[٦٣]، إلى وصف هؤلاء الجزائرين بأنهم كتاب ملتزمون ومناضلون سيتعملون بطريقة أو بأخرى علم التاريخ لمحاربة نظام سياسى يرونه ممثلا فى الاستعمار الفرنسى .

لكن رغم ما يؤخذ على وجهة النظر هذه من كونها لا تتعدى حسب المفهوم التاريخى الآن مساهمة عاطفية غير متكاملة بالنسبة للفترة العثمانية ، يغلب عليها الطابع السياسى ويتحكم فيها منهج التاريخ التعليمى الهادف ، إلا أننا نرى فيها إنعكاسا صادقا وتعبيراً شجاعا لوجهة النظر الجزائرية ، لايخلو من وزن حقيقى وقيمة علمية بشهادة من وصفها بأنها عمل سياسى ووسيلة نضال وطنى[٦٤]. فهى على الأقل عملية رفض لأحكام وجهة النظر الفرنسية ، تمت بلغة الجزائر القومية رغم الظروف الصعبة والعراقيل والعوائق الجمة التى واجهتها .

نحو مساهمة منهجية موضوعية :

أصبح من الضرورى بعد أن تبدلت ظروف الجزائر بقيام الثورة التحريرية الكبرى والحصول على الاستقلال والعمل على استرجاع شخصية الجزائر العربية الإسلامية تجاوز المساهمة الفرنسية التي لاترى الجزائر سوى من خلال الاحتلال الفرنسى ومشروعات الاستعمار ، وعدم الاكتفاء بالمساهمة الجزائرية التقليدية التى تلبنى مفهوما يعطى صبغة مثالية للأمة الجزائرية أكثر منها واقعية ، وذلك بالاتجاه بالدراسات التاريخية نحو العمل المنهجى الموضوعى المعتمد على مفهوم التاريخ التحليلى الاستفسارى الاستنتاجى (Historie Problème) والابتعاد عن المنهج الذى ظل متبعا والمتمثل بالخصوص فى مفهوم التاريخ القصصى الروائى (Histoire Rècit) الذى يتجاوز فى واقع الأمر تسجيل حياة الحكام وذكر الوقائع والحروب والأحداث وهذا المنحى لا يتأتى إلا عندما يكون مدار البحث الاستفسارى منصبا على قضايا المجتمع وتحاشى الأحداث السياسية والتعليق عليها ، شريطة أن تحدد أهداف ومجالات يسعى لتغطيتها ومعالجتها ، هذه الأهداف التى تبعدنا عن التاريخ الكمى (Historie Qucmtitagive) وتوجهنا نحو تاريخ نوعى (Historie Sérielle) ، وذلك حسب متطلبات المنهج التاريخى الحديث الملائم لطبيعة المصادر العربية والارشيفات التركية (Les Mèthodes de P'histevigraphie Arabe) .

أما شروط العمل فى هذه المساهمة المنهجية الموضوعية فهى تتطلب حسب ما نرى مايلى من النقاط :

(١) تكوين مؤرخين قادرين على استغلال الوثائق والاستفادة منها فى إعادة تاريخ الجزائر العثمانية .

(٢) حصر المادة التاريخية بتقويم مختلف الارشيفات والمصادر الأساسية .

(٣) العمل على نشر الوثائق النادرة فى المجلات والنشريات العلمية، مثل ما جرى به العمل بالمغرب الأقصى بمبادرة من الأستاذ Casterie كاسترى[٦٥]. ومعاونيه.

(٤) توجيه الدراسات التاريخية إلى البحث فى الميادين الحيوية من تاريخ الجزائر العثمانية المتعلقة بالنشاط الاجتماعى باعتباره منطلقا لنا فى المجالات التاريخية الأخرى.

(٥) الاستفادة من التجارب السابقة، وذلك بالتعرف على أفكار ونتائج المساهمة الفرنسية والتقيد بأهداف المساهمة الجزائرية التقليدية، وتحاشى الكتابة باللغة الأجنبية.

وبذلك يمكن إفساح المجال أمام تيار بدأت بالفعل ترتسم ملامحه فى أعمال بعض المؤرخين من الجزائريين وغيرهم، مما يسمح لنا بالقول بأنها بداية حصيلة علمية لازالت تحتاج إلى الرعاية والتكوين والتشجيع.

الحواشي

(1) Berque (J), Le Maghreb l'hier à demain, cahiers Internationaux ces sociologues, Juillet-Decembre, 1964, p. 51.

(2) Djender (M) Introduction à l'histoire de l'Algérie, Alger N.E.D. 1968 p. 65.

(3) Benachenhou (A) L'Etat Algérien en 1830, Algers, S.N.E.D. p. 27.

(4) Mouloud Geid, l'Algérie sous les tures, Tunis S.N.E.D. et M.T.E. 1974 p. 6.

(5) Mantran (R) les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie, note pour une étude plus appprofondie Annuaire d'Aferique du nord, C.R.N.S. aix-en-Provence 1962, p. 244.

(6) Perès (H) Etudes Arabes en Algérie p. 830-1930.

— Degrammont (H.D.) Histoire d'Alger sous la domination Turque Paris, E. Peroux 1887.

(7) Marçais (W). Un Siécle de Recherches Sur le Passé de l'Afrique musulmane, in Histoire et Histonèns de l'Algérie, Paris, F. Alcan 1931. p. 161.

(8) Gzell (S) Introduction, in Histoire et Historiéns de l'Algérie, Paris F. Alcan, 1931, p. 6-7.

(٩) نذكر على سبيل المثال بعض الكتب العامة التى تعكس لنا وجهة النظر هـــذه .

— Degrammont (H.D.) Histoire d'Alger Sous la domination Turque (1515-1830) Paris, leroux, 1887.

— Roy (J.J.E.) Histoire de l'Algérie, depuis les temps les plus ancien Jusqu'à nos jours Tours, mane 1864.

— Cat (E) Petite Histoire de l'Algérie, Tunisè, Maroc, T. I. Alger 1889.

— Mercier (E) Histoire de l'Afrique septentrionale, T III, Paris 1891.

— Galibert (L) Histoire de l'Algérie ancienue et moderne, Paris 1843.

— Garrot (L) Histoire générale de l'Algérie, Alger 1910.

— Péchot (L) Histoire de l'Afrique du nord avant 1830 T III, Alger 1914.

— Hatin (E) Histoire Pihoresque de l'Algérie, Paris 1840.

— Clausolles (P) Histoire pi Horesque, 2e parties, toulouse 1843.

(10) Dan (P) Oistoire de Barbarie et de les corsaires, 2e ed, Paris 1637.

— Dan (P) les Illustres captifs, analysé par Piess et Degrammont, Alger 1884.

(11) Quesné (J.S.), Histoire de l'esclavage en Afrique de P.J. Dumont, Paris 1820.

(12) Marcais (W) op. cit., p. 139.

(13) Gzell (S) op. cit., p. 2.

(١٤) سعد الله ، أبو القاسم ، منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر ، الأصالة ، العدد ١٤ — ١٥ ص ١٢ ١٩٧٣ .

(15) Le Tourneau, op. cit., p. 135-137.
— Gzell (S) op. cit., p. 2-4.

نذكر عن سبيل المثال لا الحصر بعض انتاج هؤلاء القادة والحكام :

(16) Arnaud (A) Histoire des Ouled-Naïl-Oevue Africaine, T 15-16.

Régen ce d'Alger Paris, Gosslin. 1840.

— Esterhazy (W) Notice Historique sur le maghzen d'oran, oran 1849.

(18) Robin (N) note sur l'organisation militaire at administrative des turces dans la grande Kabylie, Revue Africaine 17/1873 p. 132-140 et 196-207.

(19) Flandin (M.J.) notice sur la prise de Possession des trésors de la Régen ce d'Alger Paris, 1848.

(20) Féraud (L) notice Historique sur la tribu des Oulad-Abd-en-Nour constantine 1864 Férand — ce saprara de constantine, Alger. Jourdan, 1887.

(21) Dennée, Précis Historique e tadministrative de la campagne d'Afrique Paris 1830.

(22) Rinn (L) le Rogaume d'Alger sous le sernier Dey, Revue Africaine 41-42/1897-99.

(23) Daumas, sahara Algérien, Paris 1887.

(24) Trumelet, les Français dans le dégert, Paris 1887.

(25) le Tourncau, op. cit., p. 143.

(26) Laloë (F) à propos de l'incendie de la Bibliothèque d'Alexandrie, Par les Arabes, les manuscrits Arabes de constantine, Revue Africaine 66/1925 p. 104.

(27) Baron de Slane, Oapport adressé à M. le Ministre de L'instruction Publique. Suivé de catalogue des manuscrits Arabes les plus important de la Bibliothèque d'Alger et de la Bibliothèque de cid Hamoudi à constantine, Paris, Dupont, s.d.

(28) Laloë, op. cit., p. 106.

(29) Basset (René) les manuscrits Arabes des Bibliothèques des Zaorias de 'Aïn-madhi et Zemaien, de Ourglu et de la 'Adjadja, in Bulletin de correspondance africaine, T III, 1885 p. 211-265 et 465-492.

(30) Basset (R) les manuscrits Arabes de la Zaouiyah d'El-Hamel, giornal della société Asiatica Italiana, t X 1897 p. 43-97.

(31) Basset (R) les manuscrits Arabés du Bachagha de Djelfa, Fontana, Alger 1884.

(٣٢) نذكر من أهم هذه المخطوطات ما يلى :

بمكتبة عين ماضى : المخطوط رقم ٢ والذى يحمل عنوان الطبقة الرابعة من العرب وهم العرب المستعجم من أجل الجبال الناشىء لهذا العهـــد . والمخطوط رقم ٩ الذى عنوانه : الكتاب الثانى فى أخبار العـــرب وأحوالهم ودولهم منذ بدء الخلافة الى هـــذا العهد .

— بمكتب زاوية تماسين : كتاب العدوانى ، الذى نشر ترجمته شارل فـــيرو .

— وبمكتب ورقلة : مخطوط تحت عنوان تقييد ولاية بعض ملوك أولاد علاهم بورجلان .

(33) Vatin (J.C.), l'Algérie en 1830, in Revue Algérienne des sciences Juridiques économiques et Politiques, No. 4, 1970, p. 981.

(34) Commission d'Afrique, Procès-Verbaux et Rapports de la commission d'Afrique, Intituée par Ordonance du Roi de 12-12, 1833. Paris, imp Royale, 1834.

(35) la Société d'Exploration Scientifique de l'Algérie.

(36) Tableau de la Situation des Etablissements français en Algérie.

(37) Publication de documents Algériens, Revue Africaine, T 29, 1885, p. 430.

(38) Cat (E) notes et comptes rendus, Bulletin de correspondance Africaine, Alger, T III, No. 4. 1885, p. 123.

(39) Mantran, op. cit., p. 247.

(40) Djender ,op. cit., p. 75.

(41) le tourneau op. cit., p. 143.

(42) Boyer (P) Introduction à l'histoire Intérieure de la Régence d'Alger, Revue Historique, 1966, p. 316.

(43) Bousquet (Raoul) le Fonds de la gence des concessions d'Afrique et l'Organisation de sarchives du gouvernement général de l'Algérie, in la Révolution française, Revue d'Histoire moderne et contemporaine, No. 5, 1908, p. 389.

(44) Yver, (G), Histoire et Historians, op. cit., p. 267.
— Letournean, op .cit., p. 183.

(٤٥) نذكر على سبيل المثال الجزء الخاص بالجــزائر العثمانية من كتاب الجزائر ماضيا وحاضرا ، التى يحاول فيه المؤلف أن يصل الى أحكام واستنتاجات من خلال مصادر ناقصة ومحدودة ، راجع :

Prenant, André et Autres, l'Algérie Passé et Présent, ch' : IV le cadre et les étapes de la constitution de l'Algérie Actuelle, Paris, éditions Sociales, 1960.

(٤٦) سعد الله أبو القاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية ، بيروت دار الآداب ، ١٩٦٩ .

(٤٧) ابن عمار ، الرحلة الحجازية ، الجزائر ١٩٠٢ .

(٤٨) ابن مريم التلمسانى ، البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن أبى شنب الجزائر ١٩٠٨ .

(٤٩) الحفناوى ، أبو القاسم محمد ، تعريف الخلف برجال السلف ، جـ ٢ ، الجزائر ١٩٠٦ .

(٥٠) الورتلانى (الحسين بن محمد) نزهة الأنظــار فى فضــل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية ، تحقيق ونشر محمد بن أبى شنب ، مطبعة فونتانا الجزائر سنة ١٩٠٨ .

(٥١) الغبرنى أحمد ، عنوان الدراية فيمن كان من العلمــاء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق محمد بن أبى شنب الجزائر ١٩١٠ .

(٥٢) الشــيخ المبارك الميلى ، تاريخ الجزائر فى القــديم والحديث ، الجزء الأول والثانى .

(٥٣) محمد ابراهيمى الميلى ، تاريخ الجزائر فى القــديم والحديث ، الجزء الثالث ــ مكتبة النهضة الجزائرية ١٩٦٤ .

(٥٤) توفيق المدنى (أحمد) كتاب الجزائر ، المطبعة العربية بالجزائر، الجزائر ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م .

(٥٥) خص المؤلف الفترة العثمانية بفضل يتضمن الصــفحات التالية ص ٣٢ ــ ٥٦ .

(٥٦) توفيق المدنى ، أحمد ، محمد عثمان باشا وخلاصة مفصلة عن العهد التركي ، الجزائر ١٩٣٨ .

(٥٧) توفيق المدنى ، أحمد ، حرب الثلاثمائة سنة بين أسبانيا والجزائر ١٤٩٢ — ١٧٩٢ الشركة الوطنية الجزائرية ١٩ .

(٥٨) الجيلالى ، الشيخ عبد الرحمن ، تاريخ الجزائر العام ، الجزائر الأول المطبعة العربية بالجزائر ١٩٥٤ . الجزء الثانى ، المطبعة العربية بالجزائر ١٩٥٥ ، وقد تناول فى هذا الجزء الأخير الفترة العثمانية فى الجزائر.

(59) Benacheneb, Saudadine, Quelques Historiens modernes de l'Algérie, Revue Africaine 100/1956, p. 499.

(٦٠) الشيخ المبارك الميلى ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزء الأول ، ص ١ .

(٦١) نفس المصدر ص ٣٦١ .

(62) Des Parmet, les Oulamas «Oevue Afrique fransaise» (1933).

(63) Benchencle, Saadadine ,op. cit., p. 499.

(٦٤) المصدر السابق ص ٤٩٩ .

(65) Castrie et Autres, les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 15, Vol. Paris, 1905-1927.

عبد الرحمن الجبرتي : المؤرخ المصرى
دراسة فى سيسولوجيا المعرفة

للدكتور عاطف أحمد فؤاد

مدرس علم الاجتماع — كلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر

مقـــدمة :

لعله من المتفق عليه أن المتتبع لتاريخ المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يستطيع أن يستقرأ عدة حقائق لعل من أهمها أن هذه الحقبة قد شهدت عدة أحداث ، من أبرزها ذلك الوهن الذى أصاب الحكم العثمانى وضعف سيطرته على المجتمع المصرى ، ثم محاولة المماليك الاستقلال بمصر وهو الأمر الذى أصابوا فيه نجاحاً لا ينكر ، إلا أن هذا النجاح لم يكتب له الاستمرار نظراً لطبيعة العلاقة القائمة بين جماعات المماليك ، تلك العلاقة التى اتسمت بالصراع ومحاولة استئثار كل فريق بالسلطة .

ولم يكن صراع جماعات المماليك هذا إلا نذيراً بتدخل القوى الأجنبية ولعل فى الحملتين الفرنسية والإنجليزية خير شاهد على ما تذهب إليه .

وتعد تلك الحقبة التى تجلى فيها حكم محمد على من أخصب الحقب التى زخرت بالحوادث وشهدت عدة وقائع كان لها تأثير كبير فى تسيير مجريات الأمور فى المجتمع المصرى فيما بعد .

ولم يكن الإنسان المصرى وسط هذه الحوادث إلا ضحية تلك الصراعات، فهو حائر بين جماعات كثيرة تحاول الاستئثار بالسلطة وشراذم لم يكن همها إلا السيطرة على الحكم، وهو بين هذه وتلك لا يملك إلا السخرية من الحاكم، والتهكم عليه، وهى سخرية الخائف وتهكم المظلوم.

وبين الخوف والظلم يظهر مؤرخنا المصرى عبد الرحمن الجبرتى ذلك المؤرخ الذى تعود قيمته إلى كونه أول من عمل على إحياء حركة التأليف التاريخ فى مصر بعد ابن إياس[1] مسجلا وقائع تلك الحقب، معلناً عن موقف واضح من السلطة، متخذاً من أحداث العصر مواقف وإن اتسقت فى عمومها، إلا أنها قد يبدو عليها التناقض أحياناً، ويتجلى هذا التناقض فى تلك المواقف التى اتخذها من الإنسان المصرى، فهو متعاطف معه أشد ما يكون التعاطف، ساخر منه أشد ما تكون السخرية.

ولعل فى تأرجح الجبرتى فى موقفة من الإنسان المصرى بين التعاطف والسخرية ما يبرر لنا الكشف عن موقف الجبرتى من بعض قضايا عصره والتى سوف تكشف بدورها عن رؤاه الاجتماعية والسياسية من القضيتين الآتيتين:

أولا: الجبرتى والسلطة الحاكمة.

ثانياً: الجبرتى والثورة.

واعتماداً على ما تقدمه لنا مناهج البحث فى علم الاجتماع المعرفة من مناهج وطرائق لعل فى مقدمتها طريقة العزو أو رد الشىء إلى أصوله Tmputationion ثم فكرة العوامل الاجتماعية الوجودية، وأخيراً الطريقة الخاصة باقتفاء الأثر من الزاوية السسيوتاريخية، فإنه ينبغى أولا أن نشير إلى طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى فى الفترة التى عايشها عبد الرحمن الجبرتى، ثم إلى تلك الظروف الخاصة التى صاحبت نشأته من الصغر وحتى مرحلة النمو

ثم تلك المرحلة التى بدأ يمارس فيها حياته العامة حتى يكون حكمنا على تصوراته ورؤاه حكماً موضوعياً فى إطار ظروفه الخاصة وظروف مجتمعه الذى نشأ فى أحضانه ، وذلك تدعيما لمنهج العزو أو طريقة رد الشيء إلى أصوله ، ثم اعتماداً على منهجى الحتمية الاجتماعية الوجودية واقتفاء الأثر من الزاوية السسيو تاريخية .

فالملاحظ المدقق لفترة ما قبل الحملة الفرنسية أو للعصر التركى المملوكى يرى أن المجتمع المصرى منـذ غزاه العثمانيون يسير من سيء إلى أسوأ ، فالأرض للسلطان يوزعها كما شاء على حظوته ومريديه ، ومجتمع بوجه عام يتميز بالطبقية الصارخة فهو يتكون من قوى فوقية وأخرى تحتية « .... أو بعبارة أخرى أقلية أرستقراطية وأكثرية من العاملين فى الأرض فى القرى أو من المشتغلين بالحرف الصناعية فى المدن . وكانت الأقلية أو القوى الفوقية تتألف من الأتراك ، والعثمانيين وبكوات المماليك ، فى حين كانت تتألف القوى التحتية من الفلاحين والصناع من أبناء العرب من المغلوبين على أمرهم والمحرومين من كل شيء والذين وقعت عليهم مغارم الحكم ، فى الوقت الذى استحوذت عليه الأقلية صاحبة الامتيازات على مغانمه »[٢] .

ولم يكن العثمانيون والمماليك إلا « . . . سادة فاتحين ، لهم حق الاستغلال ولهم حق الانتفاع وعلى المحكومين من أهل البلاد أن يشقوا ويكدوا ليقدموا ثمرة كدهم صاغرين لأولئك السادة المستبدين ، ثم أن العثمانيين حكموا مصر بوصفهم أرستقراطية حاكمة لا يعنيهم أن يتدخلوا فى شئون البلاد إلا بالقدر الذى يحقق لهم أكبر قسط من استغلال مواردها ، ولذلك ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالمصريين ، إذا نظروا إليهم فإنما ينظروا شذراً ، وإذا خاطبوهم أو عاملوهم ، فإنما يخاطبونهم لجمع المال ويعاملونهم لامتصاص أقصى ما يمكن امتصاصه من ثرواتهم وخيرات بلادهم »[٣] .

ولعل العلاقة الوحيدة التي كانت قائمة بين الحاكم والمحكوم أو بين الشعب المصري آنذاك وحكامه علاقة تنهض في واقع الأمر على جمع الضرائب من جهة، وعلى الحذر وعدم الثقة والاحتقار من جهة أخرى، الأمر الذي انعكس على الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المصري آنذاك.

ومما يؤكد هذا ما يشير إليه عبد الرحمن الجبرتي حيث يروى لنا أنه سنة اثنتين ومائتين وألف، وفى الخامس منه «... طلب اسماعيل بك دراهم قرضه مبلغاً كبيراً فوزعوا منها جانباً على تجار البن والبهار وجانباً على الذين يقرضون البن بالمرابحة للمضطرين، وجانباً على نصارى القبط والأروام والشوام وعلى طوائف المغاربة بطولون والغورية وعلى المتسببين فى الغلال بالسواحل والرقع، وكذلك بياعو القطن والبطانة والقماش والمنجدون واليهود وغيرهم، فانزعج الناس وأغلقوا وكائل البن والغورية ودكاكين الميدانى»[4].

نلاحظ من ذلك أن الضرائب كانت تفرض جزافاً وفى أى وقت ولأى سبب، وأن هناك طوائف معينة كانت تتحمل عبء هذه الضرائب وحدها دون غيرها وهى الطبقات الفقيرة فى المجتمع كالفلاحين وصغار التجار والحرفيين وغيرهم.

وإذا كانت الحملة الفرنسية تعد أول إطلالة حقيقية على الثقافة الغربية باعتبارها أول احتكاك مباشر بين المجتمع المصرى وبين الحضارة الاوروبية الغربية الحديثة، إلا أنها لم تحدث تغييرات جذرية للبناء الاجتماعي الاقتصادى المجتمع المصرى رغم تلك المشروعات التى اضطلع بها الفرنسيون أيام نابليون ومن خلفه فى مصر كمشروع كفاريللى للإصلاح الزراعى ومشروع مينو لإصلاح نظام ملكية الأرض.

والواقع أن معظم هذه المشروعات لم تنفذ بل إن حال الفلاحين فى القرى والحرفيين وصغار التجار فى المدن ازدادت سوءاً نظراً للضرائب الباهظة التى

كان يفرضها الفرنسيون بشكل لافت دون تمييز ، ودون الأخذ فى الاعتبار الظروف الاقتصادية التى كان يحياها فقراء الشعب المصرى .

أما عن عصر محمد على فهو من العصور التى كانت ولا زالت تثير كثيراً من الجدل واختلاف وجهات النظر ، ولا سيما عند المقابلة بين المنجزات المادية التى حققها هذا العصر ، وبين انعكاس هذه المنجزات على طبقات الشعب وفئاته وخاصة فى إحساس هذا الشعب بالعدالة والحرية .

لقد ألغى محمد على نظام الالتزام وهو من أسوأ الأنظمة الزراعية التى عرفتها مصر ، ودمر بذلك هذه الطبقة القديمة التى كانت تسيطر على الأراضى وتستغلها فى ظل هذا النظام ، « . . . . ومهد الطريق لظهور طبقة جديدة من الملاك . ولكى يوفر التوازن لحكمه أخذ يجرب أشكالا عديدة من حيازة الأرض الغرض منها جميعاً زيادة دخله .

وقد نشأت الضياع الخاصة الكبيرة ونمت ، وهى إحدى السمات المميزة لمصر الحديثة فى عصره »[٥] .

وقد يحمد البعض لمحمد على أنه وزع بعض الأراضى على الفلاحين ، إلا أن هذا التوزيع لم يكن يعنى فى واقع الأمر تمليكاً ، حيث لم يتمتع مالكو الأرض إلا بحق الانتفاع بها فلم يكن لهم حق بيعها أو التصرف فيها .

والحقيقة أن ما وزعه محمد على من أراض على الفلاحين وهب فى مقابله آلاف الأفدنة إلى أقاربه وأتباعه على نحو ما يذهب شارل عيسوى[٦] .

ولقد خلق محمد على بذلك طبقة مالكة من عائلته ومحاسيبه ومعاونيه « .... الذين يهللون لكل ما يقوم به الباشا ، وفى أحيان كثيرة كانوا مغامرين يلتمسون تحقيق مصالحهم الخاصة وزيادة مكاسبهم الشخصية بمداهنته وتغذية أوهام القوة التى تجول بخاطره ويشجعونه على القيام بأعمال جديدة لا تحتملها طاقته ولا تعود على البلاد بأى نفع »[٧] .

معنى ذلك أنه قد تربع على قمة البناء الطبقى للمجتمع المصرى محمد على وأسرته وكبار معاونيه من الأتراك وغيرهم ، فضلا عن كبار الأعيان والضباط وفى قاع هذا البناء نجد الفلاحين والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا الأمرين، ولنا فى حال الفلاحين خير شاهد على ما نذهب إليه ، إذ أنه على الرغم من تخلص الفلاح من المماليك والملتزمين ، إلا أنه لم يجر أى تحسين فى حياته فهو « . . . مرتبط بقطعة أرضه كما كان فى عهد المماليك ، وكان يوجب عليه أن يعمل ٦٠ يوما من كل عام سخرة فى أراضى محمد على وأتباعه . أما ما كان يدفعه من ضرائب الملتزمين ، فصار يقوم بجبايتها ، جباة الدولة ، ولكن بنسب أعلى ، وكان قد أعفى الفلاح من الخدمة العسكرية ، فى عهد المماليك أما الآن فقد أصبح الفلاح معرضا للتجنيد العسكرى ومهدداً بالخدمة لسنوات طويله فى الجيش الاقطاعى من التدريب تحت السياط وأخيراً لم يكن فى سعته التصرف بحرية بمنتجاته ، إذ كان ملزماً بتسليم القسم الأكبر منها إلى محتكرى الحكومة ، وذلك بأسعار منخفضة »(٨) .

ويشير الجبرتى مؤكداً تلك الحال التى آل إليها فلاحو مصر أيام حكم محمد على إلى أنه فى أكتوبر ١٨٠٧ م(*) قرر الباشا ومعاونوه « . . . فردة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى . وان لم يجد المعهنون للطلب شيئاً من الدراهم عند الفلاحين أخذوا ، مواشيهم وأبقارهم ليأتى أربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، ويتركونها بالجوع والعطش . فعند يبيعونها على الجزارين ويرمونها عليهم قهراً بأقصى القيمة ، ويلزمهم بإحضار الثمن . . . فان تراخوا وعجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب »(٩) .

ولقد كانت الطبقية والتحيز وعـــدم المساواة سمة تميز عصر محمد على ، ويضرب لنا مؤرخنا الجبرتى مثلا فى الطبقية والمحاباة حيث يشير إلى عملية فرض ضرائب المكوس (الجمرك) فيقول « ومنها أن ديوان المكس ببولاق

— الذى يعبرون عنه بالكمرك — لم يزل يتزايد فيه المتزايدون حتى أوصلوه إلى ألف وخمسمائة كيس فى السنة . وكان فى زمن المصريين يؤدى من يلتزمه ثلاثين كيسا ، مع محاباة الكثير من الناس ، والعفو على كثير من البضائع لمن ينسب إلى الأمراء وأصحاب الوجاهة من أهل العلم وغيرهم .

فلا يتعرضون له ، ولو تحامى فى بعض أتباعهم ولو بالكذب ، ويعاملون غيرهم بالرفق ، مع التجاوز الكثير ، ولا يفتشون المتاع ولا رباط الشيء المحزوم . . . بل على الصندوق أو المحزوم قد يسير معلوم »[١٠] .

وتحتم علينا الرؤية الموضوعية والدراسة الجادة لفكر عبد الرحمن الجبرتى ورؤاه ، الاجتماعية والسياسية ألا نغفل تلك الظروف الخاصة التى صاحبت نشأة الرجل ، ذلك المؤرخ المصرى الذى استطاع أن يقدم لنا صورة كاملة للمجتمع المصرى العثمانى بما فيه حكم المماليك والحكم الفرنسى فضلا عن حكم محمد على . والحق أن الجبرتى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الإسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة[١١] .

ولد الجبرتى لأب ثرى خلف له ميراثاً ضخماً ماديا وأدبياً . حيث كان والده من أغنياء عصره فضلا عن كونه عالماً من علماء الأزهر ذوى الشهرة والصيت ، حيث كان منزله محراباً للباحثين والعلماء . ولقد ورث الشيخ عبد الرحمن هذا التراث برمته الأمر الذى أضفى عليه مكانة بارزة فى المجتمع القاهرى ولا سيما من حيث صلاته الواسعة بأصحاب السلطان من الأمراء والأجناد والتجار . وفى هذه البيئة العلمية — المترفه نوعا ما نشأ عبد الرحمن الجبرتى ، وتقدم الصفوف الأولى من علماء زمانه[١٢] .

ولا أشك أننا فى ضوء طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى

آنذاك ، ومن خلال ما تكشف لنا عنه السيرة الذاتية لعبد الرحمن الجبرتي من ظروف خاصة صاحبت نشأة الرجل وانعكست آثارها على حياته فيما بعد لا سيما في تلك المكانة الاجتماعية والعلمية التي أكسبته وضعاً خاصاً بين أقرانه من أعضاء الهيئة العلمية ، نستطيع أن نكشف عن طبيعة الفكرين الاجتماعي والسياسي للجبرتي بشكل موضوعي وذلك من خلال قضيتي الدراسة المشار إليهما آنفاً .

(أولا) الجبرتي والسلطة الحاكمة

يعد الجبرتي من ذلك الطراز من المؤرخين الذين يعتبرون ظاهرة متميزة في وقت كانت فيه كتابة التاريخ كما يذهب الجبرتي نفسه من « شغل البطالين وأساطير الأولين » .

ولقد خلف لنا الجبرتي تراثاً عظيما سجل فيه أحداث حقبة من أخصب حقب المجتمع المصري وأغزرها من حيث الأحداث وتعقد الحوادث .

ولا شك أنه رغم تميز الجبرتي وتفرده واتسامه بالموضوعية ، إلا أن نظرته للأمور أحياناً ما كانت تتلون بميوله الخاصة ، وما كانت تلك الميول إلا نتاجاً للظروف الموضوعية لمؤرخنا الكبير .

ولعل من أهم تلك القضايا التي اختلطت فيها لدى الجبرتي الرؤية الذاتية بالرؤية ، الموضوعية هي تلك القضية الخاصة بموقفه من السلطة الحاكمة وتصوره عن طبيعة الحاكم العادل .

وموقف الجبرتي من السلطة الحاكمة في عصره ، موقف متأرجح بين تأييد ورفض ، ولعل هذا التأرجح يرجع إلى طبيعة السلطة في كل مرحلة من المراحل التي عاشها مؤرخنا الشيخ . إلا أن هذا الموقف - أي موقفه من

السلطة - تبدو عليه بعض السمات العامة لعل من أهمها رفضه للظلم وحبه وولعه الشديد بالعدالة وهو الأمر الذى سيتضح جلياً عندما نكشف عن موقف الجبرتى من محمد على .

ولعل ولعه وحبه الشديد للعدالة هو الذى جعله يتخذ من المماليك موقفاً متشدداً ينم عن احتقار واستهجان لتصرفاتهم فى الحكم والإدارة ولا سيما فيما كانوا يمارسونه من ظلم وتعنت على أفراد الشعب ، ويسرد لنا الجبرتى تلك القصة التى تبين مدى ظلم المماليك وبجملها « أن الشيخ الشرقاوى كانت له حصة فى قرية بشرقية بلبيس حضر إليها أهلها وشكوا من محمد بك الألفى وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا إليهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بك وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك ... فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مراده ، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .... »[١٣] .

نستشف من ذلك النص مدى الظلم اللاحق بفئات الشعب من قبل المماليك وعدم خضوع الشعب أو خضوعه لهذا الظلم ، بل قاومه ولم يهدأ إلا بعد توقيع أول ميثاق يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم وهى « ... الأمر الذى دفع بعض المهتمين بالتاريخ أن يشبهوا هذه الحجة التى فرض عليها الباشا ووقع عليها ابراهيم ومراد بالماجنا كارتا »[١٤] .

ولعل موقف الجبرتى من هذه الحادثة هو موقف المعارض للسلطة المملوكية والمؤيد للشعب ، وهو الأمر الذى تأكد أيضاً من تعاطفه الشديد

مع (ثورة) « . . . . أهالى الحسينية ضد ظلم أحد صناجق مراد بك فى أواخر عام ١٧٨٥ »[١٥] .

فالظلم عنده أمر مستهجن لأن (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنه ، قيام ليلها ، وصيام نهارها)[١٦] . فإقامة الشريعة والرفق بالرعية هما من أهم الصفات التى يرى الجبرتى ضرورة توفرها لدى الحاكم العادل[١٧] .

لذلك لا نجد غرابة فى حملته الشديدة على المماليك ، ورغم اتهام البعض له بأنه كان يحارب المماليك ولكن من بين صفوفهم ، حيث كان مملوكى الروح[١٨] ، ولكن موقفه بوجه عام من المماليك هو موقف المعارض المستهجن لتصرفاتهم وسوء إدارتهم وظلم حكمهم .

إلا أن موقف الجبرتى من الحملة الفرنسية ومن السلطة الفرنسية الحاكمة موقف يتسم بالإعجاب الشديد والانبهار بمنجزاتهم وحبهم الشديد للعلم فضلا عن إعجابه الشديد بنظم الحكم التى أرسوها وفى أسلوب محاكماتهم الذى اتسم بالعدل لا سيما فى محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر والتى يصفها الجبرتى وهو مأخوذ بنظامها وأسلوب سير الإجراءات فيها .

إلا أن الجبرتى رغم إعجابه هذا رأى فى غزوهم لمصر اعتداء صارخاً وتمنى انتهاء حكمهم ولكنه — كما يذهب أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — « . . . لم يشارك فى مقاومتهم أو الثورة عليهم ، بل لا نرى له — وهو من بين المتصدرين من علماء تلك الأيام موقفاً يتسم بالمعارضة للفرنسيين كما نرى من الشرقاوى أو السادات مثلا . ولكى لا نذهب إلى حد اتهام الجبرتى بالتعاون مع الفرنسيين »[١٩] .

ولكن فى حقيقة الأمر إذا كان الشيخ الجبرتى لم يشارك مشاركة إيجابية فى مقاومة الفرنسيين أو الثورة عليهم ، إلا أنه ظل دائماً يندد ببعض مواقفهم

التى اتسمت بالظلم وخاصة فيما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة وفى أوقات متقاربة بالقوة والقهر ، وكان نصيب الحرفيين وصغار التجار والفلاحين من هذه الضرائب كبيراً ، بل أن هذه الطبقات بالذات كانت المنهل الذى كان ينهل منه الفرنسيون . ويروى لنا الجبرتى مؤكداً ما نذهب إليه أنه « .... فى يوم السبت سادس عشر ، أرسلوا تنابية إلى أرباب الحرف والصنائع يطلب دراهم وزعت عليهم مجموعها خمسمائة كيس ، فضج الناس وتكدروا ، ومع ما هم فيه من وقف الحال وغلاء الأسعار فى كل شيء ، وأصبحوا على ذلك يوم الأحد ، فلم يفتحوا الحوانيت ، وانتظروا ما يفعل بهم ، وحضر منهم طائفة إلى الجامع الأزهر ، ومر الأغا والوالى ينادون بالأمان ، وفتح الدكاكين فلم يفتح منهم إلا القليل .... وفيه وقعت معركة بسوق الصاغة بين بعض العسكر الذين يتحشرون فى أيام الأسواق فى الدلالين والباعة ويعطلون عليهم دلالاتهم وصناعاتهم ومعايشهم ، وضربوا على بعضهم بالرصاص ، ففزع الناس وحصلت كوشة وظن من لا يعلم الحقيقة من العسكر أنها قومة ، فهربوا ، يميناً وشمالا وطلبوا النجاة والتوارى »[٢٠] .

ويدلل الجبرتى فى الرواية الآتية على بعض مواقف الفرنسيين التى اتسمت بالظلم والتعنت فيقول « فيه اشتد أمر المطالبة بالمال ، وعين لذلك رجل نصرانى قبطى سمى شكر الله ، فنزل بالناس ما لا يوصف ، فكان يدخل إلى دار أى شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القرم ، فيأمر بهدم الدار إن لم يدفعوا المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصاً ما فعله ببولاق ، فإنه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والمشاق ، ينوع عليهم العذاب ، ثم رجع إلى مصر يفعل كذلك (وفيه) أغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة فى يوم واحد وختموا على جميعها ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والعطر والدخان خاناً بعد خان[٢١] » .

ويؤكد الجبرتي أيضاً على ظلم الفرنسيين وعدم امتثالهم للعدل فيما يرويه لنا أنه حدث في شهر جمادى الثانية ١٢٥١ أن « حضر رجل إلى الديوان مستغيث بأهله وأن قاق الفرنسيين قبض على ولده وحبسه عند قائمقام وهو رجل زيات وسبب ذلك أن امرأة جاءت إليه لتشترى سمناً فقال لها لم يكن عندي سمن ، فكررت عليه حتى ضج منها ، فقالت له كأنك تدخره حتى تبيعه على العثملي ، تريد بذلك السخرية ، فقال لها نعم رغماً عن أنفك وأنف الفرنسيين ، فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى أنهوه إلى قائمقام ، فأحضره وحبسه ويقول أبوه أخاف أن يقتلوه ، فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئناً فإن الفرنساوية لا يظلمون كل الظلم ، فلما كان اليوم الثاني قتل ذلك ومعه أربعة لا يدرى ذنبهم وذهبوا ليوم مضى »[٢٢] .

ولعل هذه الحوادث وغيرها هي التي دفعت الجبرتي رغم إعجابه ببعض منجزات الفرنسيين إلى أن يتهمهم بالظلم ، وأن إعجابه بهم لم يتجاوز حد الإشادة بهذه المنجزات فضلا عن إعجابه ببعض المواقف التي يرى أنها تتسم بالعدالة على نحو ما سوف نعرضه بعد ذلك . ويتضح موقفه المعارض هذا في تعليقه على ذلك البيان أو المنشور الأول لنابليون الذي قال فيه (أنني ما قدمت لكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين) . ويعلق الجبرتي على هذه العبارة بقوله « هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها »[٢٣] .

وما زال الجبرتي يروى لنا مظالم الفرنسيين فيذهب إلى أنه بعد ثورة القاهرة الأولى قرر الفرنسيون فردة وغرامة على العلماء والأهالي وقال العلماء « فإذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم كسكين الفتنة ولا غير ذلك ، فما فائدة رئاستكم ، وإيش يكون نفعكم ؟ وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر ، لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا .... فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحارب بلدكم وسبي

حريمكم وأولادكم ، ولكن حيث أعطيناكم الأمان فلا ننقض إمامنا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال . فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك، عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانه عنها خمس عشرة خزنة رومى بثلاث عشرة خزنة مصرى ، منها خمسمائة على مائتين على الشيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون أيضاً ، والشيخ محمد ابن الجوهرى خمسون ألفاً ، وأخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً ، والشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفاً والشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفاً ، من ذلك نصيب نهب دور الفارين مع العثملى ، مثل المحروقى والشيخ عمر مكرم وحسين أغا شنن . وما بقى تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون ، عندنا منكم خمسة عشر شخصاً . انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ »(٢٤) .

ولم يسلم من هذه الغرامة فرد أو طبقة أو طائفة حيث وزعت على « . . . الملتزمين وأصحاب الحرف ، وحتى على الحواة والقرداتية ، والمحبظين والتجار بالغورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم وكل طائفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين ألف فرانه وأربعين ألف. كذلك باعوا التبناك والدخان والصابون ،والخردجية والعطارون والزياتون والدواءون والجزارون والمزينون وجميع الصنائع والحرف(٢٥) .

إلا أن مؤرخنا الشيخ رغم سخطه الشديد على تلك المظالم التى ارتكبها الفرنسيون قبل فئات الشعب المصرى ، يحمد لهم بعض المواقف ، فضلا عن الموقف الخاص بمحاكمة سليمان الحلبى وانبهاره بسير المحاكمة ونظامها ، فإنه يذكر لنا حادثة أخرى تشير إلى امتثال الفرنسيين فى بعض المواقف إلى العدل وتدلل من جهة أخرى على الموضوعية النسبية التى اتسمت بها روايات الجبرتى، فيقول الجبرتى إنه فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١(*) حدث أن « . . . شنق الفرنساوية شخصاً منهم على شجرة ببركة الأزبكية قيل أنه سرق »(٢٦) .

الجبرتى إذن لم يملك إلا القلم لكى يعبر به عن سخطه وعدم رضائه عن الحكم الفرنسى بوجه عام، وقد يرجع السبب فى هذا إلى تخوفه مما قد يسببه له هذا السلوك الإيجابى ضد الفرنسيين من بعض الأضرار الخاصة فآثر السلامة نظراً لما يتمتع به من مكانة خاصة فى المجتمع أورثه إياه والده، هذا فضلا عما آل إليه مصير غيره من العلماء الذين عارضوا الحكم الفرنسى علناً كالشيخ السادات مثلا الذى سجن كرهينة لدى الفرنسيين حتى يدفع المشايخ قدراً معيناً من المال كعقاب لهم وللمصريين على ما صدر منهم أثناء ثورة القاهرة الأولى :

ولعل هذا السلوك المحافظ من قبل الجبرتى تجاه الحكم الفرنسى ، الذى يضمر فى طياته إعجابا بمنجزاتهم المادية والعلمية ونفوراً من سلوكهم تجاه الشعب وظلمهم إياه، كان نتاجاً لتلك الثقافة التى عاش فى ظلها الرجل، « .... سواء تلك التى جناها على يد والده أو من خلال دراسته واشتغاله بالتاريخ إلى جانب الخبرة والتجربة اللتين كسبهما من حياته العامة والخاصة أن صارت للشيخ فكرة محددة فى أصول الدولة والسياسة شكلت موقفه من الحوادث التى شهدها وتأثرت بها الأحكام التى أصدرها على المسئولين فى عهده »(٢٧) .

إلا أنه مما يحير بالنسبة للجبرتى أنه لم يذكر اسمه من بين تلك الأسماء التى تكون منها أول ديوان أنشأه نابليون فى مصر وهو أمر أكده كثير من الباحثين والمؤرخين(*) ، فيشير الجبرتى إلى أنه لما اجتمع نابليون مع مندوبين من العلماء والمشايخ قال لهم « .... أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، وأخذوا مال التجار، ومال السلطان .... وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية، فيكونوا مطمئنين، وفى مساكنهم مرتاحين إلى آخر ما ذكرناه . ثم قال نابليون لهم :

« لازم أن المشايخ والشرباجية يأتون إلينا لنرتب معهم ديواناً منتخبة من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمر » .

ثم يشير عبد الرحمن الجبرتى إلى تلك العناصر التى تكون منها هذا الديوان والتى انحصرت فى العلماء والمشايخ : « وفى يوم الخميس ثالث عشر من صفر طلبوا المشايخ والوجاقلية عند بعض رؤوسهم وعينوا عشرة أنفار من المشايخ للديوان وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليــــل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهـدى ، والشيخ موسى السرسى ، والسيد مصطفى الدمنهورى ، والشيخ أحمد العريشى ، والشيخ يوسف بك كتخدا الباشا ، والقاضى وعملوا محمد آغا المسلمانى أغاة مستحفظان ، وعلى أغا الشعراوى زعيم مصر ، وحسن أغا محرم أمين احتساب ، وذلك بإشارة أرباب الديوان ، فإنهم كانوا من تقليد المناصب لجنس المماليك ، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا الأتراك ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء الجماعة من أرباب البيوت القديمة »(٢٨) .

ولسنا ندرى السبب فى تجاهل الجبرتى لاسمه حين ذكر أسمـــــاء أعضاء الديوان ، هل هو خوف من حكم التاريخ عليه باعتباره متعاوناً مع الفرنسيين ، أم هو دليل على عدم رضاه عن الديوان أو عن فكرة التعاون مع الفرنسيين على الإطلاق أياً كان مستوى التعاون معهم ، رغم أن هذا الديوان كان يعد نواة النظام شورى « .... لم تكن تعرفه البلاد من قبل ولا سيما إذا لاحظنا أنه وضع سنة ١٧٩٨ فى أواخر القرن الثامن عشر ، ففى ذلك الحين لم يكن النظام الدستورى مألوفاً فى الشرق . بل كان الحكم المطلع القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام هو السائد فى بلاد الشرق قاطبة »(٢٩) .

ثم كان موقفه من محمد على ، وهو موقف يتسم فى عمومه بالمعارضة الشديدة ، إلا أنه مع ذلك لم يستطع إلا أن يشيد بمحمد على وخاصة فيما اتصف به من ذكاء ودهاء لدرجة أنه قد أشار بأن لمحمد على مندوحه لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان . ولكن مفتاح فهم علاقة الجبرتى بمحمد على يكمن فى تصوروى فيما

أشار إليه الجبرتي من أن محمد علي لو « وفقه الله شيء من العـــدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

فالظلم إذن وفقدان العدالة كان سبباً في ذلك الموقف المتشدد الذي وقفه الجبرتي من حكم محمد عـلي ، رغم ما قدمه الأخير لمصر من أفضال لم يستطع إنكارها عبدالرحمن الجبرتي نفسه ويتضمن ذلك حين « . . . بنى محمد علي حائطين في رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطفي الرمال وقت ضعف النيل بحيث تعطب المراكب وتتلف أموال المسافرين أكبره الجبرتي ووصف ما قام به (من أعظم الهمم المملوكية التي لم يسبق لمثلها »[٣٠] .

وإذا كان الجبرتي ينتمي إلى فئة متميزة في المجتمع ، هي فئة العلماء ، إلى جانب غناه وتميزه الاجتماعي والاقتصادي ، وهو الأمر الذي جعل البعض يعزو السبب في موقف الجبرتي المتشدد من محمد علي إلى أن الإجراء التي اتخذها سواء أ كانت اقتصادية أو اجتماعية قد مسته ومست الطبقة التي ينتمي إليها ، إلا أنه من ذلك لم يقف هذا الموقف المعارض من محمد علي كنتيجة لما أصاب طبقته أو هو شخصياً من إجراءات محمد علي ، أو ضيقه بأسلوب محمد علي في التفريق بين العلماء وفتكه بمماليك عام ١٨١١م فحسب وإنما أيضاً لما أصاب الطبقات الأخرى في المجتمع لا سيما الطبقات الكادحة كالفلاحين والحرفيين وصغار التجار ، فهو يسوق لنا مثلا على مدى الظلم والقهر الذي عاش في ظله الفلاح المصري إبان حكم محمد علي ، فيقول « . . . وفي أثناء ذلك : قرروا أيضاً فردة غلال وسمك وشعير وفول عـلى البلاد والقرى . وإن لم يجد المعينون للطلب شيئاً من الدراهم عنـد الفلاحين أخذوا مواشيهم وأبقارهم ليأتي اربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويرمونها عليهم قهراً بأقصى القيمة ، ويلزمونهم بإحضار الثمن . . . . فإن تراخوا أو عجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب »[٣١] .

ويدلل الجبرتى على مدى تعنت جند محمد على وظلمهم فيقول إنهم « ... زادوا فى الطنبور نغمات ، وهو انهم صاروا يتتبعون أولاد البلد ، وأرباب الصنائع الذين لهم نسبة قديمة بالقرى ، وذلك بإغراء اتباعهم وأعوانهم ، فيكون الشخص جالساً فى حانوته وصناعته فما يشعر إلا والأعوال محيطون به ويطلبونه إلى مخدومهم فإن امتنع أو التكأ ، سحبوه بالقهر وأدخلوه إلى الحبس ، وهو لا يعرف له ديناً . فيقول : «فيقولون له» طين فلاحتك .... من مدى سلتين لم تدفعه ، وقدره كذا وكذا ، فيقال له : ألست فلاناً .... الصبراوى أو المنياوى مثلا «فيقول لهم» هذه نسبة قديمة سرت إلى من عمى أو خالى أو جدى ...

فلا يقبل منه ، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به ، أو يجد شافعاً يصالح عليه . وقد وقع ذلك لكثير من المتسببين والتجار وصناع الحرير وغيرهم »[٣٢] .

ونحن بذلك لا نجد ذلك التعالى الفكرى أو الطبق لدى الجبرتى ، أو لا نجد فيه تلك البرجوازية الفكرية أو الاقتصاديه[٣٣] التى جعلته يقف من أحداث عصره موقفاً تمليه عليه هذه الانتماءات الفكرية والاقتصادية فهو فى الوقت الذى يعيب فيه على محمد على ومعاونيه إجراءاتهم التى أصابت فئة العلماء والملتزمون ينعى عليه أيضاً إجراءاته التعسفية ضد الفلاحين والحرفيين وصغار التجار .

ولعل ما ساقه لنا الجبرتى وما سوف يسوقه لنا ويضربه لنا من أمثال يجعلنا لا نتفق كثيراً مع ما ذكره محمود متولى من أن قارىء الجبرتى يستطيع أن يستخلص « .... إنه كان بورجوازى التفكير حيث تظهر اهتماماته بالكتابة عن الطبقة الراقية والأعيان أكثر من الاهتمام بالعامة والذين لم يغفل فى ذكر أحداثهم »[٣٤] .

إلا أن متولى يذهب فى نص آخر إلى أن الجبرتى رغم كونه بورجوازياً

إلا أنه كان « ... غير مستغل ومتعاطف وان كان يستنكر بعض تصرفات الرعاع إلا أن ذلك لم يمنعه من الدفاع عنهم أمام ظلم الحاكم وجبروته فى كتاباته »[٣٥] .

فمتولى هنا رغم تقريره بأن الجبرتى قد اهتم بالطبقة الراقية(*) من حيث الكتابة والتأريخ إلا أنه لم يستطع انكار تعاطفه مع العامة ووقوفه معهم ضد الحكام .

ولم يكن الجبرتى بظالم لمحمد على فهو يقـــرر ما هو واقع من حوادث ووقائع تشهد جلها بظلم الحاكم ومعاونيه ، فيذهب إلى ان كتخدا الباشا كان « ... يتنوع فى استجلاب الأموال وتحايل فى استخراجها بأنواع من الحيل فمنها : « أنه يرسل إلى أهل حرفة من الحرف ، ويأمرهم ببيع بضاعتهم بنصف ثمنها ، ويظهر أنه يريد الشفقة والرأفة بالناس ، ويرخص لهم أسعار المبيعات) ، وأن أرباب الحرف تعدوا الحدود فى غلاء الأسعار . فيجتمع أهل الحرفة ويضجون ، ويأتون بدفاترهم وبيان رأس مالهم ، وما ينضاف إليه من غلو الأجر فى البحر والبر .... فلا يسمع لقولهم ، ولا يقبل لهم عذراً ، ويأمر بهم إلى الحبس . فعند ذلك يطلبون الخلاص ويصلحون على أنفسهم بقدر من المال يدفعونه ويوزعون ذلك على أفرادهم فيما بينهم . ثم يزيدون فى سعر تلك البضاعة ليعوضوا غرامتهم من الناس ... معتذرين بتلك الغرامة وما حل بهم من الخسارة ، ثم تستمر الزيادة على الدوام »[٣٦] .

فالحرفيون وصغار التجار والفلاحون كانوا من أكثر طبقات المجتمع تعرضاً للظلم والاضطهاد ، ولنا فى حال الفلاح خير مثل على ما نذهب إليه . فالسخرة والتجنيد بالقهر فضلا عن الفرض الجزافى للضرائب كلها أمور جعلت من الفلاح المصرى آنذاك ضحية لظلم الحاكم وتعنته .

ويدلل لنا اليوزباشي نورمان في كتاب له طبع في مارس ١٩٠٢ عن نظام الجندية وأسلوب التجنيد أيام حكم محمد على : « وكنت أرى جماعاتهم تمر بي كل يوم ، وأنا جالساً إلى قهوة تحت دارى بحى الأزبكية ، في رتل طويل يسوقه الباشا بوزوق إلى القشلاقات سوق العائمة ، منظرهم يفتت الأكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهليهم ، ومن بين أحضان الحرية ، يسيرون مثنى ، مثنى مربوطين برقابهم إلى حبل من مسلة ، يمتد على طول الرتل ، فتيه ترتسم على وجوههم وفي أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع لاتكاد تستر عورتهم أسمال قذرة كانت فيما مضى هدوماً زرقاء »[٣٧] .

فلم يكن الجبرتي في هذا متجنياً على محمد على فهاهو اليوزباشي نورمان يؤكد تلك الحال التي آل إليها الفلاح المصري ، وها هو ادوارد لين الذي عاصر عهد محمد على يحكي لنا قصة الفلاح الذي قابل الباشا وهو في طريق عودته من الاسكندرية إلى القاهرة فشكا له فقره وسوء حاله فأصدر محمد على أمره بأن على أغنى رجل في القرية أن يعطيه بقرة يعيش منها . فيتهكم لين على محمد على ويقول هاهى العدالة كما يفهمها الباشا يحسن إلى فقيره ليس من ماله الخاص وإنما من مال غيره »[٣٨] .

ويشير لنا لين أيضاً إلى ما كان يتمتع به محمد على من سلطة مطلقة ، حيث كان من حقه أن يقتل من يشاء من رعيته دون محاكمة ودون إبداء السبب ، وإذا أشار بيده بحركة أفقية أطاح السيف برأس من يريد »[٣٩] .

فإذا كانت نشأة الجبرتي وانتماءاته الفكرية والطبقية قد انعكست آثارها على موقفه من محمد على نظراً لما أصابه وأصاب طبقته من ضرر سببته لهم اجراءاته الاقتصادية ، فهل كان ادوارد لين اليوزباشي نورمان وغيرهما لهما مصلحة في اتخاذ هذا الموقف من محمد على وطبيعة نظام الحكم الذي كان سائداً آنذاك ؟

ويعزو البعض السبب فى ذلك الموقف الذى اتخذه الجبرتى من محمد على إلى أنه لم يدرك طبيعة التغير الذى أحدثه، وانه راح « . . . يقيس الأمور بمقياس الأخلاق وحدها، دون أن يقدر كنه التغيير أو دواعيه وبواعثه . . . والحق ان الجبرتى عاش من حكم محمد على سنواته العشرين الأولى ، وهو السنوات التى عنى فيها محمد على بتحطيم مقومات البناء القديم ليبنى بناءه الجديد . وسنو الهدم دائماً يشوبها العنف والقسوة والمصادرة . وهذه كلها أمور سجلها الجبرتى ناقداً ساخطاً وان لم يع ما وراءها من قصد »(٤٠) .

والحقيقة ان هذه القضية ـ قضية عدم إدراك الجبرتى لطبيعة التغير الذى أحدثه محمد على ـ فى حاجة إلى مناقشة . فالواقع انه ليس دفاعاً عن الجبرتى ان نقول ان فهم طبيعة علاقته بمحمد على يكمن فى معنى العدالة كما يفهمه الجبرتى وهو عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها . وهنا تلعب نشأته الدينية دوراً فى تحديد هذا المعنى ، كذلك تأكيده على أن سبب هلاك الحاكم هو (أطراح ذوى الفضائل ، واصطناع ذوى الرذائل والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح)، فإذا كان هذا هو تصور الجبرتى للعدالة وللحاكم العادل فلا غرابة إذن إذا اتخذ الجبرتى هذا الموقف المتشدد من محمد على . ثم من قال أن الجبرتى لم يدرك طبيعة التغير الذى أحدثه محمد على . لقد شعر الجبرتى ان لهذا الحاكم ـ وهذا حق ـ ملكات وخصائص لم تتوفر لغيره من الحكام، وانه كثيراً ما كان يشيد به ملكا لمصرنا ـ فلقد وصف أحد الأعمال التى قام بها بأنها من أعظم الهمم لم يسبق لمثلها وبأن له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان .

ولم يكن الجبرتى منافقاً حين قال عن محمد على انه لو وفقه الله لشىء من العدالة، على ما فيه من العزة والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه .

ولكن على أية حال فإنه رغم الموضوعية النسبية التى تميزت بها كتابات الجبرتى إلا أننا لا نستطيع وفقاً لما تتيحه لنا مناهج البحث فى سسيولوجيا المعرفة أن نسلخ مواقف الجبرتى ، وآراءه وتصوراته المختلفة كعلاقته بالسلطة الحاكمة فى أيامه عن طبيعة الثقافة التى عاش فى ظلها وطبيعة العصر الذى ينتمى إليه حيث عاش الجبرتى فترة قلقة من تاريخ مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى العشرنيات من القرن التاسع عشر .

فاختلاط النظرة الموضوعية بالنظرة الذاتية فى حكمه على الأمور أمر غير منكور وان كنا لا نستطيع تحميل ميوله وإتجاهاته ونظراته الذاتية بوجه عام أكثر مما تحتمل نظراً لما يؤكده لنا التاريخ ومن مصادر أخرى غير الجبرتى من أن حكم الجبرتى على طبيعة السلطة فى عصره حكما لم يبعد كثيراً عن الموضوعية .

ثانياً : الجبرتى والثورة

إذا كان لعبد الرحمن الجبرتى ذلك الشيخ صاحب تلك المكانة الاجتماعية المرموقة ، وتلك الوضع العلمى المتميز ، موقف خاص من فكرة الثورة ، فان هذا الموقف لم يتسم بالثبات ، فهو تارة مؤيد أشد ما يكون التأييد ، وتارة أخرى متحفظ إلى حد الاستنكار . والثورة كما نعنيها هنا هى تلك الانتفاضات التى يقوم بها غالبية فئات الشعب تعبيراً عن السخط وعدم الرضا عن ظلم الحاكم وتعنته .

ولا شك أن تعدد مواقف الجبرتى من الثورة والثوار يرجع فى حقيقة الأمر إلى طبيعة كل ثورة وأسبابها ، فضلا عما تميز به الجبرتى من محافظة شديدة وكراهية للعنف .

والحقيقة أن الجبرتي قد أيد بشكل لافت ثورة أهالى الحسينية ١٧٨٥ ، وتلك الثورة (١٧٩٥) التي أرغمت الوالى والمماليك على كتابة وثيقة أو حجة تبين الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية . وفيها ذهبوا إلى بيت الشيخ السادات « . . . . وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراها إبراهيم بك . . . . فحضر إليهما وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مراد ، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث ، والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها والأمر يكون بالاعطاء لا بالأخذ . . . وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد . . . »[41] .

فالملاحظ أن الجبرتي وان لم يشترك فعلياً في هذه الثورة ، إلا أنه لم يستنكرها ، بل نلاحظ تعاطفه معها ومع الأهالى أو العامة أو الرعيـــة كما يسميهم . إلا أننا نجد بعد ذلك موقفاً يتسم بالمحافظة إن لم يكن الاستنكار وهو الخاص بثورتي القاهرة الأولى والثانية .

ويشير الجبرتي إلى حوادث ثورة القاهرة الأولى تلك التي اندلعت لأسباب اقتصادية في المحل الأول وهي فرض الضرائب الجزافية على فقراء الشعب وطبقاته الدنيا فيقول :

« وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقرارت الأملاك والعقار ، فجعلوا الأعلى ثمانية قرانة والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، ومن كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معاف . وأما الوكايل والخانات والجماعات والمعاصر والسراج والحوانيت فمنها وجعلوا عليه ثلاثين وأربعين ، وكل شيء بها يعد بحسابه . وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخ للأعيان . . . ولما أشيع ذلك

فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم فى ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر انه فى القبض مأسور ، وأن الملاعين اللغار ، مالكون القلاع والأسوار ، ويعضون الجميع بآلات الحرب المنيع ، لتجميع الكثير الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم »[٤٢] .

ثم يسرد لنا الجبرتى حوادث الثورة بعد ذلك قائلا : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح . وحضر السيد بدره وصحبته حشرات الحسينية « وزعر الحارات البرانية ، ولها صياح عظيم وهول جسيم . ويقولون بصياح الكلام . نصر الله دين الإسلام . فذهبوا إلى بيت قاضى عسكر وبه من سبقهم عمن على شاكلتهم نحو الألف وأكثر ، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه ، فرجموه بالحجارة والطوب . وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب . وكذلك اجتمع بالجامع الأزهر ، العالم الأكبر — وفى ذلك الوقت حضر اللعين « دبوى » بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية ، وذهب إلى بيت الشرقية فلم يجده ، فذهب إلى بيت القاضى فوجـــد ذلك الزحام ، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الاخطاط بالخلائق فرخومه ، فبادروا إليه وضربوه وأخذوا جراحاته وقتلوه وقتلوا الكثير من الفرنسيين ، وأبطاله وشجعانه ، وذهبوا إلى السعير وبئس المصير »[٤٣] .

فالملاحظ أن موقف الجبرتى من ثورات ما قبل الحملة الفرنسية وتلك التى حدثت أثناءها ، موقف يتسم بتأييد الأولى والتحفظ فى الثانية . والدليل على ذلك تسميته لثوار ما قبل الحملة الفرنسية بالعامة أو الرعية وهى تسمية طيبة إذا قارناها بتسميته لثوار فترة الحملة الفرنسية بالحشرات والزعر .

ولكننا فى الواقع إذا ما تساءلنا عن السبب فى اختلاف موقف الجبرتى من الثورة والثوار ، فإنه إلى جانب النشأة المحافظة للجبرتى ، فقد رأى فى هذه مخاطرة شديدة نظراً لما يملكه الفرنسيون من عداد القهر والحرب ومقاومة أى تمرد وهو الأمر الذى يتيحه لهم تفوقهم العلمى وينبغى ألا ننسى انبهار الجبرتى بتفوقهم هذا . فالاستنكار هنا ليس استنكار الرافض للتمرد على الظلم وإنما هو استنكار الخائف على العامة والدليل على ذلك قوله على أحد المتعممين الذين ايدوا الثورة والثوار انه « . . . . لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر انه فى القبض مأسور ، وان الملاعين الكفار ، مالكون القلاع والأسوار ، ويحضون الجميع بآلات الحرب المنيع »(٤٤) .

فالنزعة المحافظة لدى الجبرتى ، وانبهاره بعلم الفرنسيين وخوفه على العامة من استخدام الفرنسيين لعلمهم هذا فى مقاومتهم وهو الأمر الذى حدث بالفعل كانت من بين الدوافع التى جعلت مؤرخنا يقف هذا الموقف من ثورات فترة الحملة الفرنسية .

بعــــدو

إذا كان الجبرتى ذلك المؤرخ الذى انفرد بالكتابة عن تاريخ مصر خلال هذه الحقبة الزمنية الحية التى حفلت بأحداث متميزة عملت على تغيير مجريات الأمور فى مصر قد أراد أن يكون موضوعياً ، إلا أن موضوعيته هذه قد تلونت إلى حد ما بنظرته الذاتية للأمور ، تلك النظرة التى تعد نتاجا لطبيعة ثقافته ونوعية البيئة الاجتماعية والعلمية التى كان ينتمى إلى ، فضلا عن طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى الذى عاش فى ظله الرجل .

إلا أنه من العسير علينا أن نذهب إلى حد تأكيد غلبة النظرة الذاتية فى كل ما كتب . والنظرة الذاتية وفقاً لما يتيحه لنا علم اجتماع المعرفة — أمر

ليس من السهل تجنبه فالباحث - أى باحث - لا يستطيع أن يسلخ نفسه عن الظاهرة التى يعنى بدراستها فما بالنا بمؤرخ عاش أحداثاً معينة ، وله ميول خاصة وثقافة متميزة ليس من السهل عليه أن يصدر أحكامه أو يصف مايشاهد ويقرر ما هو كائن دون أن يكون لنظرته الذاتية نصيب فى هذا .

ولكن السؤال هنا : هو إلى أى حد تستطيع الرؤيه الموضوعية أن تكبح جماح النظرة الذاتية للأمور بحيث لا تترك لها السيادة والغلبة .

وأعتقد أن هذا ما استطاع أن ينجح فيه بمهارة مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى .

الحواشى

(١) انظر محمد محمود السروجى ، عجائب الآثار ومظهر التقديس : دراسة مقارنة ، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، العدد ١٥٨ ، مايو ١٩٧٤ ، ص ٢ .

(٢) السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى — ١٥١٧ — ١٨٨٢ ، ص ٣٠ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، ثورة شعب ، عرض للحركة الوطنية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين مع دراسة تفصيلية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ص

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الأول ، طبعة بيروت ، ص ٤٠ — ٤١

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الأرض والفلاح فى عصر محمد على ، الجمعية المصرية .

(6) ISSAWI, Charles, Egypt : An Economic And Social Analysis, Oxford Univ Press, London, 1947,

(٧) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ص ١٥٠ .

(٨) لوتسكى ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ٧٠ .

(*) لم يستخدم الجبرتى التقويم الميلادى .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .

(١٠) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(١١) انظر : محمد انيس ، الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبدالرحمن الجبرتى وعصره : بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ ابريل ١٩٧٤) ص ١٥ .

(١٢) انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ، فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن

الجبرتى وعصره : بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ أبريل ١٩٧٤) ، ص ٤ .

(١٣) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨.

(١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكرى المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، ص ٦٣ .

(١٥) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسى عند الجبرتى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته ، ص ٤ .

(١٦) ذكر الجبرتى هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة فى مقدمة عجائب الآثار حين بدأ فى ذكر صفات الحاكم العادل .

(١٧) انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتى مؤرخا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ أبريل ١٩٧٤) ، ص ٧ .

(١٨) صلاح عيسى ، عبد الرحمن الجبرتى : مؤرخ فى ميزان المؤرخين، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٥ .

(١٩) أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى ، طبعة بيروت ، ص ٦ — ٧ .

(٢١) عبد الرحمن الجبرتى ، الجزء الثالث من التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة قديمة ، لم يذكر اسم الناشر ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢٢) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(*) ما عدا اعجاب الجبرتى بطريقة محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر .

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسين ، ص ٦١ .

(٢٤) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار (المختار من تاريخ الجبرتى) ، كتاب الشعب ، ص ٣٦٥ — ٣٣٦ .

(٢٥) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ٣٦٧ .

(*) لم يستخدم الجبرتى التقديم الميلادى .

(٢٦) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ٤٤١ .

(٢٧) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسى عند الجبرتى ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(*) انظر مجموعة الدراسات الخاصة بنـــدوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخيـــة .

(٢٨) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، ص ٧٢ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ص ١٥١ .

(٣٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتى مؤرخا ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(٣١) عبد الرحمن الجبرتى ، وتاريخ الجبرتى ، كتاب الشـــعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .

(٣٢) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر نفسه ، ص

(٣٣) انظر محمود متولى ، الجبرتى والبرجوازية الصغيرة ، مجـــلة الكاتب ، السنة الرابعة عشر ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٧ .

(٣٤) محمود متولى ، نفس المرجع ، ص ٤٧

(٣٥) محمود متولى ، نفس المرجع ، ص ٣٧ .

(*) الواقع ان هذا الأمر اختلف بشـــأنه الباحثون ففى الوقت الذى يؤكد فيه الدكتور محمود متولى اهتمام الجبرتى بالكتابة عن الطبقة الراقية التى كان ينتمى اليها ، يؤكد الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى من جانب آخر على أن الجبرتى لم يقصر اهتمامه على علية القوم والأحداث الهامة لقد عنى بالأمور الجليلة والصغيرة . (انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى

(٣٦) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٨١٦ .

(*) يقصـــد بهم الفلاحين .

(٣٧) نقلا عن حسين فوزى ، سندباد مصرى : جـــولات فى رحاب التاريخ ، ص ٩٥ .

(٣٨) أنرظ ادوارد وليام لين ، انجليزى يتحدث عن مصر ، عن كتاب المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة فاطمة محجوب ، ص ٧٧ .

(٣٩) ادوارد لين ، نفس المرجع ، ص ١٢ .

(٤٠) أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصر على مفرق الطرق ، مرجع سابق ، ص ١١ — ١٢ .

(٤١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار — الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٤٢) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٤٣) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

(٤٤) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

جريدة الكشاف (٢٧ – ١٩٢٨)

دراسة وتحليـــــل

الدكتور عبد الخالق محمد لاشين

فى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٢٧ صدرت فى مدينة القاهرة صحيفة يومية صباحية جديدة باسم « الكشاف » لصاحبها المهندس أحمد عبود ؛ عضو الهيئة الوفدية والنائب الوفدى فى مجلس النواب عن دائرة أطفيح مركز الجيزة . ومن الجدير بالذكر أن هذه الصحيفة لم تعمر طويلا حيث أنها توقفت عن الصدور إعتباراً من عددها الأخير رقم ١١٩ الصادر فى ١٤ إبريل ١٩٢٨ ، أى أنها لم تمكث سوى أربعة شهور ونصف . وعلى الرغم من أهمية هذه الصحيفة الجديدة ، وما كانت تمثله آنذاك فى الجو السياسى المصرى ؛ إلا أنها لم تلق العناية اللازمة من قبل الباحثين والدارسين . وربما لا يرجع ذلك إلى الفترة الزمنية الوجيزة التى عاشتها ؛ بقدر ما يرجع إلى عوامل كثيرة أخرى .

فما هى تلك الصحيفة ؟ ومن هم أولئك الذين كانوا وراء إصدارها ؟ ومن هو صاحبها ؟ ومن هم القائمون على أمر تحريرها ؟ وما هى الاتجاهات التى كانت تمثلها ؟ وما هى العوامل التى دعت إلى ظهورها ؟ وكيف كان استقبال الأوساط الصحفية المصرية والأجنبية لها ؟ وما هو موقفها من القوى السياسية المصرية والبريطانية ؟ وما علاقتها بالإحزاب المصرية القائمة ؟ وما قدمته هذه الصحيفة لمصر فى المجالات الصحفية والسياسية والفكرية وغيرها ؟ وما هى الظروف

التى أدت إلى سرعة اختفائها ؟ كل هذه التساؤلات وغيرها هو ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه خلال الصفحات التالية .

بعد مرور ثلاثة أشهر على وفاة الزعيم سعد زغلول ، واجتياز حزب الوفد أزمة اختيار خلف له لرئاسة الحزب ؛ وبينما يجتاز الائتلاف الذى مضى على إقامته مدة عام ونصف ظروفاً حرجة واختباراً جديداً نتيجة للمصالح والاتجاهات المتعارضة وربما المتصادمة للأحزاب المكونة له ، يفاجأ الرأى العام المصرى بصدور صحيفة جديدة فى ٢٩ نوفمبر١٩٢٧ بعنوان « الكشاف » . وربما يزداد الأمر غرابة أن الصحيفة الجديدة لم تسفر خلال عددين من أعدادها عن اسم صاحب امتيازها ومؤسسها على عادة الصحف المصرية عند صدورها ؛ واكتفت بأن تذكر أن « إدارة الكشاف بشارع سعد زغلول رقم ١٨ »(١) . وفى العدد الثالث لها الصادر بتاريخ أول ديسمبر ١٩٢٧ ، وفى صفحتها الثانية — على غير ما جرت به العادة كذلك — ذكرت أنها جريدة يومية سياسية لصاحبها أحمد عبود ، وأن عبد الرحمن عزام هو مدير سياستها المسئول(٢) . واستمرت على هـذا الحال إلى أن صدر عددها التاسع بتاريخ ٧ / ١٢ / ١٩٢٧ حيث تم نقل اسم صاحبها ومدير السياسة المسئول إلى صدر الصفحة الأولى كما هو المألوف فى الصحف اليومية(٣) .

وربما أن هذا « الاستحياء » الذى لجأت إليـه الصحيفة فى تقديم صاحبها إلى جمهور القراء تفسره الوظائف والأعمال التى مارسها صاحبها — أحمد عبود — قبل انغماسه فى العمل الصحفى ، والتى لا تتصل من بعيد أو قريب بمثل هذا اللون الجديد من ألوان النشاط التى لجأ إليها . وهو ذلك اللون الذى مارسه للمرة الأولى وربما الأخيرة — حسب اعتقادنا — حيث لم يلجأ إلى تكريره فى مراحل حياته اللاحقة . فمن هو أحمد عبود صاحب الجريدة ؟

لجأت جريدة كوكب الشرق — الوفدية —(٤) عندما رشح الوفد بتأييد

من سعد زغلول فى مايو ١٩٢٦ ـ أحمد عبود لعضوية مجلس النواب عن دائرة أطفيح مركز الجيزة إلى تقديمه للناخبين وتعريفهم به فذكرت أن المرشح بعد أن أتم دراسته الثانوية فى القاهرة أبحر إلى انجلترا حيث تلقى بها العلوم الهندسية العالية وحصل على أعلى درجاتها بتفوق فى أوائل عام ١٩١٣ . وبعد عودته إلى مصر انتدبته الحكومة العثمانية بتوصية من سير وليم ولكوكس ـ المهندس البريطانى المشهور والمسئول عن أعمال ومشروعات الرى فى مصر والسودان ـ للقيام بتنفيذ مشروعات الرى بالعراق ـ خلال فترة وقوعه تحت السيادة العثمانية . وذكرت الجريدة أن المهندس أحمد عبود انصرف إلى العمل فى مشروع سكة حديد بغداد ؛ وهو ذلك المشروع الذى كانت تشرف ألمانيا على إقامته . وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا وبذلك دخلت فى صراع مع انجلترا ، ذكرت الجريدة أن عبوداً انضم إلى الجيش العثمانى وخدم دولة « الخلافة » طيلة مدة الحرب فى سوريا وفلسطين باشتراكه فى تعبيد الطرق الحربية وإنشاء السكك الحديدية ؛ فنال بذلك ثناء القادة الأتراك والألمان معاً ومنحته الدولة العثمانية الرتب العسكرية العالية جزاء لما استهدفه من أخطار وما أظهر من همة وإخلاص . وأضافت كوكب الشرق أنه عندما وضعت الحرب أوزارها انصرف المهندس أحمد عبود إلى العمل فى « المقاولات » بسوريا وفلسطين « فرفع فى هذه البلاد من شأن المصريين بالأعمال الخالدة التى قام بها ؛ والتى لم يجاره فيها أحد من المهندسين والمقاولين الأجانب » . وذكرت أيضاً أنه خلال الفترة التى اشتعلت فيها الثورة المصرية ابتداء من ٩ مارس ١٩١٩ قدم المهندس عبود خدمات بارزة للمصريين المقيمين بالشام والموجودين بها . وبعد أن هدأت الأحوال فى مصر عقب الثورة عاد المهندس عبود إلى القاهرة ـ مسقط رأسه ـ واشترك مع مواطن مصرى آخر يدعى اسماعيل نصرت ـ وربما آخرين ـ فى إنشاء مكتب للمقاولات باسم « أحمد محمد عبود وشركاه » . وقد ذكرت جريدة كوكب الشرق ـ فيما بعد ـ أن هذا المكتب يقوم بدور الوساطة

والوكالة لشركة إنجليزية هي شركة « بوس » التى كانت تقوم بأعمال توسيع ميناء السويس ، وذلك نظير عمولة قدرها خمسة فى المائة بمقتضى عقد مسجل بهذا الخصوص فى سجلات المحكمة المختلطة[٥] .

وتضيف كوكب الشرق أن المهندس أحمد عبود أدرك « بثاقب فكره » أن الاستقلال السياسى إنما هو الاستقلال الاقتصادى فضرب فى هذا الميدان بسهم وافر ؛ وقام بتأليف شركات تجارية تقوم بجليل الأعمال منها شركة « عبود للكراكات » . وذكرت أن هذا العمل كان من قبل وقفاً على الأجانب وحدهم . وأضافت الصحيفة أن عبوداً لا يزال فى طليعه المتقدمين للأعمال الاقتصادية « الكبرى » التى تمكن البلاد من منافسة الأجانب وتوطد دعم استقلالنا الاقتصادى مقربة من يوم الاستقلال السياسى الذى تنشده الأمة تحت قيادة زعيمها سعد زغلول[٦] . واستطردت الصحيفة فى تعريفها بالمرشح الوفدى الجديد ، فامتدحت ، وطنية المهندس عبود ، وروت أنه انتهز فرصة سفره إلى لندن - خلال هذا العام ١٩٢٦ - للقيام بأعماله التجارية فى إنارة ذهن الرأى العام الإنجليزى وإثبات أن الأمة المصرية جادة فى نهضتها الوطنية ، وأن كل اتفاق تحاوله إنجلترا مع غير الناطقين بلسان هذه الأمة لا يؤدى إلى نتيجة يحسن السكوت عليها . وختمت الجريدة تعريفها بأنها إذا كان لعبود أن يفخر بترشيح الوفد له فى هذه الدائرة ، فإن للدائرة أن تغتبط بأن الوفد اختار لها نابغاً من خيرة الأفراد العاملين[٧] . وقد فاز المهندس أحمد عبود فى الانتخابات على منافسه الاتحادى أحمد المليجى - الذى سبق له الفوز فى هذه الدائرة الانتخابين السابقين - وكان نزول عبود - باسم سعد وتأييده - عاملا حاسماً فى نجاحه « ودك صرح الاتحاديين » فى هذه الدائرة ، على حد قول كوكب الشرق[٨] .

ولعل فى اختيار سعد والوفد « للمهندس » أحمد عبود لعضوية مجلس

النواب ، ثم فى قيام الأخير — بعد قليل — بإصدار جريدة « سياسية » يومية — بترشيح من سعد زغلول كذلك كما سيتضح لنا — ما يدعو إلى التساؤل عن سر هذا الاختيار . فما هى الدوافع التى دفعت إلى ذلك ؟

ورد فى إفتتاحية العدد الأول من « الكشاف » بقلم أحمد عبود أنه يعز عليه أن يصدر العدد الأول من جريدته دون أن تتناوله « تلك اليد الطاهرة التى لها علينا أكبر فضل وأجزل منة » ، لأنه ليس فى القراء من لا يعلم أن الكشاف « غرس سعد وبناؤه » ، وأنه بوحى منه فكر فى إصدارها ، وأنه بفضل اهتمامه وسؤاله « اتخذنا لبنائه من المعدات ما لم تؤسس بمثله حتى اليوم جريدة فى الشرق » . وذكر أنه لم يبخل على هذه الجريدة بجهد ولا مال فجلب لها « مطبعة من الطراز الأول لم يجلب مثلها إلى هذه البلاد » ، واستكمل لها معدات التصوير والحفر على اختلاف أشكاله ، وتخير لتحريرها نفراً من « علية الكتاب » قد عرك أكثرهم الصحافة وعركته مسترشداً فى ذلك برأى الأصدقاء والاخوان ، ورسم لهم خطة العمل التى ينتهجونها « فى إتباع سنة سعد القويمة وتعاليمه المرسومة وميزة خلفائه من بعده » . وذكر « أن جانباً كبيراً من اهتمام هذه الجريدة وعنايتها سينصرف إلى خدمة المرافق الاقتصادية والتجارية والزراعية والعلمية والفنية » ، هذا إلى جانب العناية « بكل فن جميل » كالتمثيل والشعر والنثر والنقد الأدبى والترجمة وغير ذلك[٩] . وامعاناً من صاحب الجريدة فى تأكيد ارتباطها بسعد وبسياسته فقد اقتطفت عبارة وردت فى خطاب بعثت إليه به زوجة الزعيم الراحل صفية زغلول بمناسبة إصداره جريدته ، وقد صـــدر به صحيفته وهو « يسرنى أن يخرج الكشاف فى هذا المظهر الجدير بأن تطيب له روح الفقيد فى مثواه وتقر به نفسه فى ثراه[١٠] .

كما أن مدير التحرير — عبد الرحمن عزام العضو الوفدى البارز فى مجلس النواب قد كشف النقاب فى أول مقال له بالجريدة عن سر رئاسته لتحريرها

فذكر أن سعد زغلول أراد فى أخريات أيامه أن يعزز القضية المصرية بإنشاء جريدة تقوم — إلى جانب الجرائد الوطنية الأخرى — بخدمتها على مبادئه القويمة. وأضاف أنه ما أن صحبه بهذه الفكرة حتى لقيت منهم قبولا عاما وبدأت الجهود فى سبيل تحقيقها. وذكر أن سعداً اختار للجريدة اسم الكشاف، وأعرب لبعض أصدقائه عن إسناد إدارة سياستها إلى عبد الرحمن عزام. وذكر الأخير أنه تردد كثيراً فى قبول تحمل هذه «التبعية الخطيرة»، وأنه وقبل أن يبت برأى قاطع سافر للاشتراك فى تمثيل البرلمان المصرى — بصفته عضواً وفدياً من أعضائه — فى مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى المنعقد فى فى البرازيل. وخلال سفره توفى الزعيم سعد زغلول. وعند عودته من رحلته وكان العمل قد تقدم حثيثا فى إعداد المعدات لإصدار الكشاف — خاطبه بعض أصدقائه فى تولى إدارة سياستها تحقيقاً «لرغبة الفقيد العظيم» فلم يجد — حسب روايته — «للتردد محلا؛ ولا من الاذعان بدأ فقبلت نزولا على تلك الارادة المطاعة وتنفيذاً لتلك المشيئة المحبوبة»، واختتم مقاله بأن تمنى للجريدة الوليدة أن تقوم بواجبها فى حمل الأمانة التى حملها سعد إياها للدفاع عن القضيـــة المصرية، والعمل على تحقيق الاستقلال التام والزود عن الدستور[11].

وهكذا يتضح لنا — من خلال كتابات كل من صاحب الجريدة ومدير ريرها المسئول — الدور — الذى قام به سعد زغلول فى إصدار هذه الجريدة، وربما فى اختيار صاحبها والمسئول عن تحريرها، على الرغم من أن صدورها قد تأخر بعض الوقت إلى ما بعد وفاة سعد زغلول بقليل. فما هى الدوافع التى دفعت سعداً إلى ذلك؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال نود أن نشير إلى ما حظيت به هذه الجريدة من إمكانيات هائلة سواء من الناحية المادية أو البشرية. وهو الأمر الذى

أشار إليه صاحبها — أحمد عبود — فى خطابه الافتتاحى السابق . فبالإضافة إلى اقتنائها لأحدث المطابع التى لم يجاب مثلها فى الشرق ، وما يلزمها من معدات حديثة للتصوير والحفر ، واختيار رئيس للتحرير إذا لم يكن قد اشتهر عنه اشتغاله بالصحافة ؛ إلا أنه بفضل إسهاماته وجهوده الوطنية البارزة سواء على الصعيد المصرى أو العربى قد تمتع بشهرة وطنية طيبة . هذا إلى جانب نخبة مختارة من المحررين تم انتقاءهم من الصحف اليومية الأخرى[١٢] . يضاف إلى ذلك أن الكشاف قد ضمت مجموعة من المراسلين «من أكبر الصحفيين وأبرعهم فى جميع الأقطار التى ترد منها البرقيات» ؛ لاتفاقه معهم على موافاته بكل مهم من الأنباء فى حينها وتعهدهم له «بالسبق» الصحفى . وذلك رغبة من الجريدة فى العناية «بأنبائها التلغرافية مهما كلفتها» من ناحية[١٣] ، ولكى تدفع الصحافة المصرية خطوة أخرى أو خطوات لمسايرة التقدم والرقى العالمى فى هذا المجال من ناحية ثانية[١٤] . وأهم من كل ذلك أن الجريدة تعاقدت مع صحيفتين إنجليزتين هما : التايمز Times والديلى تلجراف Daily Telegraph على الاستفادة بما يكتب لها ؛ وأن يسمح لمراسل الكشاف فى لندن بأن يبرق لجريدته بما يختار لها من مواد تنشرها هاتين الصحيفتين وذلك لنشرها فى نفس اليوم الذى تنشر فيه فى لندن ؛ على أن تنفرد الكشاف وحدها بهذا الامتياز فى مصر[١٥] وهو أمر فريد فى عالم الصحافة المصرية لم تسبقها إليه صحيفة أخرى .

ولعل كل هـــذه الإمكانيات الواسعة التى حظيت بها الجريدة الجديدة تتناسب والشكل الذى خرجت به منذ أول يوم لانشائها ، ليس فقط من الناحية الفنية ، ولكن كذلك من حيث سعة الإنتشار لأنها قد نجحت فى أن «تكتسح السوق الصحفية»[١٦] ، بفضل ما قدمته من خدمات صحفية انفردت بها على غيرها من الصحف فى مصر . وليس أدل على ذلك من أنها نشرت فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٢٧ نص مشروع المعاهدة العراقية الانجليزية الجديدة[١٧] ، قبل أن تنشر الصحف البريطانية أو يتم توزيعها على

أعضاء البرلمان البريطاني[١٨] ؛ وذلك على الرغم من حرص بريطانيا على كتمانها إلى أن يحين وقت نشرها وكان ذلك سبقاً صحفياً انفردت به الكشاف وحدها ليس فقط على المصرية ؛ ولكن كذلك على كل الصحف العالمية بما في ذلك الصحف البريطانية ذاتها[١٩] . ولم يسع الصحف الغربية إلا الإقرار للكشاف بهذه « المعجزة » ، وقد استوت في ذلك صحف انجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها على حد قول الكشاف[٢٠] . ذلك لأن للجريدة « في لندن وباريس مصادر متفرقة لاستقاء الأخبار عن كل ما يتعلق بمصر وبالشرق وبلاد العجم وبما يعقد من المعاهدات »[٢١] . وأكثر من هذا أنها كانت تقوم بنشر البرقيات الصحفية التي يبعث بها مراسلوا التايمز والديلي تلجراف قبل أن تنشر في هذه الجرائد الانجليزية المرسلة إليها ؛ وتضع عبارة « ستنشر التايمز غداً أو الديلي تلجراف غداً » في صدر برقياتها[٢٢] . وإلى جانب كل ذلك فقد ولدت عملاقة وكانت تنشر « الاعلانات على الطريقة الأمريكية » وتدفع لمحرريها ومراسليها مرتبات « تصل إلى مرتبات وكلاء الوزارات » ، إلى الحد الذي دفع الناس إلى التشكك منذ قيامها[٢٣] .

ويجدر بنا الآن أن نناقش الدوافع التي حدت بسعد زغلول إلى التفكير في إصدار هذه الجريدة واختيار صاحبها ورئيسها خلال هذه الفترة المتأخرة من حياته ، واهتمامه الزائد بأمرها إلى الحد الذي روى فيه البعض أن فتح الله بركات — ابن شقيقة سعد وعضو الوفد البارز وأحد وزراء حكومة الائتلاف وزعيم جناح الوفد المعتدل — كان يحمل إليه « الماكيتات » الخاصة بالجريدة عند الاستعداد لاصدارها ويقوم سعد بمقارنتها بغيرها من الصحف الأخرى[٢٤] . لعلنا نستطيع أن نتتبع خطوات ومراحل إصدار هذه الجريدة وبواعثها من مقال افتتاحي نشرته جريدة الاتحاد في مستهل عام ١٩٢٧ - ومن قبل أن تصدر الكشاف بأكثر من ثمانية شهور — حيث ذكرت أن الجريدة الجديدة التي يزمع الوفد إنشاءها قد اعتزم فتح الله بركات إصدارها باسم أحمد

أحمد عبود . وأن الأخير « ينوى أن يترسم الخطى التى وضعها له زعماء الحزب السعدى ، وقوامها الاعتدال فى القول والبرهان على الاخلاص والولاء لأصدقائهم الانجليز وعدم التعرض لهم بكلمة تثير غضبهم أو تنفرهم من الذين يتقربون إليهم فى هذه الأيام بجميع وسائل القربى والزلفى »[٢٥] . وذكرت الاتحاد أن هناك خلافاً حاداً بين جناحى الوفد - معتدلين ومتطرفين - للسيطرة على هذه الجريدة من حيث رغبة كل جناح منهما فى تعيين أنصاره كهيئة تحرير لهذه الجريدة الجديدة . وأن ذلك الخلاف ربما يؤخر صدورها بعض الوقت . وإن كانت تنبأت بأن هذه المشكلة ليست عسيرة على دهاء فتح الله بركات . ولكنها من ناحية أخرى تشككت فى أن يصل فتح الله بركات - وهو زعيم المعتدلين - إلى الشاطىء الذى اعتزم هو ورئيس الحزب سعد زغلول - الوصول إليه وتعنى به قيادة الرأى العام إلى الطريق المزمع ترسمه وهو طريق الاعتدال . وفى عدد لاحق لها بتاريخ ١٩٢٧/٤/٢١ - أى قبل سبعة أشهر على ظهور الجريدة الجديدة - صرحت الاتحاد بأن الجريدة الوفدية المزمع إنشاؤها هى جريدة « الكشاف » - كل ذلك قبل ان تكتب فى هذا الموضوع أو تشير إليه جريدة أخرى بما ذلك الجرائد الوفدية ذاتها . وذكرت بأن المتطرفين يبحثون لها عن محررين من بين أولئك الذين يوافقونهم فى زعزعة سياسة حسن التفاهم والاعتدال ؛ تلك التى انتهجها الوفد مؤخراً تجاه الاحتلال البريطانى وممثليه فى البلاد[٢٦] .

بينما يذكر مصدر آخر ، أن سعد زغلول كان يتمنى لو أن الوفد اشترى جريدة الأهرام لأنه كان يرى فيها الجريدة الصحفية الاخبارية الوحيدة فى مصر ، ولأنه كان يتألم لأن صحف الوفد - وعلى رأسها البلاغ وكوكب الشرق - كانت تخلو من العنصر الاخبارى ، على الرغم من أنها تضم نخبة ممتازة من كبار الصحفيين أمثال عبد القادر حمزة وعباس العقاد وأحمد حافظ عوض وغيرهم . وقد تحمس فتح الله بركات للفكرة وعرضها على المهندس

أحمد عبود فذكر له الأخير أنه يستطيع شراء الأهرام . وعندما ذهب لمفاوضة أصحابه فى ذلك طلبوا منه مبلغاً ضخما — ثلاثين ألف جنيه — فاستكثرها عبود ورفض هذا العرض ، واقترح على سعد زغلول فكرة إنشاء جريدة مصرية تحل محل الأهرام . واختار لها اسم الكشاف ، فرحب سعد بهذه الفكرة ، وقام بشراء آلة الطباعة . واختار عبد الرحمن عزام رئيساً لتحريرها واميل خورى سكرتيراً للتحرير[٢٧] .

ومهما يكن من أمر هذه الرواية أو غيرها فالأمر الذى لا جدال فيه أن حزب الوفد تحت قيادة سعد زغلول وفى ظل الحرص على الائتلاف الحزبى الهش — واحترام سياسة حسن التفاهم والاعتدال مع بريطانيا التى انتهجها قادة الائتلاف خلال هذه المرحلة من تطور العمل السياسى الحزبى فى مصر ، يعد فى تقديرنا مسئولا إلى حد كبير عن ولادة صحيفة كهذه . يمكن أن تتبنى كل هذه السياسة وتدافع عنها وتروج لها ، خاصة وأن الصحف القائمة وعلى رأسها صحف الوفد كانت تجد غضاضة فى الترويج لهذه السياسة الاعتدالية ، ولا تفتأ من حين لآخر تغمز هذه السياسة أو تتطاول عليها فى بعض الأحيان. وربما تكون تلك السياسة الاعتدالية الجديدة هى التى دفعت بسعد زغلول إلى تبنى فكرة دمج الأحزاب المصرية جميعاً وتوحيدها فى حزب واحد لأنه أصبح يرى ألا معنى لتعددها نظراً لاتفاقها جميعاً حول قضية الاستقلال والدستور . وقد طرح هذه الفكرة على بعض الزعماء والمقربين إليه وكان من بينهم عدلى يكن — رئيس الوزراة الائتلافية الأولى وخصمه القديم وأول رئيس لحزب الأحرار الدستوريين — خلال فترة مبكرة من تاريخ قيام الائتلاف الحزبى وذلك فى ٢٠ مايو ١٩٢٦[٢٨] . ثم عاد سعد فكرر لعدلى هذه الفكرة فى لقاء معه بتاريخ ٣ يونيه من نفس العام[٢٩] ، وأخيراً فإنه قد جاهر بها فى خطبته التى ألقاها فى مجلس النواب فى جلسة ١٠ يونيه ١٩٢٦ الافتتاحية عندما انتخب رئيساً للمجلس[٣٠] . وربما أن سعداً هدف من وراء

هذه الفكرة دمج الأحزاب وتوحيدها — إلى جانب تحقيق الوحدة الوطنية أن يتمكن حزب الأحرار الدستوريين من الحد من سيطرة جناح المتطرفين فى حزب الوفد وتحجيم عودهم ، وفى طبع الوفد ككل بطابعه السياسى ونعنى به الاعتدال تجاه الوجود البريطانى فى مصر وهى السمة الغالبة لحزب الأحرار هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى أن يتطعم حزب الوفد بعدد الكفايات والشخصيات السياسية البارزة التى يتميز بها حزب الأحرار ؛ نظراً لافتقار الوفد إلى مثل هذه الكفايات اللازمة للحكم على حد قول سعد زغلول ذاته[31]. وربما من ناحية ثالثة لأنه كان يرى ألا معنى لاختلاف الأحزاب نظراً لاتفاقها جميعاً حول قضيتى الاستقلال والدستور وغيرها من القضايا ؛ وأنه إذا تم الاندماج وحدث مثل هذا الاختلاف حول القضايا الأخرى فإنه « حينئذ تتشكل أحزاب جديدة تختلف باختلاف هذه الموضوعات »[32] .

أما لماذا حرص سعد زغلول على انتهاج سياسة حسن التفاهم والاعتدال هذه ؛ فربما يرجع ذلك إلى أن تجربة الحكم التى عايشها خلال رئاسته للوزارة عام ١٩٢٤ وما أسفرت عنه من صدامات متكررة بينه وبين البريطانيين وصلت قمتها باغتيال سيرلى ستاك سردار الجيش المصرى والتى بلغ فيها الصلف البريطانى ذروته وأدت إلى تخليه عن الحكم من ناحية . ومن ناحية ثانية تلك المشاكل والصعوبات التى أثارها فى وجهه نفر من المتطرفين من داخل أعضاء البرلمان المصرى وخارجه ؛ وعلو مد الأمانى الوطنية بتصدر زعيم الثورة لرئاسة الوزارة وعجزه عن تحقيق تلك الأمانى لاصطدامه بكل من القصر الملكى من ناحية والمندوب السامى البريطانى من ناحية أخرى[33]. يضاف إلى ذلك سياسة القمع والانتهاكات الدستورية المتكررة التى لجأت إليها وزارة أحمد زيور التى خلفت وزارته فى الحكم واستمرت فى ملاحقة العناصر الوطنية والقيادات الوفدية بصفة خاصة وعلى رأسها زغلول ذاته ، وكانت كلها

عاملا هاماً من العوامل التى أدت إلى تقارب حزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى إلى الوفد للتصدى لتلك الانتهاكات والتى تعد مسئولا عن دفع هذه الأحزاب جميعـــاً إلى الائتلاف فيما بينها لإسقاط واعادة الحياة النيابية[٣٤] . هذا بالإضافة إلى أن موقف اللورد لويد – المندوب السامى البريطانى الجديد – وحيلولته دون حصول سعد على رئاسة الوزارة – رغم فوز حزبه بالأغلبية فى انتخابات ١٩٢٦ - واجباره ومن خلفه الأحزاب المؤتلفة على تعيين عدلى يكن رئيساً للوزارة الائتلافية[٣٥] . وأهم من كل ذلك أن مجلس النواب خلال دورتى انعقاده ٢٦ - ١٩٢٧ برئاسة سعد زغلول قد انتهج سياسة معتدلة تجاه الوجود البريطانى بدت فى عدة مظاهر وأزمات نفرت منه الكثيرين[٣٦] « وخدرت أعصاب المجلس وأطمعت فينا الغاصب وكادت تقضى على الروح الوطنية فى هذه البلاد »[٣٧]. كل ذلك دعا الصحف الانجليزية إلى أن تشير بأن هناك خلافات داخل البرلمان وخارجه - « وأن النواب الوفدين كانت لهم أساليب عنفهم زعيمهم عليها . . . وأن فى هؤلاء النواب الوفديين جناحاً أيسر . فقد زغلول باشا الآن كل سلطة عليه »[٣٨] . وهو الأمر الذى عوق المجلس النيابى عن استصدار « قرارات حازمة حاسمة فى المسائل السياسية » . ورأى البعض أنه من « الخطر جداً على سمعة البرلمان فى الدورة القادمة أن يكون [حكيما] كما كان فى الدورة الماضية »[٣٩] .

لكل ذلك نعتقد أن هذه العوامل مجتمعة هى التى دفعت بسعد زغلول إلى تحقيق فكرة إنشاء هذه الجريدة ، وليس فقط تشجيع المهندس أحمد عبود بل واختياره لملكيتها والعمل على تجهيزها بأحدث الأدوات لضمان نجاحها فى القيام بالمهمة الخطيرة الملقاة على عاتقها ؛ ونعنى بها قيادة الرأى العام المصرى فى السير نحو الاتجاه الجديد وهو دعم سياسة « حسن التفاهم والاعتدال » . أما لماذا كان عبود بالذات فربما يرجع ذلك ثرائه وعلاقاته الطيبة بالسلطة البريطانية سواء فى مصر أو خارجها كما سيبين بعد قليل . ولهذا فقد كان سعد

وراء ترشيح عبود لعضوية مجلس النواب قبل قيامه بإصدار الجريدة لتهيئته للقيام بدور سياسى من ناحية ، ثم لتقديمه للجماهير المصرية فى هذا الثوب الجديد وهو الرجل الذى لم يلعب دوراً سياسياً من قبل ، وإنما ركز حياته وجهوده فى القيام بالمشروعات التجارية والمالية وغيرها . وربما أن ذلك كان من وراء تكليف سعد له لأداء مهمة سياسية فى لندن خلال صيف عام ١٩٢٧ [٤٠]، وأن هذا التكليف قد تم بعلم الكثيرين من قادة حزب الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد ؛ وكذلك عبد الخالق ثروت رئيس وزراء الائتلاف — الذى خلف عدلى يكن — كما ذكرت الكشاف ؛ لأن صاحبها كان « موضع ثقة » الزعيم حتى اللحظة الأخيرة من حياته [٤١] .

وعلى أى حال فقد صدرت الجريدة الجديدة فى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٢٧ ، واستقبلتها الصحف المصرية ، وخاصة صحف الوفد — البلاغ وكوكب الشرق بترحيب متمنية لها التوفيق فى مهمتها ؛ مشيدة بإمكانياتها المادية والبشرية [٤٢] . وقد ذكرت جريدة البلاغ أنه توافد على إدارة الكشاف عدد كبير من السياسيين والصحفيين وغيرهم لتهنئة بالصدور « وفى مقدمتهم صاحب المعالى محمد فتح الله بركات » [٤٣] . بل إن الأسلوب الجديد والفن الصحفى المبتكر الذى لجأت إليه الكشاف منذ أول صدورها دفع بجريدة البلاغ الوفدية إلى محاولة مجاراتها حرصاً منها على التمسك بقرائها ؛ فنشرت لأول مرة — على غير عادتها — بعض الصور فى صفحتها الأولى ، وجاء هذا النشر على حساب مقال عباس محمود العقاد الافتتاحى — شبه اليومى — الذى درجت الجريدة على نشره فى صفحتها الأولى [٤٤] . وقد علقت صحيفة بريطانية — المانشستر جارديان — على صدور الكشاف بقولها أنه قد ظهرت فى مصر جريدة عربية يومية جديدة ، وأضافت أنه « لما كان موقفها - أى الكشاف — واضحا جلياً وهو موقف الصلح بين دار المندوب السامى (البريطانى) والوفد

كان ذلك فى دلالة ذات مغزى على إتجاه الرأى العام فى مصر الآن ، وقد ذكرت هذه الصحيفة البريطانية كذلك أن اسم « الكشاف » قد يكون مشتقا من معنى الكشافة المعروفة ، أو من معنى « المنارة » وأضافت أن « المأسوف عليه زغلول باشا قد اختار هذا الإسم »[٤٥] .

وقد تميزت الجريدة الجديدة خلال أعدادها المتتابعة بانتهاج سياسة معتدلة وراحت تدافع عن الائتلاف الحزبى فى العديد من مقالاتها السياسية ، لأن خطتها كما ذكرت بعض الصحف فيما بعد - الجهاد - أن تكون « نصيرة الائتلاف بين الأحرار والوفديين » . ولهذا سمح لها زعماء الوفد - على حد قولها - بأن تنشر فيها صورهم وأن يخطوا عليها بأقلامهم . كما أن لجنة الطلبة التنفيذية الوفدية بأسيوط وغيرها رحبت بصدورها[٤٦] . ومن الملاحظ أن هذه الجريدة الجديدة ركزت اهتمامها على المجالات والجوانب الاقتصادية والعلمية والفنية والأدبية أكثر من اهتمامها بالأمور السياسية . وان كان مما يلفت النظر أنها نشرت العديد من المقالات التى تهاجم فيها الشيوعية والبلشفية والسوفيت دون أن يكون هناك سبب مباشر وقريب يدعوها إلى إنتهاج مثل هذه السياسة المعادية للفكر الاشتراكى[٤٧] ، وان كنا نرى أن ذلك يتوائم مع طبيعة المرحلة التاريخية من ناحية ، ويتسق مع فكر القائمين على أمر هذه الصحيفة ومصالحهم من ناحية أخرى .

غير أن هذا الترحيب الذى قوبلت به هذه الجريدة الجديدة من جانب الصحف المصرية ؛ وخاصة صحف الوفد لم يقـــدر له أن يستمر طويلا ، وخاصة عندما أسفرت هذه الجريدة عن خطتها الاعتدالية هذه . ونوهت بذلك الصحف البريطانية ذاتها كما مر بنا من قبل . ولهذا فسرعان ما انتهت فترة الوفاق هذه وتحولت إلى عداء سافر وخصومة حادة بينها وبين الكشاف قبل أن يمضى وقت طويل على ظهورها ، فراحت تكيل لها التهم العديدة ، وتحول

المهندس أحمد عبود «النائب المحترم» و«الوطني ثاقب الفكر» ، إلى «أداة» من أدوات السياسة الانجليزية فى مصر ، بل أكثر من هذا «دخيلا» و «جاسوسا» على البلاد . ووصل بها القول إلى أن صاحبها «لا يفهم ولا يكاد يقرأ مايكتب أو يكتب فى جريدته»[٤٨] . وأن جريدته «لا ينفق عليها عبود من ماله لا هو ولا غيره وإنما تنفق عليها شركة الصحف الإنجليزية ـ التايمز والمانشستر جارديان والديلى تلغراف وأنها جريدة خلقتها السياسة الإنجليزية بعد أن قطعت الأمل من ناحية الانتفاع بغيرها من الصحف المصرية»[٤٩] . وقد وصل الحد بهذه الصحف الوفدية بصفة خاصة إلى أن تذكر أن هذه الجريدة «يصدرها المقاول عبود أفندى بأموال شركات إنجليزية ، اتفقت مع عبود على أن يكون «سمسارا» لها فى عمليات وصفقات تجارية ، بعد نجاحه فى البرلمان كعضو وفدى وتصورت تلك الشركات أن هذه «العملية التجارية إذا تدعمت بجريدة يومية سياسية تحت ظل الوفد وتحت راية سعد ووراء ستار الوطنية المصرية تدرك من المكاسب ماهو أكثر مادة وأكثر فائدة ؛ هذا فوق مايعود على السياسة الإنجليزية من ترويج الدعاية لها والسعى عن طريق النشر إلى ماتريده من أغراضها»[٥٠] . بل إن كوكب الشرق الوفدية ذكرت أن الدوائر السياسية العالمية فى لندن ظلت تبحث عن مصرى يعاونها فى إصدار جريدة مصرية لخدمة الدعاية البريطانية ، وقد وجدت ضالتها المنشودة فى «المقاول» أحمد عبود من خلال وسيط هندى كبير له صلة بتلك الدوائر السياسية البريطانية العالمية[٥١] .

وأكثر من هذا فإن الصحف الوفدية بدأت تشكك فى صحة انتساب هذه الجريدة إلى حزب الوفد وصلتها بالزعيم سعد زغلول[٥٢] ، إلى الحد الذى حدا بالحزب إلى إصدار بيان رسمى يعلن فيه «أن جريدة الكشاف ليست لسان حاله ولا علاقة له بها» ، نشر فى كل الصحف الوفدية ، ونشرته كذلك جريدة الكشاف نفسها[٥٣] . وهو ماحاولت الجريدة أن ترد عليه لتدحض المزاعم

والأقاويل ، ولتؤكد أنها لم تصدر من جانب صاحبها « ليتجر بها أو يربح من ورائها لأن له عن ذلك غنى ولله الحمد » ، وإنما تحقيقاً « لرغبة الزعيم الراحل وتلبية لإرادته وعملا بمشيئته » . وأضافت أن « ما من أحد إلا ويعرف أن الكشاف قد وجدت بمشورته وبمال صاحبها وحده هدية منه للفقيد العظيم ولخدمة مبادئه الخالدة ، وأن كل معداتها كانت مهيأة فى حياته رحمه الله»[٥٤] .

وفى سورة غضبها ذكرت الكشاف أن فى التشكيك بها « لتشكيكا ضمنياً فيمن أشار به ورغب فيه ؛ فى الزعيم الراحل الذى كان قطب الحركة الوطنية» وأضافت : « فهل يدرك الذين يجرون أقلامهم بهذا السفه إلى أى حد تذهب طعونهم ؟؟ » ، واستطردت فى قولها « ومع ذلك فما حاجة الإنجليز إلى جريدة الكشاف ؛ إنه ليس بوزارة من وزارات الضرورة والإسعاف حتى يسنده الإنجليز ويقيمونه بمالهم أو جاههم » ، وأكدت أن الكشاف سيمضى فى طريقه وفقا لمبادئه التى هى « مبادىء الزعيم الجليل »[٥٥] . ونوّهت فى مقال لها بأن كوكب الشرق ـ وهى من أكثر الجرائد الوفدية هجوماً عليها ـ إذا كانت تريد أن تشن حملة عليها وأن تحرض المسئولين من « أعلام الوطنية وزعمائها » وتدس بين الوفد وبينها ؛ فعليها أن تريح نفسها وأن توفر عليها هذا العناء « لأن الوفد ليس مسئولا عن الكشاف وإنما المسئول عنه صاحبه » ، وأنه لم يدّع قط أنه لسان رسمى للوفد فإنه لا أكثر ولا أقل من جريدة تؤيد مبادىء الوفد « فلاداع للدس ولا حاجة إليه ولا خير فيه »[٥٦] .

وعلى الرغم من دفاع الكشاف وتصديها للرد على اتهامات الصحف الوفدية ، فإن هذه الحملة الصحفية المعادية نجحت فى دفع رئيس تحريرها ـ عبد الرحمن عزام ـ النائب الوفدى المتطرف ـ إلى تقديم استقالته من الجريدة وتخليه عنها ابتداء من ٢٢ ديسمبر ١٩٢٧ وقبل أن يمر شهر على قيامه

بهذا العمل وذلك حتى لا يخسر بوجوده فيها سمعته ووطنيته[٥٧] . كما نجحت كذلك فى إعلان حزب الوفد تخليه عنها فى بيان رسمى نشر فى الصحف كما سبق أن مر بنا . يضاف إلى ذلك أن الكشاف ابتداء من احتدام هذا الخلاف ووقوع الفراق بينها وبين صحف الوفد شغلت نفسها بالدفاع عن سياستها والتصدى لدحض حملة التشهير الموجهة إليها ، وركزت مقالاتها وموضوعاتها على أمور اقتصادية وعلمية وفنية وأدبية وغيرها بحيث أنها فقدت إلى حد كبير وزنها وثقلها السياسى الذى تمتعت به خلال فترة الوفاق التى عاشتها مع الصحف الوفديه .

ويحق لنا أن نتساءل عن الأسباب التى من أجلها شنت الصحف الوفدية مثل هذه الحملة القاسية - وربما الظالمة - على هذه الجريدة الوليدة ، على الرغم من ترحيبها بها فى بداية عهدها من ناحية ؛ وما قد أشيع فى المواطنين من علاقتها وارتباطها - خلال محاولات تأسيسها - بزعيم الأمة ورئيس حزب الوفد سعد زغلول ، وهو الأمر الذى أكدته هذه الجريدة مرارا خلال صفحاتها وبدا واضحا من خلال ترحيب حرم الزعيم الراحل بها من الخطاب الذى بعثت به إلى صاحبها واقتطفت منه إحدى العبارات لتكون شعاراً للجريدة ، ولم تحاول أى جريدة وفدية وقتها أن تنفى ذلك أو تكذبه خلال فترة الوفاق معها من ناحية أخرى .

ربما قد يتبادر إلى ذهن البعض أن أمر هذا الصدام إنما يرجع إلى الظروف الحرجة التى كان يمر بها الائتلاف خلال الفترة التى أعقبت وفاة سعد زغلول - مهندس «سياسة حسن التفاهم والاعتدال» - أو أنه قد يرجع فى بعض جوانبه إلى الخلاف الذى شجر بين راعيها ومحور صدورها فتح الله بركات - ابن شقيقة سعد زغلول وزعيم الجناح المعتدل لحزب الوفد وأحد المرشحين لرئاسة الحزب بعد وفاة مؤسسه ووزير الزراعة الوفدى فى حكومة الائتلاف - وبين

أحد زملائه ـ وهو على الشمس ـ والدور الذى لعبته جريدة الكشاف خلال هذه الأزمة والإفاضة بأسبابها وبواعثها على صدر صفحاتها[٥٨] . الأمر الذى دفع فتح الله بركات إلى تقديم استقالته من الوزارة ثم عدوله عنها بعد أن سويت هذه الأزمة .

غير أننا نعتقد أن ذلك كله ـ وربما غيره من الأسباب ـ قد لا يشكل سببا موضوعيا لأبعاد هذا الصدام وعنفه ، بقدر ما يعود ـ فى تقديرنا ـ إلى أسباب أبعد عمقاً من هذا كله ؛ تتلخص فى أنه إذا كان سعد زغلول قد هدف من وراء إصدار هذه الجريدة إلى دفع جماعة المعتدلين من رجال الوفد وقادته ـ بزعامة فتح الله بركات ـ إلى تكوين تكتل قوى معتدل يستطيع أن يسيطر على حزب الوفد ؛ ويتبنى سياسة حسن التفاهم مع بريطانيا تكون له صحيفة تتبنى خطته وتدافع عنها وتحاول الترويج لها بين المواطنين . فإن الظروف الجديدة قد سارت على غير ما كان يهدف إليه . ذلك لأن ظهورها قد تأخر إلى ما بعد وفاة الزعيم سعد زغلول صاحب هذه الخطة وراعيها ، وما ترتب على ذلك من إخفاق الجناح المعتدل فى حزب الوفد فى تصدر قيادته ، بعد أن نجح المتطرفون فى تعيين مصطفى النحاس رئيساً له خلفاً لسعد . وتكاد تجمع المصادر على أن انتخاب واختيار مصطفى النحاس قد شهد معركة كبيرة ولكنها « مكتوفة » فى صفوف قيادات الحزب ؛ قدر للمتطرفين أن يخرجوا منها ظافرين فى النهاية[٥٩] .

ونعتقد أن هذه التطورات الجديدة المفاجئة جعلت من « الكشاف » وخطته أمراً غير مقبول ، وربما غير لائق ولا يتمشى مع الأوضاع الجديدة . ولهذا فإن الصحف الوفدية إذا كانت قد رحبت بها فى البداية ؛ فإنها مالبثت أن سنت أقلامها وانبرت للتهجم عليها وعلى صاحبها موجهة أمضى أسلحتها ضد سياستها التى أفصحت عنها وراعت تروج لها ـ ورددتها الصحف البريطانية ـ

والتى تسعى إلى « الصلح بين دار المندوب السامى والوفد » . وهى نفس محور الخلاف الذى كان محتدماً بين جناحى الوفد من متطرفين ومعتدلين سواء داخل الحزب أو خارجه .

وأهم من كل ذلك أنه ليس صدفة أن اختفاء جريدة الكشاف إبتداء من ١٥ إبريل ١٩٢٨ إنما جاء فى أعقاب تصدر مصطفى النحاس لرئاسة الوزارة عقب استقالة عبد الخالق ثروت . ومن هنا فإنه لم يعد هناك ثمـــة مبرر على الاطلاق لاستمرار صدور مثل هذه الجريدة ، بعد أن نجح قطب المتطرفين الوفديين - ونعنى به النحاس - فى تصدر ليس فقط الحزب ، وإنما كذلك الوزارة الائتلافية . واستهل حياته السياسية الرسمية - كرئيس للوزارة - بالصدام مع ممثلى الاحتلال البريطانى فى مصر . معنى ذلك أن السياسة التى اختطتها الجريدة بتأييد من سعد باشا ومن جماعة المعتدلين قد كتب عليها الفشل الذريع ، فكان لزاماً أن تختفى الجريدة المعبرة عنها .

وهذا فليس غريباً أن ينشر الكشاف فى عدد الأخير رقم ١١٩ الصادر بتاريخ ١٤ إبريل ١٩٢٨ أن ظروفاً دعت إلى أن تتوقف الجريدة عن الصدور بعض الوقت ؛ معللة إياها بأنها ترجع الى ضيق مكانها وعدم استيعابه لمعداتها الكبيرة ، وأنه سوف ينتقل إلى مكان جديد أكثر رحابة واتساعاً وامكانيات ، وأنه سيعود إلى الظهور قريباً بعد إنتقاله إلى مبناه الجديد : « وسيكون صحيفة جديدة فى نمطها وفى أسلوب طبعها ومظهرها من كل ناحية ؛ وأنه سيبرز فى حلة منقطعة النظير إلى الآن فى مصر ؛ وكما أنه قد جارى صحف الغرب فى الاستعداد من حيث التحرير والمراسلات البرقية والبريدية وسبقها فى أكثر من حادثة عالمية ، كذلك سيصدر بإذن الله بعد هذه الفترة الوجيزة كأحسن صحف العالم استعداداً من الوجهة الفنية » . وأنه رغبة منه فى أن ينتفع جمهور قرائه بخدماته التلغرافية وغيرها وعدم حرمانهم منها ، فإن تلغرافاته الخاصة التى ترد إليه

خلال فترة احتجابه القصيرة سيبعث بها « زميلتنا السياسة » - جريدة حزب الأحرار الدستوريين - لنشرها حسب اتفاقه معها . كما طمأن قراءه إلى استمرار إرتباطاتهم وعدم إلغائها وأنه سوف يعوضهم عن فترة اختفائه « القصيرة » وخاصة أولئك المشتركين منهم فى هذه الجريدة .

وهكذا فقد قدر لهذه المحاولة أن تموت مبكراً من قبل أن يمتد عودها ؛ ولم يقدر لهذه الجريدة - على عكس ما وعد به صاحبها وتمنى - الظهور مرة أخرى ، لأن الظروف كانت قد تغيرت تماماً ، وربما لأن مؤسسها قد وعى هذه التجربة جيداً فى ذاكرته فلم يقدم عليها مرة أخرى ، وإنما صرف كل جهده وماله ونشاطه فى القيام بالأعمال المالية والتجارية والاقتصادية عموماً . وقدر له - فيما بعد - أن يصبح واحداً من أكبر أصحاب رءوس الأموال المصريين ؛ ويحرز نجاحاً مرموقاً فى عالم المال والاقتصاد وربما لا يقل عن قدر إخفاقه فى تجربته الصحفية السياسية الأولى والأخيرة والفريدة من نوعها . ثم ليعود فيستثمر ثراءه الواسع فى مجال السياسة خلال الحقبة اللاحقة من تاريخ مصر الحديثة .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت تجربة « الكشاف » قد أخفقت فى المجال السياسى ، على الأقل لم تستطع أن تصمد فى مواجهة المد المتصاعد لفريق المتطرفين من الوفد الذى أثبت فعاليته فى السيطرة الكاملة ليس فقط على الوفد وجماهيره كحزب سياسى - من خلال حصوله على رئاسة الحزب ؛ ولكن كذلك تصدره لزعامة الائتلاف من خلال وصوله إلى رئاسة الوزارة فى مستهل عام ١٩٢٨ وحريته فى الترويج والدعاية السياسية التى يؤمن بها ويعتقد فيها .

إلا أنه من ناحية أخرى نرى لزاماً علينا قبل أن نفرغ من هذه الدراسة

تأكيد القول بأن تجربة الكشاف قد لقيت نجاحاً واسعاً فى مجالات أخرى غير السياسة ونعنى بها المجال الصحفى وما استحدثته من أدوات وأساليب وفنون صحفية جديدة . سواء من حيث الفن الصحفى ذاته ، أو من حيث قدرتها على ملاحقة الأخبار والوقائع المحلية والعالمية ، بفضل ما أتيح لها من إمكانيات هائلة فى مجال الخدمات البرقية والتلغرافية وغيرها ، وهو أمر لم تألفه الصحف المصرية حتى ذلك التاريخ . يضاف إلى هذا أنها قد أسهمت إلى جانب غيرها من الصحف المصرية — بنصيب ليس بالقليل فى المجالات والجوانب غير السياسية التى حددتها لنفسها كهدف عند بداية صدورها ونعنى بها المجالات الاقتصادية من زراعية وتجارية وصناعية وهى بطبيعة الحال تمثل صميم إهتمامات مؤسسها — وكذلك المجالات العلمية والفنية والأدبية وغيرها ، وهو من خلال ما توفر لها من استحوازها على نخبة مقتدرة من المحررين والمراسلين والتراجمة وغيرهم ، وهو ما لم يتوافر لغيرها من الصحف المعاصرة لها .

الحواشى

(١) الكشاف عدد ١ ــ ٢ فى ٢٩ ، ١٩٢٧/١١/٣٠ .

(٢) الكشاف عدد ٣ فى ١٩٢٧/١٢/١ .

(٣) الكشاف عدد ٩ فى ١٩٢٧/١٢/٧ .

(٤) كوكب الشرق ، ٥١١ فى ١٩٢٦/٥/٢ ، ص ٤ .

(٥) كوكب الشرق ، ١٠٣٠ فى ١٩٢٨/١/٥ ، ص ٤ .

(٦) كوكب الشرق ، ٥١١ فى ١٩٢٦/٥/٢ .

(٧) كوكب الشرق ، العدد السابق .

(٨) نفس المرجع .

(٩) الكشاف عدد ١ فى ١٩٢٧/١١/٢٩ .

(١٠) نفس المرجع ، كما أنه نشر فى الصفحة الرابعة نص خطاب أم المصريين ورده عليه ووضع بينهما ــ الخطاب والرد ــ صورة كبيرة لحرم الزعيم استغرقت ثلث الصفحة تقريبا . وقد ورد فى خطابه اليها : « تحقيقا لفكرة عرضت للمغفور له سعد زغلول باشا فى آخريات حياته وعمل على تنفيذها قبل مماته ودفاعا عن القضية المصرية ... قد اتممت التأهب لاصدار الكشاف » ويعاهدها بأنه سيظل متمسكا بمبادئه ملتزما بتعاليمه . وذلك بعد أن قدم لها العزاء فى وفاته .

(١١) الكشاف ، ٢ فى ١٩٢٧/١١/٣٠ .

(١٢) ومنهم اميل خورى الذى عين سكرتيرا للتحرير ، وبهجت الدرينى الذى كان يعمل مراسلا لجريدة كوكب الشرق قبل التحاقه بالكشاف ، وعباس المصفى الذى كان يعمل مترجما محررا سابقا فى جريدة الاجبش جازيت . قبل انضمامه للكشاف وغيرهم . وان كان من الملاحظ على مقالات الجريدة انها تنشر ــ فى معظمها ــ بغير توقيعات محرريها .

(١٣) الكشاف ، ٣٣ فى ١٩٢٨/١/٤ .

(١٤) الكشاف ، ١١٩ فى ١٩٢٨/٤/١٤ .

(١٥) الكشاف ، ٤٩ فى ١٩٢٨/١/٢٣ .

(١٦) محمد السيد شوشة ، من أسرار علي امين ، ص ١٨

(١٧) الكشاف ، ١٩ فى ١٩ ديسمبر ١٩٢٧ .

(١٨) كوكب الشرق ، ١٠٢٨ ، فى ١٩٢٨/١/٣ .

(١٩) الكشاف ، ١١٩ فى ١٩٢٨/٤/١٤ .

(٢٠) الكشاف ، ٣٣ فى ١٩٢٨/١/٤ .

(٢١) كوكب الشرق ، ١٠٢٨ فى ١٩٢٨/١/٣ . نقلا حرفيا عن جريدة الكشاف ذاتها فى برقية لها بعنوان « المصادر التي تستقى الكشاف أخبارها منها » . ونعتقد أن فى نشر نص مشروع هذه المعاهدة خلال هـذه الفترة بالذات ايحاء للمفاوض المصرى بأن يحذو حذو المفاوض العراقى للوصـول الى توقيع اتفاق مع بريطانيا من ناحية ، وتهيئة للرأى العام المصري لهـذا الوضع الجديد من ناحية ثانية .

(٢٢) كوك بالشرق ، ١٠٢٨ فى ١٩٢٨/١/٣ .

(٢٣) كوكب الشرق ، ١٠٢٩ فى ١٩٢٨/١/٤ .

(٢٤) محمد السيد شوشة ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢٥) الاتحاد ، ٧٧٠ فى ١٩٢٧/٣/٢٢ .

(٢٦) الاتحاد ، ٧٩٤ فى ١٩٢٧/٤/٢١ . وذكرت الجريدة أن من بين هؤلاء التطرفين الوفديين : أحمد حمدى سيف النصر ، ويصـا واصف ، د. أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، وليم مكرم عبيـد ، عبد الرحمن عزام ، محمود شكرى ، حسين هلال ، بالاضافة الى مصطفى النحـاس بطبيعة الحال ، ويبدو أنه اذا كان المتطرفون قد حاولوا السيطرة على هذه الجريدة فان وجود سعد زغلول قد أعاقهم عن تحقيق هدفهم هذا خلال هذه المرحـلة .

(٢٧) محمد السيد شوشة ، المرجع السابق ، ص ١٧ — ١٨ .

(٢٨) مذكرات سعد زغلول ، كراس ٥٢ ، ص ٢٩٨٠ — ٢٩٨١ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٢٩٩٧ .

(٣٠) نفس المرجع ، ص ٣٠٠٣ . راجع كذلك مضابط الهيئة البرلمانية الثالثة ، ص ١ — ٣ .

(٣١) مذكرات سعد زغلول ، نفس الكراس ، ص ٢٩٧٦ .

(٣٢) نفس المرجع ، ص ٢٩٨٠ — ٢٩٨١ .

(٣٣) عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ودوره فى السياسـة المصرية (١٩١٤ — ١٩٢٧) ، ص ٤١٩ — ٤٢٩

(٣٤) لاشين ، نفس المرجع ، ص ٤٣٣ — ٤٦٩ .

(٣٥) لاشين ، نفس المرجع ، ص ٤٧٢ — ٤٨٢ .

(٣٦) لاشين ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢ — ٤٩٨ .

(٣٧) الأهرام ، ١٥٣٦٨ في ١٩٢٧/٨/٥ . من حديث صحفي بين كل من عبد الله حسين الصحفي بها وعبد الحميد سعيد النائب عن الحزب الوطنى .

(٣٨) البلاغ ، ١٢٧٥ في ١٩٢٧/٥/٢٢ . وردت ضمن مقال بعنوان « أكاذيبهم علينا » يحاول فيها الكاتب الرد على هذه « المزاعم » البريطانية .

(٣٩) الأهرام ، ١٥٣٥٥ في ١٩٢٧/٧/٢٢ . من حديث صحفى بين كل من عبد الله حسين وفكرى أباظة الصحفى والنائب عن الحزب الوطني .

(٤٠) الكشاف ، ١٣ في ١٩٢٧/١٢/١٢ .

(٤١) الكشاف ، ٣٣ في ١٩٢٨/١/٤ .

(٤٢) البـــلاغ ، ١٤٤٠ في ١٩٢٧/١١/٣٠ ، كوكب الشرق ، ٩٩٩ في ١٩٢٧/١١/٣٠ .

(٤٣) البلاغ ، نفس العدد الســـابق .

(٤٤) البلاغ ، راجع الأعداد ابتداء من ٧ ديسمبر وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٢٧ .

(٤٥) الكشاف ، ١٢ في ١٩٢٧/١٢/١١ . وقد اثار نشر هــذا الخبر استياء شديدا وتعليقات حادة بل وتهجما على الكشاف من جانب الصحف الوفدية وخاصة جريدة البلاغ عددا ١٤٥٠ ، ١٤٥١ في ١٢/١٣ ديسمبر ١٩٢٧

(٤٦) الجهاد ، ١٢٥٣ في ١٩٣٥/٢/٢٧ . وقد ورد ذلك في معرض أقوال وكيل النيابة خلال جلسات قضية « نزاهة الحكم » .

(٤٧) راجع أعداد الكشاف في ١٢/٣ ،١٢/٥ ،١٢/٨ ،١٩٢٧/١٢/٢٧ ١/٦ ، ١/١٢ ، ١٩٢٨/١/٢٠ وغيرها .

(٤٨) كوكب الشرق ، ١٠٢٨ في ١٩٢٨/١/٣ .

(٤٩) كوكب الشرق ، ١٠٣٢ في ١٩٢٨/١/٧ .

(٥٠) كوكب الشرق ، ١٠٢٩ في ١٩٢٨/١/٤ .

(٥١) كوكب الشرق ، ١٠٣٠ في ١٩٢٨/١/٥ .

(٥٢) كوكب الشرق ، ١٠٣١ في ١٩٢٨/١/٦ .

(٥٣) الكشاف ، ٣٢ في ١٩٢٨/١/٣ .

(٥٤) الكشاف ، ٣٣ في ١٩٢٨/١/٤ .

(٥٥) الكشاف ، نفس العدد السابق .

(٥٦) الكشاف ، ٣١ فى ١٩٢٨/١/٢ .

(٥٧) الكشاف ، ٣٠ فى ١٩٢٧/١٢/٣١ وراجع كذلك كوكب الشرق ١٠٣٠ فى ١٩٢٨/١/٥ راجع كذلك الكشاف ، ٢٢ فى ١٩٢٧١٢/٢٢ .

(٥٨) الكشاف ، ٣٠ فى ١٩٢٧/١٢/٣١ وكذلك ٣١ فى ١٩٢٨/١/٢ .

(٥٩) حول هذه المعركة راجع : هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ . فاطمة اليوسف ، ذكريات ، ص ١١١ — ١١٢ . محمد زكى عبد القادر ، أقدام على الطريق ، ص ١٦٨ . لاشين ، سعد زغلول ، ص ٤٩٨ — ٤٩٩ . كوكب الشرق من ٩/٧ حتى ١٩٢٧/٩/١٧ . روز اليوسف ، فى ١٩٢٧/١٠/٦ ، ص ٦ . الأهرام من ٨/٣٠ حتى ٩/٩ ، ١٩٢٧/٩/٢٧ . الاتحاد فى ٩/١٥ ، ٩/١٩ ، ١٩٢٧/٩/٢٠ وراجع كذلك :

(٦٠) الكشاف ، فى ١٩٢٨/٤/١٤ رقم ١١٩ . راجع كذلك الجهاد ، ١٢٥٣ فى ١٩٣٥/٢/٢٧ .

مصـــادر الدراسة

(أ) الوثائق غير المنشورة :

ـــ مذكرات سعد زغلول ، الكراس رقم ٥٢ المودعة بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(ب) الوثائق المنشـــورة :

ـــ مضابط جلسات مجلس النواب المصرى ٢٧ ـــ ١٩٢٨

(جـ) الصـــحف والمجـــلات :

ـــ الاتحاد ٢٧ ـــ ١٩٢٨

ـــ الأهرام ٢٧ ـــ ١٩٢٨

ـــ البلاغ ٢٧ ـــ ١٩٢٨

ـــ الجهاد ١٩٣٥

ـــ الكشاف ٢٧ ـــ ١٩٢٨

ـــ روز اليوسف ٢٧ ـــ ١٩٢٨

ـــ كوكب الشرق ٢٧ ـــ ١٩٢٨

(د) الكتب والمؤلفـــات :

ـــ عبد الخالق لاشين ، سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية (١٤ ـــ ١٩٢٧) دار العودة ، بيروت ١٩٧٥ .

ـــ فاطمة اليوسف ، ذكريات ، كتاب روز اليوسف رقم ١ ، القاهرة ديســـمبر ١٩٥٣ .

ـــ محمد السيد شوشة ، من أسرار على أمين ومصطفى أمين ، كتاب اليوم ١٢٢ ، القاهرة ابريل ١٩٧٧ .

ـــ محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجـــزء الأول ، القـــاهرة ١٩٥١ .

ـــ محمد زكى عبد القادر ، أقدام على الطريق ، القاهرة ١٩٦٧ .

الأرشيف النمساوى مصدراً من مصادر
تاريخ مصر الحديث

للدكتور على محمد بركات

تعتبر النمسا من أولى دول العالم اهتماماً بالوثائق التاريخية وهو اهتمام قديم ومستمر ويرجع إلى القرن السادس عشر حيث تم تأسيس الأرشيف الاقتصادى النمساوى ويتكون الأرشيف النمساوى فى الوقت الحاضر من خمس دور وثائق نوعية لكل منها طابعها المميز وهى :

١ ـ الأرشيف الإدارى العام Allgemeines Verwaltungsarchiv :

يوجد بشارع فالنربفيينا wallner وهو يضم أوراق تاريخ النمسا الداخلى منذ سنة ١٥٠٠ وتمثل أوراق وزارة الداخلية الملكية الامبراطورية المجموعة الرئيسية فى هذا الأرشيف ،وإلى جانب هذه المجموعة يضم الأرشيف الأوراق الخاصة بالشئون الداخلية المختلفة ولا يخرج عن ذلك إلا أوراق وزارة النقل والسكك الحديدية وأوراق الخارجية والاقتصاد والدفاع حيث لها أرشيفات منفصلة ولا يسمح بالاطلاع فى هذا الأرشيف إلا على وثائق ما قبل عام ١٩٣٨ .

٢ ـ الأرشيف المالى والاقتصادى Finanz und Hofkammerarchiv :

وهو فى الواقع أرشيفان منفصلان لا تجمعهما سوى إدارة مشتركة تقع

فى شارع جون جاسى Johannes gasse حيث يوجد أرشيف مجلس البلاط Hofkammer والذى يضم أوراق الأرشيف الاقتصادى حيث كان مجلس البلاط منذ إنشائه فى عام ١٥٢٧ هو الجهاز المتحكم فى الشئون المالية والاقتصادية للامبراطورية النمساوية وظل كذلك حتى عهد الإصلاح الذى قام به فردريك وليم هوج فيتز عام ١٧٤٩ .

ويرجع تأسيس هـــذا الأرشيف إلى سنة ١٥٧٨ عندما فصلت الوثائق والسجلات الاقتصادية عن بقية أوراق مجلس البلاط وظل الأمر كذلك حتى سقوط مجلس البلاط فى ١٨٤٨ .. عندما اندلعت الثورات فى معظم أوربا ضد نظام مترنيخ[1] .

أما الأرشيف الاقتصادى الأحدث Finanzarchiv فيقع فى مبنى وزارة الاقتصاد فى شارع هيمل فورت Himmelpfort gasse وهو يضم المجموعات الاقتصادية الأحدث الخاصة بالنمسا وخاصة فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى والاطلاع عليه متاح حتى سنة ١٩٢٦[2] .

٣ — أرشيف الحرب Kriegsarchiv :

ويوجد فى شارع Stiftgasse ويرجع تاريخ تأسيسه إلى عهد الأمير يوجين سنة ١٧١١ حيث أنشىء لحفظ أوراق مجلس الحرب الامبراطورى الذى كان أنشىء منذ سنة ١٥٥٦ . وبدأ الأرشيف يمارس عمله بالفعل فى سنة ١٧٤٨ حيث بدأ فى جمع الوثائق الخاصة بالفترة من ١٥٥٦ — ١٧٣٦ ومنذ ذلك الوقت أصبح هو الأرشيف المركزى لامبراطورية الهابسبورج فيما يتعلق بهذا النوع من الوثائق وظل يدار كمؤسسة عسكرية حتى سنة ١٩٢٠ حين أصبحت إدارته مدنية .. ثم أعيدت إليه الإدارة العسكرية سنة ١٩٣٨ .

وهو يضم مجموعة ضخمة من الأوراق والخرائط والأوامر العسكرية إلى جانب مذكرات كبار القادة . . كما يضم مكتبة ضخمة فى الشئون العسكرية وهو بذلك يضم كل المجموعات التى تتصل بالتاريخ العسكرى النمساوى باعتبار أن النمسا كانت قاسماً مشتركا فى معظم الحروب التى شهدتها أوربا فى العصر الحديث(٣) .

٤ ـ أرشيف النقل والمواصلات Verkehrsarchiv :

ويوجد فى شارع Aspang strasse بفينا . . وهو امتداد لأرشيف السكة الحديد السابق عليه والذى أنشىء فى سنة ١٨٩٧ ثم تحول إلى أرشيف للنقل فى سنة ١٩١٨ . . وأقدم المجموعات التى يضمها هذا الأرشيف ترجع إلى أول شركة للسكة الحديد أنشئت فى النمسا وعملت فى الفترة من سنة ١٨٢٤ — ١٨٦٠ .

وعموماً فإن أوراق هذا الأرشيف تتصل بتطور النقل والمواصلات فى النمسا وخاصة السكك الحديدية(٤) .

٥ ـ أرشيف الدولة النمساوية Haus-, Hof-Und staatsarchiv :

ويعتبر الأرشيف الرئيسى للدولة وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية وسنعرض له بشىء من التفصيل لأنه يوجد به كل الأوراق التى تتعلق بتاريخ مصر الحديث والدولة العثمانية والتاريخ العربى الحديث أيضاً .

ويقع أرشيف الدولة النمساوية فى ميدان مينورتين Minortenplatz فى مبنى يرجع تاريخ إنشاؤه إلى أوائل القرن العشرين وهو يعتبر واحداً من أغنى ثلاث دور أرشيف فى العالم هى الأرشيف الوطنى الفرنسى فى باريس وأرشيف الفاتيكان ولا يتفوق عليه من حيث عدد الوثائق سوى الأرشيف الفاتيكانى فى روما(٥) .

وقد أنشىء أرشيف الدولة النمساوية فى عهد الأمبراطورة ماريا تريزا (١٧٤٠-١٧٨٠) وعلى وجه التحديد فى سنة ١٧٤٩ وكان الهدف الأساسى من إنشائه هو جمع الوثائق المختلفة لأمبراطورية الهابسبورج وحفظها فى العاصمة النمساوية وتسجيلها .. حيث كانت الأمبراطورة ترغب فى الحصول على أهم الوثائق التى تتعلق بأسرة الهابسبورج لتحفظ فى دار وثائق واحدة .. وعلى ذلك فقد كان هذا الأرشيف ثمرة من ثمرات عهد الإصلاح الذى قادته ماريا تريزا . وقد تم جمع الوثائق الخاصة بالفترة القديمة من الأماكن التى كانت موجودة بها فى جراتس اينزبروك وبراغ ، وغيرها . وخلال الفترة التى أعقبت انهيار الامبراطورية المقدسة وحتى سنة ١٨٥٢ حصل الأرشيف النمساوى على المجموعات الأرشيفية الرئيسية لهذه الامبراطورية أى على أوراق أسرة الهابسبورج وأوراق — المستشارية الامبراطورية وغيرها .

كما شهدت هذه الفترة أيضاً إضافات للأرشيف فى أعقاب حروب نابليون والفترة الثورية التى شهدتها أوربا خلال عام ١٨٤٨ .

وكانت آخر المجموعات التى أضيفت للأرشيف هى تلك التى حدثت فى عهد الجمهورية الأولى (١٩١٨ — ١٩٢٣) .

أما أوراق السياسة الخارجية الخاصة بالفترة من ١٩١٨ - ١٩٣٨ فهذه سلمت للأرشيف خلال فترة الاحتلال الألمانى للنمسا وبعدها(١) .

وكنتيجة لحيازة أرشيف الدولة النمساوية لهذه المجموعات ولغيرها أصبح هذا الأرشيف يضم كل الوثائق السياسية والدبلوماسية والإدارية التى تتعلق بسياسة النمسا الخارجية قبل سنة ١٩٣٨ .

وثمة حقيقة هامة يجب ذكرها حول تطور هذا الأرشيف وهى خروج مجموعات كبيرة منه بتفسخ امبراطورية الهابسبورج عقب الحرب العالمية

الأولى إلى المناطق التى كانت تابعة للنمسا خاصة تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا . .

كما أن بعض المجموعات قد تعرضت للتلف خلال الحرب العالمية الثانية فقد دعى الخوف من الغارات إلى نقل محتويات هذا الأرشيف إلى مخابىء مؤقتة فى النمسا السفلى لكن رغم ذلك فقد دمرت بعض المجموعات الهامة وكانت أكبر الخسائر هى التى حدثت فى سجلات مجلس الدولة القديم وذلك فى ربيع عام ١٩٤٥ بفعل الحرب حيث تحولت النمسا السفلى إلى ميدان قتال لعدة أسابيع وبانتهاء الحرب أمكن نقل المجموعات الباقية إلى مقرها فى الأرشيف بواسطة سلطات الاحتلال وأمكن بذلك تفادى المزيد من الخسائر التى كان من الممكن أن تحدث بهذه المجموعات لو بقيت فى مقرها المؤقت . . وقد أصاب هذه الوثائق الكثير من الاضطراب خلال عمليات النقل هذه من وإلى فينا مما تطلب جهداً كبيراً لإعادة تنظيمها وحفظها . .

تلك هى نبذة بسيطة عن تاريخ أرشيف الدولة النمساوية ننتقل بعدها إلى مجموعات الوثائق الرئيسية التى يضمها الأرشيف . .

أولا : الأرشيف الامبراطورى ويضم ثلاث مجموعات :

١ ـ أوراق المستشارية الامبراطـورية (مجلس وزراء القيصر) Reichshofkanzlei وهى تتعلق بالسياسة العامة للدولة ومن بينها السياسة الداخلية وتوجد عن هذه المجموعة قوائم على درجة كبيرة من التنظيم وإن كان الجزء الأقدم منها قد عانى من التدمير أثناء الحرب ويضم الجزء الأحدث منها تقارير الوزارات المختلفة وهى على درجة كبيرة من الأهمية فى دراسة سياسة النمسا الداخلية .

٢ ـ أوراق مجلس القضاء الامبراطورى Reichshofrat وهى تتعلق

بالشئون القضائية والعدل خـــلال حكم الهابسبورج وإن كانت تضم مجموعات أخرى من الوثائق مثل أوراق إدارة الانعامات والمنح والسجلات الامبراطورية الخاصة بمنح الامتيازات لبعض الحكام وهذه السجلات توجد بشكل متصل منذ نهاية العصور الوسطى وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة فى سنة ١٨٠٧ .

٣ – أوراق وسجلات المجلس الامبراطورى Reichstagsakten وهى تكمل مجموعة أوراق المستشارية وإن كانت تتفوق عليها فى الأهمية غير أن الباحث فى التاريخ السياسى لا غنى له عن المجموعتين ..

ثانياً : أرشيف البيت الحاكم النمساوى :

وهو يضم مجموعات كثيرة ومتعددة كلها تتصل بتاريخ البيت الحاكم منها أرشيف البلاط ، ومراسلات العائلة الحاكمة وسجلاتها الخاصة .. ومجموعة أوراق الأمير رودلف وأرشيف الامبراطور ماكسمليان . . وقد عانت المجموعة بعض الخسائر خلال الحرب العالمية الثانية . . وهناك أيضاً مجموعة الأرشيدوق فرنسواز فرديناند وهذه لا يمكن الاطلاع عليها إلا بإذن خاص من أصحابها ..

غير أن جزءاً كبيراً من أوراق أسرة الهابسبورج - لورين خاصة تلك التى تتعلق بالنصف الثانى من القرن التاسع عشر لا زالت فى حيازة بعض أفراد العائلة ..

أما أرشيف أسرة لورين فإنه أصبح فى حيازة أسرة الهابسبورج بعد زواج ماريا تريزا من فرنسيس ستيفان سنة ١٧٣٦ وأصبح بذلك جزءاً من أرشيف البيت الحاكم[٧] .

ثانياً : الأرشيف السياسى والدبلوماسى :

ويضم بدوره مجموعتين رئيسيتين هما أوراق الدول الأجنبيـــة Staaten aliteilungen ومجموعة مراسلات المستشارية والأرشيف السياسى · Staatskanzlei und politisches Archiv

وعلى الرغم من أن الفواصل بينهما ليست دقيقة فالمادة التاريخية فى الأولى تقود تلقائياً إلى الثانية فمثلا المـادة التاريخية الخاصة بدول غرب أوربا توجد موزعة بين المجموعتين .. إلا أن المجموعة الأولى تغلب عليهـا المراسلات الدبلوماسية وهى على درجة كبيرة من الأهمية فى دراسة التاريخ الأوربى نظراً للدور الذى لعبته النمسا فى التاريخ الحديث(٨) .

وتضم المجموعة هذه، الأوراق الخاصة بعلاقة النمسا بالدول الواقعة فى الشرق والجنوب الشرقى من أوربا وخاصة الدول العثمانية حيث لعبت النمسا دوراً طليعياً فى حماية العالم المسيحى ضد هجمات الأتراك العثمانيين الذين حاصروا فينا مرتين فى العصر الحديث (١٥٢٩ - ١٦٨٣) .. ثم تطورت العلاقة بين النمسا والدولة العثمانية من علاقة أساسها العداء إلى علاقة تقوم على تكامل الدولة العثمانية والحفاظ على أملاكها فى مواجهة أطماع روسيا(٩) .

وينعكس ذلك بوضوح فى ضخامة الوثائق التركية فى الأرشيف النمساوى والتى توجد فى مجموعتين رئيسيتين إحداهما ٥٤١ محفظة تغطى الفترة من ١٥٠٣ وحتى عام ١٨٤٨ والأخرى تضم ١٩٢ محفظة تغطى الفترة من ١٦١٩ إلى سنة ١٨٤٨ وكلاهما تتعلق بعلاقة النمسا بالدولة العثمانية وولاياتها .. وتضم هذه الأوراق تقارير قناصل وفرمانات ومعاهدات ومذكرات متبادلة بين النمسا والدولة العثمانية ومعظمها وثائق دبلوماسية .

ولا تقل مجموعة الأوراق الخاصة ببولندا وروسيا عن الأوراق التركية فى هذا القسم من الأرشيف السياسى(١٠) .

أما مجموعة المراسلات المستشارية فتعتبر امتداداً لهذه المجموعة وإن كانت تضم أصول التعليمات والمذكرات الصادرة إلى القنصليات والسفارات النمساوية فى الخارج ومسوداتها .. حيث كان جهاز المستشارية هو الذى يخطط للسياسة الخارجية ويشرف على تنفيذها ..

ويوجد ضمن هذا الجزء المراسلات المتبادلة بين بلاطى فينا ومدريد حيث كان يحكم فرع الهابسبورج فى أسبانيا وتضم هذه المراسلات العديد من الوثائق ذات الأهمية الخاصة فى التاريخ الأوربى والتى توضح موقف البيتين الحاكمين تجاه العديد من المشكلات والقضايا الدولية(١١) .

وقد انعكس انهيار نظام المستشارية القديمة سنة ١٨٤٨ وظهور وزارة الشئون الخارجية على تقسيم الأرشيف السياسى لأكثر من أربعين قسما تبلورت خلالها مجموعات بالغة الأهمية مثل مجموعات التـــاريخ الاقتصادى وبعضها معاهدات تجارية.. ومجموعة أوراق المعلومات والتى تتصل بأمن الامبراطورية والمؤامرات التى كانت تدبر ضد الدولة.. ثم أوراق حركة القوميات والحركات الاجتماعية وهى أوراق بالغة الأهمية فى تاريخ الامبراطورية النمساوية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين(١٢) .

ويهم الأرشيف السياسى والدبلوماسى المؤرخون المحترفون وتوجد ضمن أوراق هذا الأرشيف الكثير من الوثائق التى تتعلق بتاريخ العرب الحديث.. فإلى جانب الأوراق الموجودة عن مصر توجد وثائق عن المغـرب فى الفترة ١٧٨٣ - ١٨٣٢ تضمها ثمان محافظ .. كما توجد وثائق عن الجزائر خلال الفترة من ١٧٢٤ - ١٨٠٠ .. وكذلك توجد أوراق عن المغرب (مراكش) فى الفترة الحديثة وعن المسألة المراكشية خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩١٤ .. وتوجد محافظ عن فلسطين (يافا والقدس - وجنين) ويضم الأرشيف القنصلى للقدس ١٥٥ محفظة تغطى الفترة من ١٨٤٣ إلى ١٩١٧(١٣) .

وهناك مجموعات نوعيـة من الوثائق أهمها أوراق المجلس الامبراطورى عام ١٨٤٩/٤٨ ومجموعة أوراق أسقفية ميتز وهى تتعلق بتاريخ الكنيسة .

كما توجد أيضاً مجموعة أوراق مترنيخ الرسمية على الرغم من أن جزءاً من مراسلات مترنيخ الخاصة محفوظة فى الأرشيف الوطنى ببراغ(١٤) .

وإلى جانب هذه المجموعات الوثائقية الضخمة يضم الأرشيف النمساوى مجموعة من المخطوطات من بينها مجموعة المخطوطات الشرقية وتكملها مجموعة المخطوطات العربية والفارسية والتركية فى المكتبة الوطنية بفينا ومن بينها عدد من المعاهدات موقعة بين امبراطورية الهابسبورج وسلاطين مراكش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وقد نعود لنشرها فى فترة لاحقة(١٥) .

وتقع أوراق التاريخ المصرى الحديث ضمن مجموعة أوراق الأرشيف — السياسى وأوراق الأرشيف القنصلى وتوجد موزعة على النحو التالى :

١ — مجموعة المراسلات بين الدولة العثمانية والنمسا وهى كثيرة ومتصلة وما يتصل منها بمصر يوجد تحت عنوان القسطنطينية ويرجع أقدمهـا إلى سنة ١٦١٩ غير أن أهم ما فى هذه المجموعة هى الأوراق التى تضمها المحافظ من رقم ٩٣ إلى ١٢٧ وتغطى الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٤٨ وهى الفترة التى تبدأ بحرب اليونان وتمتد إلى ما بعد تسوية المسألة المصرية وترد الإشارة إليها فى اثنين من فهارس الأرشيف النمساوى وعلى الرغم من أنها ترد تحت عنوان القسطنطينية إلا أنها محفوظة تحت إسم تركيا(١٦) .

٢ — المراسلات بين النمسا وانجلترا خلال الفترة من ١٨٣٣ — ١٩٢٠ ومن بين هذه المجموعة محفظة تتناول المسألة المصرية وتغطى الفترة من ١٨١٤

– ١٨٥٧ وعلى الرغم من أنها واردة فى الفهرست تحت اسم لندن إلا أنها محفوظة تحت اسم انجلترا ..[١٧] .

٣ – باقى الوثائق نجدها بشكل مباشر تحت إسم مصر أو موضوعات تتعلق بمصر .. فخلال الفترة المبكرة توجد محفظة كبيرة تضم سبع ملفات وتغطى الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٨٦٠ وتضم العديد من الأوراق والمراسلات حول علاقة مصر بالنمسا وعلاقة النمسا بالمسألة المصرية[١٨] .

كما توجد محفظة عن قناة السويس خلال تلك الفترة أيضاً(١٩) ..

غير أن أكبر المجموعات هى تلك التى تغطى الفترة من ١٨٨١ حتى سنة ١٩١٤ وتحمل إسم مصر وتتكون من ٥٣ محفظة موزعة على النحو التالى :

• المحافظ من ١ – ٨ وتضم البروتوكولات الصادرة خلال الفترة من ١٨٨٢ – ١٩١٤ .

• المحافظ من ٩ – ٢٦ وتشمل تعليمات وتقارير مختلفة متبادلة بين الحكومة النمساوية وقناصلها فى مصر خلال الفترة من ١٨٨٢ – ١٩١٤ .

• المحافظ من ٢٧ – ٤١ وتتعلق بالمسألة المصرية وتطويرها خلال الفترة من ١٨٨١ – ١٨٩٠ بما فى ذلك السياسة البريطانية تجاه السودان .

• المحافظ من ٤٢ – ٤٧ وتتناول الاقتصاد المصرى بما فى ذلك قانون التصفية ولجنة الدين العام والترتيبات الاقتصادية التى تمت فى مصر خلال الفترة من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٨٩٠[٢٠] .

* المحافظ من ٥١ — ٥٢ وتتناول أوراق إدارة قناة السويس فى باريس واتفاقيات القناة .

* محفظة رقم ٥٣ وهى خاصة بالدكريتات التى أصدرها الخديوى فى مصر ابتداء من سنة ١٩٠٤[٢١] :

أما الأرشيف القنصلى فيضم عدداً من الوثائق منها تلك التى يرد ذكرها تفصيلا فى فهرست الأرشيف القديم وتضم قوائم المسافرين إلى القاهرة والإسكندرية وأوراق السفر الخاصة بهم والبروتوكولات الصادرة فى هذا الشأن[٢٢] .

إلى جانب محفظتين تضمان بعض التقارير القنصلية عن الفترة من ١٨٨٠-١٨٩٢ ..

وإلى جانب هذه المجموعات الرئيسية توجد بعض مجموعات متفرقة عن مصر منها تلك الموجودة تحت اسم مصر من ١٨٦٧ -١٩٠٦ وأخرى عن قناة السويس من سنة ١٨٨٧ إلى ١٨٩١[٢٣] .

وسنعرض فى شىء من التفصيل لبعض محتويات هذه المجموعات :

١ - المراسلات العثمانية النمساوية خلال الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٤٨ وتضمها ٣٥ محفظة تبدأ بحرب اليونان وتستمر حتى نهاية عهد محمد على وهذه المجموعة فى الأرشيف النمساوى تنتهى بسقوط نظام مترنيخ خلال ثورات ١٨٤٨ فى أوربا .

وتضم هذه المجموعة مئات التقارير والمذكرات حول المسألة المصرية وتطورها ولا تضم فقط تقارير سفراء النمسا وقناصلها بل تضم أيضاً صوراً من تقارير سفراء الدول الكبرى فى القسطنطينية وصور المذكرات المتبادلة

بين حكوماتهم والباب العالى وبينما تطغى تقارير مسألة اليونان على الفترة الأولى.. إلا أنه ابتداء من سنه ١٨٣٣ تكاد التقارير تكون يومية حول المسألة المصرية .. حيث كانت فينا تتابع الموقف عن طريق ثلاث بعثات دبلوماسية وهى البعثة الدبلوماسية النمساوية فى القسطنطينية برياسة السفير النمساوى ستورمر ثم البعثة النمساوية الدبلوماسية فى اليونان (أثينا) برياسة بروكش أوستن والذى أوفد أكثر من مرة إلى مصر فى مهمات خاصة إلى محمد على .. ثم البعثة القنصلية النمساوية برياسة القنصل لورين فى الإسكندرية . وبينما كان لورين فى الظروف العادية يرسل تقاريره إلى أثينا والقسطنطينية ويتلقى منها التعليمات مباشرة نجده عند الأزمات يرسل تقاريره مباشرة إلى مترنيخ فى فينا لكن الحقيقة أن البعثات الثلاث كانت تعمل فى تناسق كامل وتصب فى النهاية فى مترنيخ وتتلقى التعليمات منه .

وفى واحد من هذه التقارير يتضح موقف السلطان العثمانى من المساعدات الروسية سنة ١٨٣٣ واستعداده للتخلى عنها إذا توقف محمد على عن إثارة مزيد من المتاعب .. (٢٤) .

ويبدو اهتمام النمسا خلال الفترة هذه بقوة الجيش المصرى والبحرية المصرية من التقرير الذى أرفقه ستورمر بتقريره من القسطنطينية فى أوائل سنة ١٨٣٣ .

ويوجد ضمن هذه الأوراق أيضاً نص التقرير الذى أعده بروكش أوستن إلى مترنيخ خلال زيارته إلى مصر فى مهمة خاصة إلى محمد على فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ وأيضاً المذكرة التى قدمها نمك باشا السفير التركى فى لندن إلى بلمرستون فى ١٤ مايو ١٩٣٣ عقب توقيع صلح كوتاهية بين محمد على والسلطان .. (٢٥) .

وتحتفل سنة ١٨٣٤ بالعديد من التقارير حول اندلاع الثورة فى سوريا من بينها تقرير مؤرخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٣٤ عن المدى الذى وصلت إليه الأمور

بين محمد على والسلطان ورغبة محمد على فى إعلان استقلاله ومرفق به عدد من التقارير منها تقرير لدوهاميل(٢٦) .

وتحفل الفترة التاليـة بالعديد من الأوراق والمذكرات إلا أن موضوع حرية التجارة يبرز كموضوع يلقى اهتماماً فى الفترة التالية خاصة بعد توقيع اتفاقية بلطة ليمان بين بريطانيا والدولة العثمانية فى ١٦ أغسطس عام ١٨٣٨ حول حرية التجارة وتصفية الاحتكارات فى الدولة العثمانية والملحق الذى أضيف إلى هذه الاتفاقية فى ١٩ سبتمبر من نفس العام وتوضح التقارير خلال تلك الفترة مدى معارضة محمد على لهذه الاتفاقية إلى جانب عدد من التقارير التى توضح موقف الدول الأوربية من مشروع محمد على للاستقلال عن الدولة العثمانية وهو المشروع الذى كان يلقى معارضة النمسا وانجلترا(٢٧) .

وتحفل سنة ١٩٣٩ بالتقارير والمذكرات المتبادلة بين ممثلى الدول الكبرى وحكوماتهم والباب العالى والذى حرص السفير النمساوى فى القسطنطينية على أن يرافقها بمراسلاته إلى فينا حول المسألة المصرية غير أنه من بين هذه التقارير تقرير يبعد كثيراً عن المسألة السياسية ليتناول تقرير أعده القنصل الرومى فى مصر « ميدوم » عن أوضاع الفـلاحين فى الصعيد الأعلى فى مصر مؤرخ ٢٥ ديسمبر ١٨٣٨ ومحرر من قنا يوضح المدى الذى وصلت إليه أوضاع الفلاحين تحت نظام محمد على(٢٨) .

كما يوجد العديد من المذكرات المقدمة من سفراء الدول الكبرى فى القسطنطينية إلى رشيد باشا وزير خارجية الدولة العثمانية من بينها ثلاث مذكرات بريطانية مقدمة فى ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ أكتوبر عام ١٨٣٩ وهى تتحدث عن موقف فرنسا من التعاون بين انجلترا وروسيا حول المسألة المصرية وعن التدابير التى اتخذت مع الدروز للثورة ضد محمد على وعن الإجراءات التى اتخذتها انجلترا والنمسا للتدخل ضد محمد على فى الشام ..(٢٩) .

وتحفل تقارير سنة ١٨٤٠ عن القوات المصرية فى الشام وتوزيعها وعن حجم التدخل الأوربى ضد محمد على والأسلحة التى وزعت على العناصر المعادية له رخريطة لتوزيع القوات التركية والإنجليزية فى جبل لبنان ... وهى صورة من تقارير لمستروود محررة من جبل لبنان إلى لورد بونسبى فى القسطنطينية وقد أرفقها ستيرمر بتقريره إلى فينا فى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٤٠ كما يوجد ضمن أوراق هذا العـــام نص المعاهدة الموقعة بين باغوص باشا وبين نابييه فى الإسكندرية فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠ والخاصة بقبول محمد على شروط معاهدة لندن .. كما تضم هذه الأوراق وثيقة على قـدر كبير من الأهمية وهى طلب الموارنة وضع أنفسهم تحت الحماية النمساوية .. وهى وثيقة باللغة العربية ومرفق بهـا ترجمة فرنسية للطلب الذى تقدم به الموازنة أيضاً للسلطان العثمانى حول نفس الموضوع وقد نعود إليها فى دراسة منفصلة(٣٠) .

أما مراسلات النمسا مع انجلترا فتتناولها محفظة واحدة تحمل رقم ١١ تحت عنوان انجلترا وهى تضم من بين أوراقهـا ملفين حول المسألة المصرية أحدهما يضم مراسلات عن مصر خلال الفترة من ١٨٣٣ - ١٨٤٠ من بينها مذكرة على قدر كبير من الأهمية محررة فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٣٩ من وزارة الخارجية البريطانية ومرسلة إلى حكومة النمسا حول المسألة المصرية وتحمل وجهـة النظر البريطانية والتى نوقشت فى اجتماع خاص مع مندوب نمساوى أرسل إلى لندن فى ذلك الوقت .. وهى فى ٣٤ صفحة من الحجم الكبير .. أما الملف الآخر فيضم المراسلات بين فينا ولندن سنة ١٨٤١ - وبعضها يتعلق بالمسألة المصرية ويحمل الملف اسم القسطنطينية سنة ١٨٤١(٣١) .

وبينما تضم مجموعة الأوراق السابقة وجهـة النظر الأوربية والعثمانية فى المسألة المصرية خلال هذه الفترة . فإن أوراق المحفظة الموجودة تحت اسم مصر فى الأرشيف النمساوى تعبر عن وجهة نظر محمد على وحكومته فى المسألة

المصرية وفى العديد من القضايا المثارة خـــلال تلك الفترة باعتبار أنها تمثل المراسلات المتبادلة بشكل مباشر بين مصر وحكومة النمسا وهى تحوى منابع من المراسلات بين القاهرة وفينا وبين القاهرة وأثينا حيث بعثة بروكش أوستن فى اليونان وبين لورين فى القاهرة وسفير النمسا فى القسطنطينية وتضم بعض الرسائل المتبادلة بين بروكشن أوستن وبين إبراهيم باشا فى الشام وكذلك اتصالات تمت بين المندوبين الأوروبين وبين سليمان باشا الفرنساوى فى الشام وبرقيات ورسائل متبادلة بين باغوص نوبار وزير خارجية محمد على ومترنيخ وبرقيات من مترنيخ إلى باغوص سنة ١٨٣٤ حول موضوع استقلال محمد على .

وعلى الرغم من أن هذه المحفظة تحمل تاريخ ١٧٥٠ — ١٨٦٠ إلا أنها فعلياً تبدأ من سنة ١٨٠٣ وتنتهى سنة ١٨٤٤ ولا يوجد بين أوراق هـذه المحفظة سوى وثيقة تركية يرجع تاريخها إلى شعبان ١١٣٠ هـ (مارس سنة ١٧٥٠) .. ومرفق بها تقرير باللغة الإيطالية وهى خاصة بقبول بعض التجار تميين المدعو طايع الخرق قنصلا على السفن الإسلامية ولا توجد أى مكاتبات أخرى بعد هذه الوثيقة قبل سنة ١٨٠٣ .. وباستثناء هذه الوثيقة وملحقاتها فإن ما تطلق عليه الوثائق إسم المشكلة القبطية يستغرق الجزء الأكبر من الملف الأول فى هذه المحفظة والذى يغطى الفترة من سنة ١٨٠٣ — ١٨٠٩(٣٢) .

وقد نشأت هذه المشكلة عندما أرسلت طائفة الروم الكاثوليك بالقاهرة تطلب فى عام ١٨٠٤ من الحكومة النمساوية والبابوية التدخل لحمايتهم من الاضطهاد الواقع عليهم من قبل الأقباط المصريين الأرثوذكس الذين يمنعونهم من ممارسة شعائرهم الدينية .

وتشير الوثيقة إلى طلب آخر قدم للبابا بيوس وثالث إلى المجمع المقدس فى روما ويبدو أن بعثة كاثوليكية قد أرسلت من أجل هذا الموضوع من قبل البابوية وبالاتفاق مع حكومة النمسا . الأمر الذى غضب الباب العالى

واعتبره تدخلا فى شئون رعاياه مما جعل حكومة فينا تقرر فى نوفمبر سنة ١٨٠٧ أن أى ترتيبات تضعها سلطات القاهرة المحلية فى مسألة الأقباط لابد أن تحظى بموافقة الباب العالى .

— ويتضح من هذه المحفظة أيضاً أن أحد المشكلات الرئيسية التى كانت تعانى منها السياسة البريطانية هى نظام الاحتكار الذى طبقه محمد على فى سوريا ابتداء من سنة ١٨٣٤ حيث تضم هذه المحفظة عدداً من التقارير خلال سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ عن موقف حكومة بلمرستون من سياسة الاحتكار فى سوريا .

— كما توضح عدد من التقارير التى أرسلها لورين إلى حكومته موقف محمد على من اتفاقية أدرنه الموقعة بين روسيا والدولة العثمانية فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٢٩ وخاصة ما يتعلق بالتجارة الداخلية (مادة ١) وما يتعلق منها بالتجارة بين روسيا والدولة العثمانية (مادة ٢) .

— وتضم هذه الأوراق أيضاً تقارير عن قوة الجيش المصرى فى بلاد الشام وتوزيعها ومنها تقرير محرر بمعرفة مسترلابى فى بلاد الشام فى فى فبراير ١٨٣٩ عن حجم القوات المصرية وتوزيعها فى بلاد الشام .. وفى هذا التقرير حدد مستر لابى قوة الجيش المصرى بما يبلغ ٧٦٥٧٢ رجلا منها ٢٥ ألف من الفرسان وأن الجيش المصرى يملك ١٤٤ مدفعاً وأن القوات النظامية فى الجيش قوامها ٦١٣٧٢ رجلا وضابطاً والباقى من الباشبوزن وفرسان البدو .. وقد أرفق لورين هذا التقرير فى رسالة بعث بها إلى حكومته .

ويبدو أن هذا المصدر كان مقدمة للتدخل العسكرى ضد محمد على فى بلاد الشام خاصة أنه كان يتضمن توزيعاً دقيقاً للقوات ومواقعها ..

— وتضم هذه المجموعة أيضاً برقيات وتقارير عن موقف النمسا من محمد علي ومن مشروعاته للاستقلال وهي الدعاوى التي تكررت سنوات ١٨٣٤ ، ١٨٣٧ و ١٨٣٨ ويوضح الموقف النمساوى عدداً من البرقيات بعضها بخط مترنيخ شخصياً موجهة إلى باغوص نوبار والبعض الآخر إلى لورين كما يتضح في برقيتين متتاليتين في ٦ ، ١٠ أغسطس ١٨٣٨ وبخط مترنيخ وتوقيعه(٣٣) .

وفي هاتين البرقيتين أوضح مترنيخ بما لا يدع مجالا للشك رفض النمسا لفكرة استقلال محمد علي .. والبرقية الأولى تبدأ بالإشارة إلى الاتصالات التي قام بها محمد علي حول نيته في أن يعلن استقلاله وأنه يأمل أن يعترف به العالم المسيحي .. ويشير مترنيخ في هذه البرقية إلى الظروف التي شجعت محمد علي على أن يسعى لإعلان استقلاله هي إدراكه بأن الدول الكبرى التي لازالت متفقة على موقف موحد من مشروع استقلاله لن تبق متفقة طويلا . . وأن هذا الاختلاف في الرأي سوف يخدم أطماعه في النهاية . . ويرى مترنيخ أن النمسا مطالبة — عن طريق قنصلها لورين — بهدم هذا الخطأ من أساسه وأن لورين عليه أن ينتهز أول فرصة ليعلن بشكل حاسم أن النمسا لن تعترف باستقلال مصر حتى ولو أعلن محمد علي ذلك من جانبه وستظل حكومة النمسا تعامله على أنه جزء من الامبراطورية العثمانية .

— أما موقف النمسا من المسألة المصرية بشكل عام فتتضمنها مذكرتان ضمن أوراق هذه الحفظة الأولى محررة في ٧ فبراير عام ١٨٣٨ باللغة الفرنسية تحت عنوان « جوانب من المسألة المصرية التركية » ، وهي مذكرة تقع في ٢٧ صفحة وتتعرض بالتحليل لأوضاع الدولة العثمانية والحالة التي وصلت إليها والأخطار التي تهددها وتقسمها إلى أخطار داخلية وخارجية وتركز

على الأخطار الداخلية ممثلة فى محمد على وهى ترى فيه ظاهرة طفيلية نشأت من خلال ضعف الدولة العثمانية وإن هذه – الظاهرة لن تستمر برغم ضعف الدولة العثمانية الظاهر لأنها الأقوى على المدى البعيد .. وأن النمسا لايمكن أن توافق على شطر الامبراطورية العثمانية إلى شطرين أو أن تهيمن مصر على الامبراطورية العثمانية .

– والمذكرة الثانية محررة فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٤٠ وتقع فى ١٦ صفحة وتركز على أن النمسا وهى تؤيد الباب العالى فإنها تساند صاحب الحق الشرعى فى مواجهة ثائر يحاول أن يفرض استقلاله على أساس من الأمر الواقع وهو – موقف يتفق مع سياسة مترنيخ المعروفة فى أوربا فى ذلك الوقت وتنتهى المذكرة إلى ضرورة إخضاع محمد على بالقوة .

– وتستمر أوراق هذه المحفظة حتى سنة ١٨٤٤ وتركز التقارير فى الفترة التالية على الأوضاع التى خلفها المصريون فى الشام والثورة على العثمانيين سنة ١٨٤٢ وكذلك متابعة لورين فى عدد من التقارير لأتباع بريطانيا سياسة الباب المفتوح والاتفاقية التى وقعتها بريطانيا مع الصين فى ذلك الوقت(٣٤) .

– أما المسألة المصرية فى الثمانينات فتغطيها ١٥ محفظة تضم الأوراق والمراسلات خلال الفترة من ١٨٨١ وحتى سنة ١٨٩٠ بما فى ذلك سياسة بريطانيا تجاه السودان وتشمل الفترة من ١٨٨١ وحتى ١٨٨٣ التقارير والمذكرات المتبادلة حول المسألة المصرية ومن بينها التعليمات التى أرسلتها الحكومة النمساوية فى لندن وباريس وسان بطرسبرج وروما والقاهرة – خلال الفترة من ٢١ – ٢٥ يناير سنة ١٨٨٢ .. وهى تركز على أساس الحفاظ على الأمر الواقع الذى أقرته تسوية ١٨٤١/٤٠ والفرامانات السلطانية الصادرة فى هذا الشأن وأن الحكومة

النمساوية ترى أن ذلك مسئولية الدول الكبرى الموقعة على اتفاقية لندن جميعها وتدور كل مراسلات فينا مع ممثليها فى القاهرة وغيرها على أساس هذا المبدأ ، وتضم أيضاً هذه الأوراق البرقيات والمكاتبات المتبادلة بين الحكومة البريطانية وممثليها وبين الدول الأوربية المعنية بالأمر والتى قدمتها الحكومة البريطانية إلى البرلمان البريطانى فى ذلك الوقت وأيضاً المكاتبات والمراسلات الفرنسية فى هذا الشأن . . . والمأخوذة عن وثائق الخارجية الفرنسية.. كما تضم هذه المجموعة عدداً من المذكرات المتبادلة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية حول المسألة المصرية وفى مذكرة مؤرخة فى ١٦ مايو ١٨٨٢ أوضحت الحكومة العثمانية لسلطات حكومة فينا وجهة نظرها التى تقوم على أساس رفض الدولة العثمانية لأية تعديلات فى الأمر الواقع القائم فى مصر أو ضد الخديوى المعين من قبل السلطان .

كما تضم هذه المجموعة العديد من الوثائق حول مؤتمر القسطنطينية الذى تقرر عقده فى تلك الفترة للنظر فى موضوع المسألة المصرية وموافقة الدول الأوربية على ذلك بما فى ذلك انجلترا . .

وتضم هذه الأوراق حواراً طريفاً بين مصرى وفرنسى سجله القنصل النمساوى — فى بور سعيد حول موقف الشعب المصرى من التدخل الفرنسى البريطانى وحول الوطنية المصرية وتأييد الشعب المصرى لأحمد عرابى وهو مؤرخ فى ٦ يونيو ١٨٨٠[٣٥] .

— كما تضم هذه المجموعة أيضاً مذكرة أرسلتها حكومة انجلترا فى ٣ يوليو عام ١٨٨٢ إلى حكومة فينا تبرز فيها الحكومة البريطانية ما تنوى القيام

من عمليات عسكرية ضد مصر وتذكر فيها أن الأمير سيمور سوف يقوم « بإجراء بسيط ومشروع للدفاع عن النفس » .

ثم المذكرات التى وزعتها الحكومة العثمانيـــة عقب ضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ كما تضم أيضاً بياناً بعدد الأجانب العاملين فى الحكومة المصرية وجنسياتهم وتطورهم منذ عهد محمد على وهو مأخوذ عن المصادر البريطانية .

— ومنها مذكرة بريطانية مسلمة إلى سفير النمسا فى القسطنطينية تؤكد أن - بريطانيا سوف تواصل عملياتها العسكرية فى مصر وأنه ليس لديها مانع من مشاركة السلطان العثمانى عن طريق إرسال قوات تركية إلى مصر .

— وتضم هـذه المجموعة أيضاً العديد من الخرائط والتقارير العسكرية حول سير القتال وتوزيع القوات العسكرية قبل نشوب القتال فى التل الكبير ومن بين هذه الأوراق برقية مرسلة من الحكومة النمساوية تهنئ فيها الحكومة الإنجليزية بانتصارها فى التل الكبير وكذلك قرار محمد شريف باشا بإلغاء المراقبة الثنائية فى ٧ نوفمبر ٢٨٨٢ ..

كما توجد الكثير من المراسلات حول مهمة دوفرين وإصلاح الإدارة فى مصر فى أوائل سنة ١٨٨٣[٣٦] .

أما الفترة من نهاية سنة ١٨٨٣ إلى ١٨٩٠ فتحفل بالأوراق الخاصة بالسياسة الإنجليزية تجاه السودان خلال تلك الفترة والموقف من الثورة المهدية ثم بعثه غوردون وإخـــلاء السودان وبعثة درموند وولف وغيرها[٣٧] .

— أما مجموعة وثائق السياسة الإيطالية فى البحر الأحمر خلال الفترة من سنة ١٨٨٤ — ١٨٩٠ فتضم المذكرات والبرقيات المتبادلة بين الحكومة الإيطالية وبين حكومة فرنسا وانجلترا والدولة العثمانية والنمسا حول — نزول إيطاليا وتوسعها فى الشاطىء الجنوبى للبحر الأحمر ..

من ذلك مذكرة قدمتها الحكومة العثمانية إلى حكومة فينا توضح وجهة نظر الدولة العثمانية فى نزول الإيطاليين فى مصوع مؤرخة فى ١٠ فبراير عام ١٨٨٥ .

وكذلك مذكرة مؤرخة فى ٥ يناير ١٨٨٥ عن موقف الحكومة الفرنسية من الحملات الإيطالية على ساحل البحر الأحمر الغربى . . وأيضاً مذكرة مقدمة من الحكومة الإيطالية إلى حكومة فينا حول وجهة نظر إيطاليا فى احتلال مصوع مؤرخة ٢٥ يوليو ١٨٨٨ حول إعلان السيادة على مصوع . . ومذكرة فرنسية فى ٣ أكتوبر ١٨٨٨ إلى الحكومة النمساوية حول موقف فرنسا من احتلال إيطاليا لمصوع .

هذا إلى جانب مجموعة المراسلات التى تمت بين الحكومة الإنجليزية وغيرها من الدول المعنية وبين ممثليها فى القاهرة حول السياسة الإنجليزية فى جنوب البحر الأحمر وخليج عدن .. وهى مأخوذة عن وثائق الخارجية البريطانية . .

— وكذلك ثلاث مجموعات من الوثائق الإيطالية مأخوذة عن وثائق الخارجية الإيطالية منها مجموعة حول مصوع تقع فى ١٤٠ صفحة.. وتقع

المجموعة الثانية فى ٩٢ صفحة وهى تضم الوثائق الإيطالية الخاصة باحتلال أسمرة وكرن - أما المجموعة الثالثة فتقع فى ٤٤٠ صفحة وتضم الوثائق الإيطالية حول أثيوبيا وتتضمن النص الإيطالى لمعاهدة أوتشياللى التى ثار حولها الخلاف بين إيطاليا والحبشة والتى وقعت سنة ١٨٨٩[٣٨] .

وفى النهاية فإن الأرشيف النمساوى يقدم مصدراً لا غنى عنه لدراسة تاريخ مصر الحديث وخاصة فى القرن التاسع عشر .

الحواشى

(1) Austrain History yearbook, 1970 ، 71. pp. 17-21.

(2) Ibid, pp. 23-38.

(3) Ibid, pp. 39-66.

(4) Ibid, pp. 67-74.

(5) Austria facts and figures, Vienna, 1973, p. 154.

(6) Austrian History year book, pp. 1-4.

(7) Ibid, pp. 5-10.

(8) 200/1 Ubersicht der Archiv behelfe. staaten abteilungen.

(٩) حول علاقة النمسا بالدولة العثمانية انظر :

Rickett Richard, Abrief survey of Austrian history, wien, 1975. pp. 23, 24.

د. محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ص ١٦٣ — ١٦٨ .

(10) AB. 200. VIII/7/3. Türkei, 1-6.
VII/3-217 b. Gesandschafts-und konsulatsarchiv (altbehelfe). knostantinople, 1619-1852.
VII/10, Botschafts archiv, konstantinople.

(11) 200/1 Ubersicht der Archivbehelfe, staatenabteilungen Ubarsicht der Archiv behelfe, Politischesarchiv.

(12) Austrian history yearbook, pp. 10-13.

(13) A.B. 200, VIII/7/3.
A.B Politisches archiv, XXXII, Marokko
VII/3-217 b. Osterr-Ungar, Konsulates in Jeursalem.

(14) Austrian History year book, 1965, V. I. p. 38.

(١٥) المكتبة الوطنية بفينا .
Der Arbischen handschriften, Mxt 493.

(16) A.B. VII/10. Konstantinople 1. A.
VII/3-217 b, Konstantinople, G-A.

(17) Ibid, ، London, B-A, 1833-1920.

(18) A.B. 200 VIII/7/3, I-Ägypten, 1750-1860.
A.B. 200/1.

(19) A.B. VII/10, B. Zweite Grouppe, 1.61 Suezkanal, fasz 16.

(20) VI/1 P.A, XXXI, Agypten, 1882-1917.

(21) VII/3-217 b, Kairo, 1846-1922.

(22) A.B VII/10, Kairo.

(23) Ibid.

(24) 106, Türkei, Gesandschaftsarchiv, Berichte, 1833 1-V.

(25) Ibid.

(26) 108, Türkei, G.A. 1834.

(27) 111, Türkei, G.A. 1837-38.

(28) 112, Türkei, G.A. 1839.

(29) 113, Türkei, 1839 VIII-XII.

(30) 115, 116, Türkei, 1840, V-XII.

(31) 11-England, G.A. 1814-1857.

(32) 1, Ägypten, 1750-1860.

(33) Ibid.

(34) Ibid.

(35) 27, 28 P.A XXXI Ägypten, 1881-1882 VI.

(36) 29-33 XXXI Ägypten, 1882-1883.

(37) 34-41 XXXI Ägypten, 1884-1890.

(38) 48-50, Ägypten, 1885-1890 (Italien Aktion im Roten Meer).

« دراسة وتحقيق الوثيقة رقم ٢٥٢ »(١)

« من مجموعة وثائق دير سانت كاترين »

الدكتور قاسم عبده قاسم

مدرس تاريخ العصور الوسطى
جامعة الزقازيق

الوثيقة التي نقدمها في هذه الدراسة تنتمي إلى مجموعة الوثائق العربية في تلك المجموعة من الوثائق المعروفة باسم « وثائق دير سانت كاترين » ، نسبة إلى الدير الذي يحمل هذا الإسم والذي بنى في مكان مقدس من شبه جزيرة سيناء بأمر الامبراطور البيزنطي جستنيان Justinian (٥٢٧ — ٥٦٥م) في أربعينيات القرن السادس الميلادي(٢) .

والواقع أن هذا الدير الذي أقيم في هذه المنطقة النائية كان يضم مكتبة حوت مجموعة نادرة من الوثائق والمخطوطات البالغة القيمة والتي كتبت في لغات متنوعة ومختلفة وتراكمت في مكتبة الدير على مر السنين ومنـــــذ وقت مبكر لفتت كنوز مكتبة دير سانت كاترين بسيناء أنظار الباحثين والدارسين ؛ ففي القرن التاسع عشر قامت بعثة روسية برئاسة « بورفيريوس أو سبنسكي » بزيارة مكتبة الدير للتعرف على محتوياتها ، وفي هذا القرن نفسه قامت بعثة أخرى ألمانية بقيادة « قسطنطين تشندروف » بزيارة دير سانت كاترين للغرض نفسه . وقبيل الحرب العالمية الأولى زارت الدير بعثة ألمانية أخرى . إلا أن أعمال هذه البعثات قد دمرت ابان الحرب الأولى نفسها . وفي سنة ١٩٤٨ قامت

بعثة أمريكية برئاسة « وندل فيليبس » وعضوية « وليم أولبرايت » و « هنرى فيلد » باستطلاع كنوز المكتبة ، وهذه البعثة هى صاحبة فكرة تصوير محتويات المكتبة « بالميكروفيلم » . وبعد مفاوضات طويلة تكونت بعثة مصرية — أمريكية مشتركة من مكتبة الكونجرس بوشنجطن ، وجامعة الاسكندرية ، ومؤسسة دراسات الإنسان التى يرأسها « وندل فيليبس » ووزارة المعارف المصرية ، وقامت هذه البعثة المشتركة بزيارة الدير وبدء عملية فحص وتصوير محتويات مكتبة دير سانت كاترين سنة ١٩٤٩[٣] .

وقد اكتشفت هذه البعثة المشتركة أن مكتبة الدير تحتوى على ما يزيد على خمسة آلاف كتاب ووثيقة مخطوطة فى إثنى عشرة لغة هى اليونانية والعربية والسوريانية والجورجانية والآرمنية والصقلية والأثيوبية والقبطية والبولندية واللاتينية والفارسية والتركية[٤] ، وقد تراكمت هذه الكتب والمخطوطات بمكتبة الدير على مر السنين منذ بنائه فى أواسط القرن السادس . ويمكن تفسير هذا التنوع الكبير فى اللغات التى كتبت بها محتويات مكتبة دير سانت كاترين فى ضوء الحقيقة القائلة بأن هذا الدير كان من بين المزارات المسيحية المقدسة التى يفد المسيحيون من شتى الأنحاء لزيارتها[٥] .

وقد أحصت البعثة ستمائة واثنين من الكتب المخطوطة ، وألفاً وإحدى وسبعين وثيقة عربية ترجع إلى العصر الفاطمى وما بعده من العصور ، فضلا عن ستمائة وواحد وستين فرماناً تركياً[٦] . ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى مجموعة الوثائق الخاصة بعصر سلاطين المماليك فى مصر ، وهذه المجموعة تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما : مجموعة الوثائق العامة ، ونعنى بها مجموعة المراسيم والمثالات التى أصدرها سلاطين دولة المماليك البحرية ودولة المماليك الجراكسة وكبار أمراء الدولتين لصالح رهبان « دير طورسينا » كما عرف آنذاك ، وهذه

المراسيم تبدأ بالسلطان « المظفر سيف الدين قطز » أول سلاطين المماليك ، وتنتهى بالسلطان « الأشرف طومانباى » آخر المماليك الجراكسة .

وتكمن أهمية هذه المجموعة من الوثائق العامة فى أنها تكشف عن موقف دولة سلاطين المماليك الرسمى تجاه رعاياها من غير المسلمين ، وتوضح كيف اهتم أولئك السلاطين بتأكيد التزامهم بروح الإسلام السمحة وموقفه الواضح إلى جانب حرية العقيدة ، كما أن المعلومات التى تمدنا بها هذه المجموعة من الوثائق تكشف لنا عن الكثير من حقائق أوضاع المسيحيين المصريين لا سيما أبناء الطائفة التى عرفت باسم المالكية أو الملكانية آنذاك وهى طائفة الروم الأرثوذكس الذين كان الدير تابعاً لهم ، كما يتضح من الوثائق أن الدير كان يتمتع بمكانة خاصة ، وكانت له أملاك وأوقاف كثيرة موزعة ما بين مصر والشام ، وكانت هذه الأوقاف والأملاك معفاة من الضرائب والرسوم شأنها شأن الصدقات والنذور الكثيرة التى كانت ترد إلى الدير من شتى الأنحاء[٧] . ومن خلال هذه المجموعة من وثائق دير سانت كاترين تصلنا معلومات قيمة عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ذلك العصر الحافل بالأحداث .

والمجموعة الثانية من وثائق دير سانت كاترين هى مجموعة الوثائق الخاصة ونعنى بها تلك المجموعة من الوثائق التى شملت كثيراً من أوجه النشاط اليومى للناس ؛ ما بين عقود بيع ، وفتاوى شرعية ومعاهدات بين رهبان الدير وأبناء قبائل البدو المقيمة فى المناطق المحيطة به[٨] ، وحجج أوقاف ، وايصالات وابراء ذمة ، ورهن ومصادقات شرعية ، ودين . . . وما إلى ذلك من معاملات بين عامة الناس . وتكمن أهمية الوثائق الخاصة فى أنها تتعرض — فى صدق لا يشوبه الحرص على الرسميات — لمظاهر الحياة اليومية ومعاملاتهم ومن ثم فهى تلقى كثيراً من الضوء على أحوال المجتمع فى تلك الفترة من تاريخ مصر .

والوثيقة التى نتناولها بالدراسة تنتمى إلى مجموعة الوثائق الخاصة وهى عبارة عن لفافة طويلة مكونة من عدة دروج من الورق ملصوقة ببعضها البعض وأبعادها ١٠٧٫٥ × ٢٨ سم ، وقد اعتمدت على صورة لها على نسخة من الميكروفيلم محفوظة لدى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ، وتحمل الوثيقة رقم « ٢٥٢ مصادقة شرعية » ، وتاريخها ١٦ صفر سنة ٨٨٩ هجرية .

وموضوع الوثيقة مصادقة شرعية بين رجل وامرأة من طائفة النصارى الملكية (الروم الأرثوذكس)(٩) على تصفية تركة إمرأة نصرانية هى أم المرأة وزوجة الرجل طرفى الوثيقة ، وقد انحصر إرثها فى هذين الاثنين بالإضافة إلى طفل قاصر هو ابن المتوفاة من زوجها . وقد مات الطفل فانحصر إرثه فى جدته .

وتحمل الوثيقة فى طياتها كثيراً من المعلومات الهامة عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، كما تكشف سطورها عن بعض جوانب حياة طوائف أهل الذمة فى ذلك المجتمع ، فضلا عن أن الوثيقة توضح جانباً هاماً من جوانب الحيـــاة المصرية آنذاك وهو الجانب القانونى ، وتبين كيف كان المسيحيون واليهود يلجأون فى أحوال كثيرة إلى القضاة المسلمين لتوثيق تصرفاتهم القانونية من بيع ووقف وتقسيم ميراث أو غير ذلك من المعاملات اليومية . والجدير بالذكر أنه كان يتعين عليهم فى هذه الأحوال أن يلتزموا بأحكام الشريعة الإسلامية .

ومن ناحية أخرى تكشف الوثيقة التى بين أيدينا عن بعض الجوانب الهامة فى البناء الاقتصادى حين تشير إلى بعض مظاهر النظام النقدى(١٠) ، وعن بعض المهن التى كان اليهود والنصارى يعملون بها(١١) .

وتبدأ الوثيقة بالافتتاحية التقليدية للوثائق الخاصة فى ذلك العصر ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على ساير الأنبياء والمرسلين الحمد لله» . ثم تذكر الوثيقة اسم القاضى المسلم الذى تم توثيق التصرف القانونى موضوع الوثيقة على يديه ، وتكيل له عبارات المديح والثناء ، لتتطرق بعد ذالك إلى ذكر طرفى الوثيقة ثم تدخل فى تفاصيل التصرف القانونى موضوع الوثيقة . وتختتم الوثيقة بذكر تاريخ تحريرها وإثبات اسم الشاهدين .

أما لغة الوثيقة فهى ركيكة تنم عن روح العصر وما نعرفه عن تدهور اللغة العربية بحيث صارت المؤلفات تكتب فى لغة أقرب ما تكون إلى العامية ، وبحيث صار استخدام الكلمات العامية والمصطلحات الأجنبية سمة بارزة من سمات الكتابة فى ذلك العصر ، وجدير بالذكر أن الوثيقة التى بين أيدينا ترجع إلى أواخر القرن التاسع الهجرى (أواخر القرن الخامس عشر الميلادى) وهى الفترة التى كانت بمثابة مرحلة أفول الحضارة وفترة غروب شمسها فقد سقطت الدولة بعد ثلاثين عاماً ونيف فقط . وقد أهمل كاتب الوثيقة تثبيت الهمزة فى سياق عباراته .

وقد كتبت الوثيقة فى ثلاثة وأربعين سطراً بالخط الرقعة ، ويبدو أن كاتبها لم يهتم بمراعاة وضوح الخط ، كما أهمل النقط فى بعض الكلمات مما جعل بعض الكلمات تبدو غامضة غير مقروءة ؛ وقد تركت مكان الكلمات الغامضة فراغا وأشرت إلى غموضها .

وقد راعيت الإلتزام الكامل بنص الوثيقة ولغتها وترتيب سطورها ، بيد أنى حاولت تفسير كل ما غمض فيها من ناحية ، واستخراج الدلالات التى تضمنتها من ناحية أخرى .

نص الوثيقة

صلى الله على سيد الأنبياء والمرسلين

١ – بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

٢ - الحمد لله جرى ذلك[١٢]

٣ – بين يدى سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ العلامة محى الدين رمز العلما[١٣] أوحد الفضلا مفتى المسلمين أبى الجود عبد القادر الراوى خليفة الحكم

٤ - العزيز بالديار المصرية[١٤] أيد الله تعالى أحكامه وأحسن إليه . تصادق جرجس المدعو مكين بن إلياس بن صالح النصرانى الملكى[١٥] المعروف ناسه وجده وشقرا

٥ – المرأة ابنة منصور بن عيسى النصرانية الملكية المعروفة بزوجة نصر الله الجوخى[١٦] تصادقاً شرعياً فى صحتهما وسلامتهما وطواعيتهما واختيارهما على هلاك

٦ – مريم المرأة إبنة نصر الله بن بدير النصرانية الملكية وانحصار إرثها الشرعى فى زوجها مكين المذكور وفى ولده منها موسى القاصر وفى والدتها شقرا المذكورة

٧ – من غير شريك ولا حاجب وعلى هلاك موسى المذكور وانحصار إرثه الشرعى فى جدته لأمه شقرا المذكورة من غير شريك ولا حاجب[١١]

٨ – وعلى أنها خلفت مما يورث عنها شرعا قماشاً وأثاثا ونحاسا ومصاغا ولولوا[١٨] وغير ذلك وعلى أن ذلك جميعه أبيع بمباشرتهما لذلك وقبض ثمن ذلك وجميع قيمته

٩ مايه[١٩] ألف درهم. . .[٢٠] واحد وثلاثون ألف درهم ومايه درهم وأربعة وتسعون درهماً فلوسا[٢١] وعلى أن صرف قبل تاريخه على جهة التركة المذكورة

١٠ – من يد مكين المذكور اثنى عشر ألف درهم فلوسا بإذنها له فى الصرف المذكور وصرف بعد ذلك فى مصارف شرعية وعرفية وكلفة وعمالة وغيرها تسعة آلاف درهم

١١ – ومايه درهم وأربعة دراهم وصار المتأخر بعد ذلك لجهة التركة المذكورة مايه ألف وأحد وعشرة آلاف درهم وتسعون درهماً فلوساً قسم ذلك بين مكين

١٢ – المذكور وبين شقرا المذكورة القسمة الشرعية نحو ستة أسهم وثلث سهم وهو أحد وثمانون ألف درهم وثلاثون درهماً بما فى ذلك مما أبيع على كل منهما

١٣ – من التركة المذكورة وذلك بعد محاسبة شرعية صدرت منهما فى ذلك وتعريف كل منهما بمقدار حصته من ذلك وتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وأشهد عليه

١٤ – كل من مكين وشقرا المذكورين أعلاه شهوده فى صحته وسلامته واختياره أنه وصل إلى حصته المذكورة أعلاه الوصول الشرعى بما فيه

١٥ – من المبيع المنبه عليه أعلاه وبما فى ذلك على يد مقارى بن مسلم بن شبرى النصرانى القسيس بدير طور سينا الملكى[٢٢] ولم يتأخر لكل منهما قبل الآخر

١٦ - بسبب ذلك مطالبة ولاشى[٢٣] قل ولا جل وأشهدت عليه شقرا المذكورة شهوده إشهاداً شرعياً أنها حاسبت مكين المذكور بحصتها مما انجر إليها بالإرث

١٧ - الشرعى من صداق ابنتها مريم المذكورة أعلاه ومن كساوتها من حين دخوله بها وإلى حين هلاكها المحاسبة الشرعية واستوفت فى ذلك الاستيفا الشرعى ولما تأخر

١٨ - لها أيضاً قبله بسبب ذلك مطالبة ولاشى[٢٤] قل ولا جل وصدقها على ذلك مكين المذكور أعلاه التصديق الشرعى ثم أقر كل منهما أنه لا يستحق على الآخر

١٩ - بسبب ما شرح أعلاه ولا بسبب غيره من الأسباب مطلقا حقاً ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلبا بوجه ولا بسبب ولا فضة ولا ذهباً ولا فلوسا ولا

٢٠ - قبضا ولا رجوعا ولا راجعا ولا قياما به ولا دينا . . .(٢٥) ولا حسابا ولا غلطا فيه ولا جهالة ولا نسيانا ولا دعوى بذلك ولا . . .(٢٥) ولا . . .(٢٥)

٢١ - ولا قرضا ولا إقراضا ولا هبة ولا موهوبا ولا قماشا ولا أثاثا ولا نحاسا ولا وديعة ولا عادمة ولا مدخراً ولا مدخورا ولا . . .(٢٥) ولا سكنى .

٢٢ - ولا عمارة بنا ولا عقارا ولا حصة منهما(٢٦) ولا إرثا ولا موروثا ولا صداقا ولا بعض من صداق ولا كسوة ولا نفقة ولا حق من حقوق الزوجية ولا غيرها

٢٣ ـ ولا شهادة مودعة ولا عملا بها ولا إيداعا فى ايداع وإن. . .
. . . . . .(٢٥) وتسلسل بالغا ما بلغ ولا ما تصح به الدعوى وتقام به البينة ويتوجه عليه. . .(٢٥)

٢٤ ـ والمطالبة ولا شيا من الأشيا(٢٧) كلها قليلها وكبيرها جليلها وحقيرها على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها وتعدد صفاتها بفضل الله تعالى ولا شيا

٢٥ ـ قل ولا جل بما مضى من الزمان وإلى تاريخه سوى ما بينهما من من شركة فى عقارات بثغر اسكندرية(٢٨) مخلفة عن مريم المذكورة على حكم الفريضة

٢٦ ـ المذكورة أعلاه وسوى زوج بط مبتى بجهة دين لوالد مريم المذكورة وهو رهنه عليه(٢٩) بغير زيادة على ذلك وأبرأ كل منهما ذمة الآخر . . . وأمانته

٢٧ ـ الإبرا(٣) الشرعى القاطع الجامع المانع المعط لكل حقه . . . وتبعه وبمن تقدم على تاريخه وإلى تاريخه ما عدا المستثنى أعلاه وقبل كل منهما لنفسه

٢٨ ـ من الآخر قبولا شرعيا وأقر أنه عارف بمعناه وما أشهدت عليه شرعاً بتصادقهما على ذلك التصادق الشرعى وأقر مكين المذكور أنه لا يستحق على

٢٩ ـ اليهودية الدلالة(٣٠) ولا على بركة النصرانى المعروف بأبو ابراهيم بسبب تركة زوجته مريم المذكورة حقا ولا دعوى ولا طلبا ولا فضة ولا ذهبا

٣٠ – ولا فلوسا ولا شيا من الأشيا كلها ولا يمينا بالله تعالى ولا شيا قل ولا جل لما مضى من الزمان وإلى تاريخه فاعترف بنفسه بذلك لشهوده الاعتراف الشرعى

٣١ – وثبت لها وكل من مكين وشقر المذكورين أعلاه على نفسه . ميع ما نسب إليه أعلاه وعلى ما نص وشرح أعلاه لدى سيدنا الحاكم

٣٢ – المشار إليه أعلاه زاد الله تعالى فى علاه بشهادة شهوده ثبوتا صحيحا مرعيا وحكم أيد الله تعالى احكامه ...

٣٣ – بموجب ذلك وبصحة الإبرا . . . المشروح ذلك أعلاه على ما نص وشرح أعلاه ما عدا المستثنى أعلاه ... وذلك شامل

٣٤ – لأفراده حكماً صحيحاً شرعياً تاماً معتبراً مرضياً مسئولا فى ذلك شريطه[٢٣] الشرعية من دعوى شرعية صدرت بينهما

٣٥ – فى ذلك لديه أحسن الله إليه وأقامه . . . شرعية ومعدلة منها بالمجلس وغير ذلك مما يجب اعتباره شرعا عالما بالخلاف فى ذلك وأشهد على

٣٦ – نفسه الكريمة بذلك وبه شهد بتاريخ سادس عشر صفر الخير سنة تسع وثمانين وثمان ماية وحسبنا الله ونعم الوكيل .

٣٧ – حضرت ذلك   حضرت ذلك

٣٨ – وشهدت على سيدنا الحاكم المشار إليه   وشهدت على سيدنا الحاكم المشار إليه

٣٩ – أعلاه زاد الله تعالى فى علاه وعلى مكين   أعلاه زاد الله تعالى فى علاه وعلى مكين

٤٠ - وشقـــرا المتصادقين وشقرا المذكورين أعلاه بما نسب المذكورين أعلاه بما نسب

٤١ - إليهما أعلاه على ما نص إليهما أعلاه على ما نص وشرح أعلاه وشرح أعلاه فى تاريخه

٤٢ المقر أعلاه ولى الدين فى تاريخه المقر أعلاه . . . . محمد بن هاشم الأنصارى[٣٤] . . .(٣٥)

الحواشى

(١) هذا الرقم هو المدون على صورة الوثيقة فى « الميكروفيلم » الذى صورته البعثة المشتركة لوثائق الدير ، وقد اعتمد الباحث على نسخة من هذا الميكروفيلم موجودة لدى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتمـــاعية .

(٢) بنى هذا الدير على شكل قلعـــة على الطراز البيزنطى لحمـــاية الرهبان من هجمات البدو وغارات اللصوص ، وقد أحاط به سور عال ، كما أن بابه كان يغلق بحجر ثقيل يتحكم فيه الرهبان من الداخل ، وكان بداخل الدير بئر عميقة فضلا عن المرافق الداخلية الأخرى كالأفران ومعاصر الزيوت وغرف الزوار ، وقاعات الطعام ، وغرف الرهبان ، وقدم لنا ابن فضل الله العمرى (مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٧١) والمقريزى (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩٩) . وصفا دقيقا لهذا الدير ويستفاد من بعض الوثائق أنه كانت للدير عدة بساتين مختلفة الفواكه (انظر الوثيقة رقم ٢٦٨ من وثائق دير كاترين حيث جاء ذكر هذه البساتين فى وجه الوثيقة ، سطور ٢٨ / ٥١ . وهذه الوثيقة عبارة عن حكم شرعى بأحقية الدير فى وقف معين وتاريخهـــا ١٠ رجب سنة ٨٦٦ هـ . وهى مكتوبة على ورق من الوجهين . وأبعادها ١٥٠ × ٣٢ سم) . انظر أيضا عن وصف الدير : عبد اللطيف ابراهيم ، فى مكتبة دير سانت كاترين (مقـــال مستخرج من مجلة جامعـــة أم درمان الاسلامية ، العدد الأول ، ١٣٨٨ هـ / ٩١٦٨ م) .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : عزيز ســـوريال عطية ، الفهارس التحليلية لمخطوطات طور سينا العربية ، (ترجمة الدكتور جوزيف نسيم ، الطبعة الأولى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٠) ص ١١ ـــ ١٢ ، وكذلك : عبد اللطيف ابراهيم فى مكتبة دير سانت كاترين ، ص ١٥٩ وما بعـــدها .

(٤) عزيز سوريال عطية ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٥) زاره الرحالة بيرو تافور **Tafur** الذى زار مصر فى القرن الخامس عشر وتحدث عن أهميته كمزار للمسيحيين كما ذكر الأسطورة التى تتعلق ببناء هذا الدير وملخصها أنه حدثت فى بعض السنين مجاعة رهيبة دفعت بالرهبان الى الهرب بحثا عن الطعام فتركوا جسد القديسة كاترين دون حراسة ، الا أنها تجلت لهم وأمرتهم بالعودة فعادوا ليجدوا تلا ضخما

من الحنطة ، فشيدوا الدير المعروف باسمها . انظر : بيرو تافور ، رحلة تافور فى عالم القرن الخامس عشر ، (ترجمة الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٢) . ص ٧٦ — ص ٧٧ . انظر أيضا :

Dopp (P. H). L'Egypte au Commencement du quanziéme Siécle; Le Caire. 1950, p.46.

وقد أكد ابن فضل الله العمرى (مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ٣٧٢) اهمية الدير كمزار بقوله « ... وهو عامر بالرهبان ، فلا يخلو أحد من أهل البطالات للتفرج فيه ، والتبرك به على رأيهم ... » .

(٦) عزيز سوريال عطية ، الفهارس التحليلية ، ص ١٣٠ ، ويذكر الدكتور عبد اللطيف ابراهيم (فى مكتبة دير سانت كاترين ، ص ١٦٨) . ان عدد الوثائق العربية ١٠٧٢ وليست ١٠٧١ منها ٢٩ مكتوبة على رق ، ١٠٤٣ مكتوبة على ورق من انواع مختلفة .

(٧) عن علاقة دولة سلاطين المماليك برعاياها من أهل الذمة انظر : قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧) ، ص ٦٣ — ص ١٠١ .

(٨) من اشهر القبائل التى كانت تعيش بجوار دير طور سينا قبائل الجبالية ، وأولاد سعيد والصوالحة ، وعرب العايد ، وعربان أولاد على ، وكان الرهبان يتخذون من أبناء هذه القبائل خفراء للدير وحراسا له وللقوافل الخاصة به ، كما كانت تثـور بين الطرفين أحيـانا بعض المتاعب بسبب اعتداءات العربان على الدير ممـا كان يؤدى أحيـانا الى اغلاقه وهروب الرهبان — انظر على سبيل المثال (الوثيقة رقم ١٨٧ من وثائق دير سانت كاترين ، وتاريخها ٨٦٦ هـ ، وهى مكتوبة على ورق مكتوب الوجهين أبعادها ٣٢ × ٢٢٫٥ سم) .

انظر أيضا الوثيقة رقم ٩٤ وتاريخها سنة ٩٢١ هـ وهى معاهدة بين الرهبان وشيخ عربان العايد وانظر : مرسوم السلطان قايتباى رقم ٦٣ ، ورقم ٥٨ ومرسوم السلطان برقوق رقم ٤٣ ، وطومانباى رقم ٩٤ .

(٩) طائفة النصارى الملكية أو الملكانية هى احدى الطائفتين المسيحيتين فى مصر آنذاك ، وقد انقسم المسيحيون منـذ البداية الى عدة فرق نتيجـة للجدل الذى ثار بينهم طبيعة السيد المسيح ، وفى سـنة ٤٥١ عقـد مجمع خلقدونية Chalcedon الذى اصدر قراره الشهير الذى جـاء فيه أن المسيح « يتفق فى الطبيعة مع أبيه بوصفه الها ، كما يتفق معنا بوصفه بشرا » وأدين ديوسقورس Dioscorus بطريرك الاسكندرية الذى نادى بأن

٣ ــ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين) :

ــ « التعريف بالمصطلح الشريف » . القاهرة ١٣١٢ هـ .

ــ « مسالك الأبصار فى ممالك الامصار »

حـ ١ ، تحقيق أحمد زكى القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٤ ــ ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى . ت ٧٢٩ هـ) :

ــ « معالم القربة فى أحكام الحسبة » .

نشره Reuben Levey كمبردج ١٩٣٧ م .

٥ ــ تافور (بيرو) :

ــ « رحلة تافور فى عالم القرن الخامس عشر » .

ترجمة د. حسن حبشى القاهرة ١٩٧٢هـ .

٦ ــ عبد اللطيف ابراهيم (دكتور) .

ــ « فى مكتبة دير سانت كاترين ، دراسة فى الوثائق العامة فى العصور الوسطى » .

مقال مستخرج من مجلة جامعة أم درمان الاسلامية ، العدد الأول، سنة ١٦٨ م .

٧ ــ عزيز سوريال عطية (دكتور) :

ــ « الفهارس التحليلية لمخطوطات دير طور سينا العربية » .

ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٠ م .

٨ ــ قاسم عبده قاسم (دكتور) :

ــ « أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى » دار المعارف ١٩٧٧

٩ ــ القلقشندى (شهاب الدين احمد بن على . ت ٨٢١ هـ) :

ــ « صبح الأعشي في صناعة الإنشا » طبعة دار الكتب المصرية

١٠ ــ المقريزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ) :
ــ « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » بولاق ١٢٧٠ هـ
ــ « السلوك لمعرفة دول الملوك » .
حـ ١ ، حـ ٢ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، و حـ ٣ ، حـ ٤ تحقيق الدكتور سعيد عاشور (طبعة دار الكتب المصرية) .

١١ ــ هـ. آيدريس بل :
ــ « مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى » .
ــ نقله الى العربية واضاف اليه الدكتور عبد اللطيف احمد على . النهضة العربية ١٩٦٨

١٢ — Dopp (P. H) :
" Le Egypte an Commencement du quanzieme siecle " Le Caire 1950.

١٣ — Matgaret Deanesly :
A htstory of the Medieval Chvrcb, 6th. ed. London 1973.

دراسة نصية

لمخطوط (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة)

الدكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية البنات الاسلامية
جامعة الأزهر

دراسات فى مصادر تاريخ مصر فى العصر العثمانى
دراسة نصية لمخطوط من القرن الثامن عشر

عنوان المخطوط كاملا : الدرة المصانة فى أخبار الكنانة

فى

أخبار ما وقع بمصر فى دولة المماليك من السناجق والكشاف والسبعة أوجاقات والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمـــان وستين وماية وألف[1] .

تأليف : الأمير أحمد الدمرداش كتخدا عزبان

التعريف بالمخطوط : مخطوط ضخم يقع فى جزءين اشتملا على خمسمائة وتسعة وثمانين صفحة ، وهو محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن تحت رقم . . .[2]

ويتناول المؤلف فى هذا المخطوط تاريخ مصر العثمانية منذ عام ١٠٩٩هـ//١٦٨٨م حتى عام ١١٦٩هـ// ١٧٥٦ م وهو مصدر هام من مصادر التأريخ لنظام الحكم العثمانى فى مصر ، ويحوى معلومات على جانب كبير من الأهمية عن كل فروع الجهاز الإدارى فى مصر العثمانية ، يشمل ذلك الحديث عن الباشا والديوان العالى ، الفرق العسكرية ، ورجال القضاء ، ودور الأمراء المماليك فى حكم مصر وإدارتها ، ورجال الإدارة المالية ، إدارة الأقاليم ، وعلاقة مصر بالدولة العثمانية والمنازعات التى كانت تقع بين أمراء المماليك ، ومساعيهم للسيطرة على النفوذ والسلطة فى مصر ، وقبل أن نستطرد فى استعراض ما جاء بالمخطوط من معلومات هامة نلقى بعض الضوء على حياة المؤلف فمن هو الدمرداش كتخدا عزبان لقد أشير إليه فى الصفحة الأولى من المخطوط باسم الأمير أحمد الدمرداش كتخدا عزبان ، وواضح من ذلك أن الدمرداش كان يتولى منصب كتخدا أى وكيل أوجاق عزبان(٣) وهو منصب يلى منصب الآغا قائد الاوجاق وأهم شخصية فيه ، ومعلوماتنا عن شخصية الدمرداش قليلة ، فإن معاصريه لم يترجموا له ، ولم يذكره الجبرتى لا فى مصادره التاريخية ولا فى تراجمه ، وبجل معلوماتنا عن الدمرداش مستمدة من سطور مؤلفه(٤) .

وإن كان الدمرداش يبدو فيه ضنيناً بالمعلومات عن نفسه متواضعاً غاية التواضع ، لم يذكر الدمرداش سنة ميلاده ، وقد بدأ فى تدوين تاريخه منذ عام ١٠٩٩ هـ//١٦٨٨م ، كما قدمنا ، ووقف بأحداثه عند عام ١١٦٩هـ//١٧٥٦م وقد ذكر فى آخره العبارة التالية : « هذا وقد نهيت تاريخى على ذلك ، وإن أعطانى الله عمراً زدته بما أراه عياناً » ، ولما كان لايوجد للدمرداش كتب بعد هذا التاريخ ، فربما يكون قد توفى بعد عام ١١٦٩هـ//١٧٥٦ م بقليل ، وينتمى الدمرداش إلى مدرسة الأجناد الذين اتخذوا من كتابة التاريخ هواية لهم(٥) .

وقد بدأ مؤلفه بقوله « سألنى بعض الإخوان عن وقايع مصر القاهرة بين

الصناجق والأغوات ، واخيارية السبعة أوجاقات من عزلان السلطان محمد طاب ثراه وتولية أخيه السلطان سليمان خان إلى دولة السلطان دام نصره سنة ١١٦٨ هـ وما وقع فى مدة الباشوات المرسولة إلى مصر فى طرف الدولة من سنة ١٠٩٩ هـ .

وواضح من ذلك أن الدمرداش كتب مؤلفه بدافع الهواية الشخصية وحب كتابة التاريخ بدافع من نفسه ، وليس بتكليف من أحد من المسئولين ، أو رغبة فى التقرب من كبير ، أو عظيم . وثقافة الدمرداش كما تبدو من سطور كتابه ثقافة محدودة لرجل من رجال الفرق العسكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، فهو يكتب بأسلوب تغلب عليه العامية .

وحين يقول شعراً ، يبدو شعره ضعيفاً فمثلا عند حديثه عن مرور موكب أمير الحج حسين بك بموكبه عام ١١٦٨ هـ// سنة ١٧٥٥ م[٦] يقول :

« وكنت أنا العبد الحقير فايت بين العالم ، يتفرج على الموكب ، وإذا به لما أتى قبالى كمش حفنه فضة بيضا ، وأرماها على روس الناس ، وإذا بهم دقلجونى مثل الكورة ، وداسونى بينهم ، وأخذوا منى العمامة من على راسى فقلت :

يوم تولبت حسين بك أميرية الحاج الشريف
خطفوا عمامة راسى طربوشى مع شاش لطيف

وتنبع أهمية الدمرداش من أنه عاش فى فترة هامة من فترات تاريخ مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر ، الذى شهد مرحلة الصراع بين الأوجاقات العسكرية ، وانهيار نظام الحكم العثمانى ، وسيطرة البكوات والمماليك على النفوذ والسلطة فى مصر .

ويتميز مؤلف الدمرداش بالفهم العميق للأحداث التى يعرضها وذلك

راجع إلى معاصرته لها، بل واشتراكه في كثير من الأحيان في تلك الأحداث كما ورد فى كثير من صفحات كتابه منها على سبيل المثـال ما ذكره أثناء عرضه لفتنة «إفرنج أحمد[٧]» وهجوم المذكور على فرقة العزب قال :

«نزل بيرق[٨] العزب، ونزل العبد الحقير معهم»[٩] وذلك أثناء الفتنة، التى عاش الدمرداش أياماً قاسية خلالها، فقد انقطع فى بعض الأيام وصول الزاد إلى فرق القلعة قال : «آخر الليل أتت جمال محملة بقسماط، وبصل، وجبن، وكان عندى قاسم من نوباتجية الحسنة، أعطيته الكعبين البقسماط يبلوم فى القرب وكان قد قتلنى الشرد»(١٠).

وكثيراً ما ذكر الدمرداش مشاهدته للأحداث التى كانت تقع فى الديوان العالى مثلمـا حدث عند مقتل «إسماعيل بك بن عوض»، «وإسماعيل بك جرجا» أيضاً فى الديوان بدسيسة من «جركس محمد بك».

قال : كنت واقف فى الديوان مثل غيرى من الناس، وإذا بى قلت تاريخ :

بديوان قلعـة الجبـل   إسماعيلين نالوا العطب
جركس محمد فى عصره   لتاريخه قـد غلب(١١)

وقد اتبع الدمرداش فى مؤلفه نظام التأريخ بالحوليات فيذكر هلت سنة كذا ثم يسوق أحداث تلك السنة متتالية وراء بعضها، وقد بدأ الدمرداش تدوين تاريخه مبتدماً بأحداث عام $\frac{\text{١٠٩٩ هـ}}{\text{١٦٨٨ م}}$(١٢) دون مقـدمات لا عن فضل علم التأريخ، ولا عن تاريخ مصر منذ الخليفة وهـذا شيء ميزه عن بعض معاصريه من مؤرخى القرن الثامن عشر. واتفق فيه مع البعض الآخر.

معاصرو الدمرداش :

لقد ظهر فى مصر فى القرن الثامن عشر مجموعة من المؤرخين المختلفى الثقافة من العلماء ، ومن رجال الفرق العسكرية ، وكلهم معاصر للدمرداش ومنهم :

١ - إبراهيم الصوالحى الذى كتب « تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق »(١٣) .

٢ - يوسف الملوانى « ابن الوكيل » صاحب كتاب « تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب »(١٤) .

٣ - على الشاذلى : مؤلف « ذكر ما وقع بمصر المحروسة القاهرة »(١٥) .

٤ - أحمد شلبى عبد الغنى : الذى ألف « أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات »(١٦) .

٥ - مصطفى إبراهيم : مؤلف كتاب « تاريخ وقائع مصر القاهرة »(١٧).

٦ - مصطفى الصفوى الشافعى القلعاوى : مؤلف « صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان »(١٨) ، ويتميز الدمرداش عن هؤلاء جميعاً بأنه كان أكثر تفصيلا فيما دون من أحداث ، فقد ركز كتابته فى الفترة التى حددها لكتابه ، ولم يحاول وضع مقدمات تتناول تاريخ مصر فيما سبق من عصور ، ومن هنا جاء كتابه ضخما فى ٥٨٩ صفحة بالرغم من قصر المدة التى أرخ لها ، ويتميز كتاب الدمرداش بأنه حافل بالمصطلحات الإدارية والعسكرية والمالية (١٩) والاجتماعية والاقتصادية ، وهو يعتبر مقدمة لما كتبه المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتى الذى بدأ تأريخه كما بدأ الدمرداش من عام ١٠٩٩هـ // ١٦٨٨ م بتولى حسن باشا السلحدار حاكم مصر . ويختلف كتاب الدمرداش

عن عجائب الآثار بخلوه من التراجم وبكونه أقل عناية بالأحداث التي كانت تقع خارج مصر في الولايات العربية الأخرى التابعة للدولة العثمانية ، وهناك خلاف آخر هام بين الكتابين ، فالدمرداش يسرد في كتابه الأحداث فقط دون أي تعليق لا يبدى إعجاباً ولا ذماً ولا مدحاً ولا نقداً ، كما يفعل الجبرتي في كتابه ، وبالرغم من اعتقادي أن الجبرتي قد نقل كثيراً من الأحداث التي وقعت من أول القرن الثاني عشر الهجري حتى عام ١١٦٩هـ//١٧٥٦ م عن الدمرداش كما يتضح من مقارنة كتابة الرجلين عن تلك الفترة فمثلا ذكر الدمرداش في ح ١ ص ١٧ في أحداث عام ١١٠٤ هـ//١٦٩٢ بمناسبة « خروج إبراهيم بك أبو شنب » لكريد قائداً للحملة المصرية المكونة من ألفي جندي[٢٠] قال :

« لما خرج إبراهيم بك بالسدادرة ٢١) ، وأصحاب الأدراك إلى بولاق ، نزل في قصر الحلي ، وشيخ الشحاتين في ركابه مع طايفته ، وهم يصرخوا ويقولوا الله يردك علينا يا بك سالم ، لأنك أبو الفقرا لأنه كان يعرفهم بالواحد ، وإذا أعطى واحد منهم نصف فضة وجرى طلع الرميلة من المظفر ووقف قدامه يقول له قد أخذت نصيبك في الصليبة ، وذكر الجبرتي نفس الحديث في ح ١ ص ١٠٥ في أحداث نفس العام في كتابه عجائب الآثار .

قال في ترجمته لنفس البك أنه سافر أميراً على العسكر المعين لفتح كريد سنة ١١٠٤هـ « ولما ركب بالموكب ، خرج أمامه شيخ الشحاتين ، وجملة من طوائفه ، لأنه كان محسناً لهم ويعرفهم بالواحد ، وكان إذا أعطى بعضهم نصفاً في جهة ، ولاقاه في طريقه من جهة أخرى يقول له أخذت نصيبك في المحل الفلاني » .

وموضوع منح على أغا مستحفظان « الانكشارية » سلطات استثنائية ، لمواجهة أزمة العملة ، وارتفاع الأسعار أوردها الجبرتي في ح ١ ص ١٠٣ من عجائبه كما وردت في كتاب الدمرداش(٢٢) مع التصرف في الأسلوب . وكذلك

الحال بالنسبة لموضوع «كجك محمد» مع التاجر الفيومى(٢٣) التى أوردها الجبرتى فى تاريخ ح ١ ص ٩١ وغير ذلك من الموضوعات التى لا يتسع المجال لحصرها مثل قصة فرح ختان أولاد الباشا التى ذكرها الجبرتى فى ح ١ ص ١٠٠ من تاريخه وغيرها كثير .

وبالرغم من وضوح عملية نقل الجبرتى لكثير من أحداثه فى مستهل القرن عن الدمرداش وبالرغم من أنه اتفق معه فى اختيار عام ١٠٩٩ هـ بداية لتاريخه، وبدأ أحداثه بموضوع انقسام ضد مصر إلى فقارية وقاسمية بنفس المفهوم الذى ورد فى الدمرداش ضمن المصادر التى رجع إليها عند كتابة تاريخه كما فعل مع «أحمد شلبى عبد الغنى» فقد ذكر الجبرتى أنه اعتمد على أحمد شلبى عبد الغنى فى الفترة السابقة للفتح العثمانى حتى سنة ١١٥٠هـ ، ثم بعد ذلك اعتمد على رواية المسنين ، ونقوش المقابر ، ودفاتر الكتبة منذ عام ١١٥٠هـ حتى عام ١١٧٠هـ(٢٤) فلماذا أغفل الجبرتى تاريخ الدمرداش مع أنه يغطى الفترة من عام $\frac{\text{١٠٩٩ هـ}}{\text{١٦٨٨ م}}$ إلى عام $\frac{\text{١١٦٩ هـ}}{\text{١٧٥٥ م}}$ وبالتفصيل الكافى لمن يريد كتابة تاريخ تلك الفترة وبالرغم من أن الجبرتى يذكر اطلاعه على ما كتبه رجال الفرق العسكرية بقوله حين شرع فى كتابة تاريخه «وأردت أن أوصله بشىء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب، مختلفة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص فى مواضع من خلال بعض الوقائع»(٢٥) ، ولعل الجبرتى يكون قد استاء من كتابات الأجناد لأنها كتبت بلغة عامية ، وغير منظمة فاستنكف أن يعدها من مصادره بالرغم من اطلاعه عليها ، كما فعل بالنسبة لكتاب ابن الوكيل «تحفة الأحباب» الذى نقل عنه نقلا حرفياً فى مواضع كثيرة وبالرغم من ذلك تجاهله تجاهلا تاماً .

وعامة يتميز الدمرداش عن معاصريه من المؤرخين بما توفر له من خبرة

بشئون الإدارة المالية، والفرق العسكرية، فقد عمل كما ذكر فى سطور مؤلفه كتابع لمحمد افندى ابن الجيعان الوكيل الأول لحسن أفندى الروزنامجى سنة ١١٠٦ هـ//١٦٩٤م(٢٦)، كما تولى منصب الكتخدائية فى فرقة العزبان، وهى ثانى الفرق العسكرية فى الأهمية بعد الانكشارية، وقد هيء له ذلك فهماً مستفيضاً للأحداث التى قدمها فى كتابه أو التى حرص على إثبات مشاهدته لها بنفسه كما بدا فى كثير من سطور ذلك الكتاب.

وقد تعددت وتنوعت الأحداث التى سجلها الدمرداش فى كتابه «الدرة المصانة»، فقدم لنا صورة حية ونابضة للكثير من مظاهر الحياة فى مصر العثمانية من شئون الباشوية المصرية والديوان والحامية العسكرية والقضاء، والإدار المالية، وإدارة الأقاليم، وموقف الشعب المصرى من الحكم العثمانى وذلك فى فترة تزيد قليلا عن نصف قرن من عام $\frac{\text{١٠٩٩ هـ}}{\text{١٦٨٨ م}}$ حتى عام ١١٦٩هـ// ١٧٦٧م، ولا يتسع المجال هنا لعرض وتقديم صور لجميع ما صوره الدمرداش من أحداث، ولذا سأكتفى بتقديم أمثلة لأهمها، فعلى سبيل المثال:

صور الدمرداش بالتفصيل والدقة كل المعلومات المتعلقة بباشا مصر شخصيته، والمناصب التى شغلها قبل توليه ولاية مصر، تعيينه، وكيفية إعلان هذا التعيين فى مصر عن طريق «المسلم».

استقبال الباشا فى مصر، وقد قدم الدمرداش وصفاً شائقاً وتفصيلياً لحفل استقبال الباشا بعد قدومه لولاية مصر، وينفرد الدمرداش بهذا الوصف التفصيلى، طوال الفترة التى دون أحداثها، ونسوق هنا صورة حفل استقبال أحد باشاوات مصر كما أوردها الدمرداش.

وهى خاصة باستقبال حسن باشا السلحدار $\frac{\text{١٠٩٩ هـ}}{\text{١٦٨٨ م}}$: $\frac{\text{١١٠١ هـ}}{\text{١٦٨٩ م}}$.

قال : « أتى ساعى ، وعرف أن حسن باشا طلع ببندر اسكندرية نزلت له الملاقية ، كتخدا الجاويشية ، ومتفرقه باشا ، وباش جاويشية ، والملازمين ، وأتى له كاشف البحيرة بالخيول والجمال لاقوه ، سلموا عليه وأتوا به ثغر رشيد ، أقام الأيام المعلومة ونزلوه فى السفاين على وجه النيل المبارك ، لما وصلوا به تحت ناحية الوراق ، باتوا به ، وعند الصباح عدت له صناجق مصر ، وباقى الأغاوات ، وأحمد افندى الروزنامجى بوشناق ، لاقوه سلموا عليه ، وعدوا به إلى قصر الحلى ، نزل على السماط ، وخلع قفاطين القدوم ، وأخذ التقادم(٢٧) وعملوا له شنك صواريخ ومدافع وزار حضرة الإمام الشافعى ليلا ، وعاد بات فى العادلية .

وعند الصباح دخل فى موكب عظيم ، ذبحوا له القرابين على الأعتاب ، طلع قلعة الجبل ، نزل فى ديوان قايتباى ، وعملت له الانكشارية شنك مدافع من الأبراج ثم تحول داخل السرايا »(٢٨) وقد عرض الدمرداش بالتفصيل لاختصاصات الباشا ، وإيراداته ، وكل ما يتعلق بحياته فى مصر ، وعرض بالتفصيل لكيفية عزل الباشا من ولاية مصر على يد الأمراء المماليك(٢٩) قال بمناسبة عزل باكير باشا « ١١٤٢ هـ//١٧٢٩ م » اتفق رأى الأحرار على إنزال الباشا(٣٠) قاموا طلعوا الرميله وأرسلوا حضروا السناجق والأغاوات وقالوا له إن العسكر قامت على اختياريتها والاختيارية قامت على أغاواتها ، والأغاوات قامت على السناجق لم يرضوك حاكما عليهم ، وإذا به قال وأنا مالى برضا أكون حاكما على الضرب انظروا لى بيت أنزل فيه قالوا له قصر يوسف كتخدا فى العتبة وإذا نزل هناك ؛ وأرسلوا له إبراهيم بك بلغية عمله قايمقام وكتبوا فى الحضرة عرض محضر للدولة بنزول باكير باشا ، ترسلوا لنا باشا خلافه وأرسلوا العرض صحبة سبعة أنفار » (-) ومما عنى به الدمرداش من أخبار الباشوية المصرية عملية محاسبة الباشا المعزول فى الديوان عن مالية مصر وكيفية تصرفه فيها ، وكيف كان يعامل باحترام ، إذا ما كان منقولا من مصر لتولى

منصب آخر من مناصب السلطنة كما أورد عن عزل عبد الله باشا من ولاية مصر عام ١١٦٥ هـ// ١٧٥١ م قال : « إذا بخط شريف أتى خطاباً إلى عبد الله باشا أن يكون باشا حلب ومسلم محمد باشا أتى إلى ابن الدالى ، فسافر عبد الله باشا بعد ما حاسب وغلق ما عليه ، وسافر براً إلى مدينة حلب ، فهادوه أعيان مصر »(٣١) .

ومن الموضوعات التى تميز بها الدمرداش عن معاصريه بما فيهم الجبرتى انفراده بتقديم الوصف التفصيلى الشامل لما كان يدور فى اجتماعات «الديوان العالى »(٣٢) أهم وأعلى مجلس إدارى فى ولاية مصر ، فقد قدم الدمرداش معلومات مفصلة عن ذلك الديوان يمكن منها استخلاص لمن كانت عضويته ، والمناقشات التى كانت تجرى بين أعضائه ، وطريقة الدعوة لعقد اجتماعاته ، وهو ما يميز الدمرداش حتى عن محاضر جلسات ذلك الديوان التى عثرت على بعضها بين دفاتر المحكمة الشرعية(٣٣) ، فقد اكتفت تلك المحاضر بذكر أعضاء كل جلسة ، والقرارات التى انتهوا إليها دون ذكر لتفاصيل تلك المناقشات التى كانت تدور فى الاجتماعات أو الجلسات .

ومن الصور الطريفة التى قدمها الدمرداش لإحدى اجتماعات الديوان العالى ، صورة الاجتماع الذى عقده الديوان فى عام ١١١٠هـ//١٦٩٨ م على أثر وصول أمر شريف من الدولة ، يطلب من الباشا ، تجهيز حملة لمحاربة عربان أولاد وافى(٣٤) قال : « دارت التنابيه على السناجق والأغاوات واختيارية السبعة أوجاقات ، باتوا وأصبحوا طلعوا الديوان ، وطلع حسين باشا ديوان الغورى ، ناوله الآغا الخط الشريف ، قبله ووضعه فوق رأسه ، ثم ناوله ليد كاتب الديوان قراه على سماع كل من كان حاضر خطاب إلى حسين باشا حال وصول الأمر الشريف تركب نفر عام تقطع عربان المغاربة والضعفا والنجا من بلاد البهنسا وبنى سويف والفيوم .

وبعد قطعهم توجه إلى إقليم « درجه »(٣٥) تقطع هواره قبلي الملتزمين ببلاد الكشوفية تعلم ذلك والحذر من المخالفة فقالت العساكر سمعنا وأطعنا أمر مولانا السلطان قال الباشا حضروا أرواحكم بعد غد أنا مقصودي أركب وإذا بحسن أغا بلفيه قال يا سلطانم أنت لما تطلع تطلع معك كامل الصناجق والأوجاقات بكامل عساكرها وأغاوات دار السعادة يزيد عن ثمانية آلاف الخدم والخيول أي بلاد تعود تحملنا ولكن إذا كان نفسكم مع صنجق وأغات بلوك والاسباهية يخرجوا من حقهم ، هذه مادتين واحدة علينا وواحدة على أخينا إبراهيم بك وإذا بإبراهيم بك قال هذه قسمة طيبة ، ماذا يكون علينا قال حسن أغا طرد المغاربة والضعفا والنجعا عليكم وقطع هواره من الملتزمين، وضبط بلادهم للكشوفية علينا واذا بالباشا قال من ينزل للعرب قال إبراهيم بك أخينا عوض بك وإذا به قام قبل الأتك بتاع الباشا ، وجلس قدامه وقال نعم أنا أنزل وأخرج من حقهم ولا أريد من مال الميري شيء إلا مدفعين وكللهم والجبخانة وفرمانا على كل بلد ثلاثة آلاف والكفر ألف وخمسماية كلفة التجريدة ، ولكن بشرط أكون كاشف الفيوم وبني سويف ثلاث سنوات أولهم سنة ١١١٠ هـ وآخرهم سنه ١١١٤ هـ خوفاً من أن ينزل العرب للوادي ثاني مرة والحماية بطالة إذا طلعت العرب بلد وطلبتهم أنكروهم اضرب البلد لم يطلع أحد حماية لتلك البلد وإذا بالباشا قال أعطيك فرمان تتمسك به وأرسل صحبتك الكتخدا بتاعي بالولاة هاتوا القفاطين خلع عليه كشوفية الثلاث سنين وسر عسكر التجريدة ، وخلع على أغا التفكجية وخلع على كتخداه وكتب فرمان بالجبخانه والكلل والمدفعين وفرمان بما طلبه عوض بك »(٣٦) .

وانفضت جلسة الديوان ونزل عوض بك يجهز نفسه للحملة التي قادها بنجاح وقضى فيها على عربان المغاربة قضاء تاماً .

ومن الموضوعات النادرة التي انفرد الدمرداش بتسجيلها محاضر اجتماعات

الجمعيات(٣٧) وهي الاجتماعات المؤقتة التي كانت تعقد في حالة وقوع أزمة عامة تمس حياة الشعب .

فقد أورد الدمرداش في أحداث عام ١١١٤ هـ // ١٧٠٢ م بمناسبة وقوع أزمة لارتفاع الأسعار وفساد العملة صورة « للجمعية » التي عقدت لمواجهة الموقف قال :

« دخل شهر رمضان ١١١٤ هـ والناس في كرب من قبل المعاملة ، وعدم الجدد النحاس واجتمعت على التجار وأرباب الصنايع . ودخلوا إلى الجامع الأزهر اشتكت إلى ساداتنا العلما ماهم فيه من قبل الفضة المقصوصة وعدم الفلوس النحاس واقتضى الرأى أنهم يكتبوا عرض حال يعلموا بهم حضرة الوزير وإذا بهم كتبوا عرض حال في خصوص ذلك وطلعوا به إلى الديوان قدموه للباشا قراه عرف ما فيه وإذا به كتب فرمان بالجمعية في بيت حسن أغا بلغيه بحضور السادات والبكرية والسادة العلما والصناجق والأغاوات واختياريه السبعة أوجاقات بإبطال الفضة المقصوصة وظهور الجدد النحاس(٣٨) ، وتنزيل أصناف الأسعار بأى وجه كان ، وأعطاه ليد كتخدا الجاويشية ، كتب عليه كاتب حوالة التنابيه(٣٩) ، ودارت بها الجاويشية وباتوا تلك الليلة ، وعند الصباح أتوا بيت حسن أغا بلغيه(٤٠) جميع من ذكرناهم ، وأتى قاضي العسكر ، ونزل كتخدا الباشا الجمعية قاموا يهرجوا لم يصادف قولهم ، وإذا بتخدا الباشا قال ما تجعلوا مصر قبل اسلامبول تولوا حكم الرعايا والأسعار ومن يتعاطا الموازين إن كان غز وإلا رعاية إلى أغاة الانكشارية(٤١) وإذا بحسن أغا بلغية قال أنت فين يا على أغا ، وإذا به حاضر قال له تعالى اسمع كلام كتخدا الباشا قال أنا سامع كلام أخينا الكتخدا وأنا أفعل ما يرضى الله ورسوله ولكن بشرط الحماية بطالة وأسمر الصاغة والتجار تطلع الفضة التي يتسوقوها إلى دار الضرب(٤٢) يقطعوها جدد وأبطل الخامير والبوظ والخواطى وامشى الفضة

البيضة والجدد النحاس(٤٣) وأنزل أسعار الأصناف ولم أقبل رشوة من أحد وإن سمعتم أنى قبلت من أحد سقطت من عدالتى وكل من تعاطى الميزان تحت حكمى ، ولم أحد يعارضنى فيه ، وإذا نزلت بموكبى لم أحد يقف قدامى(٤٤) وأركب خلفى سبعة جاويشية ، من كل أوجاق جاويش مع الملازمين والقابجية والوالى وأوضا باشى البوابة وأمين الاحتساب ، فإذا أحد قد أدبه فإن يكون من الرعايا على أدبه ، وإن يكن عسكرى أخذه جاويشه إلى بيت أغاته، يخرجوا من حقه ، لا أحد لاعال ولا دون يقف لى فى طريق ، وأنا شاقق البلد ، ماذا قلتم بهذا وإذا المجلس جميعه قالوا والله إنه كلام لبن وأخـــذ القاضى حجة إقرار من فى المجلس تماماً أعطاها ليد كتخدا الباشا يكتب عليها فرمان ، وركب طلع الباب يوم١٧ رمضان من سنة تاريخه(٤٥) وقد قام على أغا بالمهمة المطلوبة منه بنجاح وبعد عزله فى عام سنة ١١١٦هـ//سنة ١٧٠٤م .

ارتفعت أسعار الأصناف ارتفاعاً كبيراً فى عام ١١١٧ هـ // ١٧٠٥ م فتظلم التجار من ذلك إلى الباشا « رامى محمد باشا » وسجل الدمرداش ما حدث فقد كتب الباشا السابق «بالجمعية» فى بيت الدفتردار .

وفى تلك الجمعية استقر رأى الحاضرين من صناجق وأغاوات واختيارية الفرق والأشراف وأرباب السجاجيد على أنه لايصلح أمور البلد إلا على أغا وكان قـــد امتنع عن الحضور ، فأحضروه وأرغموه على تولى منصب أغا الانكشارية ،والعودة للتجول ثانية فى الأسواق بموكبه وإعادة تسعير الأصناف ومراقبة أسعارها فعادت الأحوال كما كانت وقت توليـه منصبه المرة الأولى وتحسنت أحوال الأسواق والأسعار .

وما أكثر ما سجل الدمرداش فى تاريخه من أحداث تعددت لتتناول نواحى شتى من حياة المجتمع المصرى من ذلك ما سجله الدمرداش عن الناحية المالية ،

ونظام وظروف فرض الضرائب الإضافية التى عرفت « بالمضافات »[٤٦] والتى كانت تفرض على أهم مصادر الدخل فى مصر من أرض وجمارك ، « وكشوفية مناصب »[٤٧] وذلك لمواجهة النقص الذى كان يظهر فى إيرادات « الخزينة الإرسالية » للسلطان أو إيرادات خزينة مصر ، كما حدث فى عام ١١٠٧ هـ // ١٦٩٥ م بفرض زيادة قدرت بـ ١٠٠٠ بارة على كل كيس ، والكيس يساوى ٢٥٠٠٠ بارة ، وقد صور الدمرداش فى عرضه كيف تم ذلك بتدبير روزنامجى مصر وقتها « حسن أفندى » الذى عينه الباشا خصيصاً للخروج من الأزمة ، ونتبين من خلال العرض الذى قدمه الدمرداش ، حقائق كثيرة عن شخصية الروزنامجى وكيفية تعيينه ، ومعاونيه ، ونظام بيع الوظائف ونظام فرض الضرائب الإضافية ، وعلاقة ولاية مصر بدار السلطنة العثمانية ، ومعلومات أخرى كثيرة ، فتاريخ الدمرداش يشبه تلا أثرياً كلما نقبنا فيه عثرنا على جديد وطريف ، وهو لا ينسى شيئاً ويسجل كل ما يقع فى عهده من ذلك على سبيل المثال ما سجله عن محاولة السلطان حرمان الأمراء المماليك فى مصر فى عام ١١٥٢ هـ // ١٧٣٩ م من حيازة التزامات الجمارك[٤٨] .

فقد أرسل السلطان للباشا يقول « إنك تضبط المقاطعات تماماً ، ولم تعطى المصرلية شىء عن سنة ١١٥٢ هـ ، ونزل أغاوات من عندك ، كتاب » ولما أبلغ الباشا الأمراء بذلك فى إحدى جلسات الديوان العالى أجابوا بالسمع والطاعة ثم « نزل جميع من كان فى الديوان ، ونزلوا اختيارية الانكشارية والعزب إلى بيت عثمان بك وقالوا : هذه المقاطعات جرتنا من قديم الزمان فيها لقمة للذى يسافر بالبيرق ، لو أن لم يبق منا واحداً ، لا يمكن أن نفوت جرتنا » ، ولم يلبث الأمراء أن أرسلوا للسلطان يستعطفوه فى احتفاظهم بالقاطعات كية ، فأجابهم إلى ذلك بالطبع رغماً عنه ونزولا على الأمر الواقع .

..عات التى عنى الدمرداش بتسجيلها كيفية تعيين صناجق مصر

على يد الباشا فيماعدا أمير الحج الدفتردار إذ يأتى مرسوم تعيينهما من السلطان رأساً ، وقد قدم الدمرداش فى الأعوام التى أرخ لهـــا إحصاء سنوياً بعدد صناجق مصر والوظائف التى يشغلونها فيذكر مثلا :

فى عام ١١٦٤ هـ // ١٧٥٠ م(٤٩) . « كملت صناجق مصر ثمانيـة عشر صنجاً ، منهم :

١ - محمود بك الدفتردار .

٢ عمر بك أمير الحج .

٣ - يوسف بك أمير الخزنة العامرة .

٤ - أحمد بك الخازندار .

٥ - إبراهيم بك بلغيا .

٦ - إسماعيل بك الشرايبى(٥٠) .

وفى عام ١١٦٨ هـ//١٧٥٤ م ذكر الدمرداش « كملت صناجق مصر اثنين وعشرين صنجقاً »(٥١) .

ومن الأحداث التى سجلها الدمرداش الحملات التى كانت السلطات ترسلها ضد المتمردين من العصبيات العربية كالهوارة وأولاد حبيب(٥٢) ثم الأوامر التى كانت ترسل من السلطنة لإدارة مصر كما حدث فى عام ١١٤٥//١٧٣٢ م حيث سجل الدمرداش أمر وصول قابجى(٥٣) يحمـل الأمر بتحرير الجزية فى مصر نصارى قبط وأروام وأرمن عال بأربعمائة نصف الورقة وأوسط بمائتين نصف الورقة ، وأدنى بمائة نصف نصف الورقة ، وطلب إرسال محررين إلى كامل أقاليم بحرى وقبلى(٥٤) ومثل طلب الدولة فى عام ١١٦٨ هـ // ١٧٥٤ م حاوان(٥٥) ما كان تحت تصرف المرحوم إبراهيم كتخدا من بلاد ورزق وجراية وعليق ،

أملاك وقد عني الدمرداش بتسجيل الكثير عن أنباء الفرق العسكرية ومنازعاتها كما حدث بالنسبة لفتنة إفرنج أحمد التي دونها الدمرداش بالتفصيل(٥٦) وأيضاً أورد الدمرداش الكثير عن تنظيمات الفرق من ذلك على سبيل المثال ما ذكره عند عرضه لحياة «كجك محمد»(٥٧) في أحداث عام ١١٠٦هـ//١٦٩٤م قال: لما قعد باش أوضه باشي أو جابوا له ملوطة وقاووق، وإذا به قال مرادكم أكون باشي أوضة باشي(٥٨) لم تكتب رسالة ولا قوالق إلا بمعرفتي، ولبس الضلمة بمعرفتي، والكلام في الباب لثلاثة من غير زيادة باش اختيار، والكتخدا المتولي وباش أوضا باشي ما قلتم أجابوه على ذلك»(٥٩) .

وكثيراً ما حدثنا الدمرداش عن امتيازات الفرق العسكرية قال: «مدخول المتفرقة القلاع وجبجي باشا، وقافلة باشا والمعمار وأزلم ومتفرقة باشا مالك الديوان والجاويشية لهم خازندار الديوان، دلال البلاد وكاتب حوالة وأمين الاحتساب، وكتخدا الجاويشية والعزب معهم الرسالة ووالي البحر والعقبة وأمين البحرين، الخردة والمراكب حول مصر تماماً والاسباهية مسلمين الأقاليم وجوربجية الأقاليم وخدام البلاد»(٦٠) .

أما الانكشارية فكثيراً ما تحدث عنهم وعن استبدادهم بالسلطة ومحاولتهم السيطرة على المقاطعات الجركية الغنية، والاحتفاظ بدار الضرب تحت يدهم للتحكم في العملة، بالإضافة إلى محاولتهم فرض حمايتهم على أرباب الحرف قال «إن الانكشارية جاعلين تجار البن القهوة يولداشات حمايه أخفوا البن لم يبيعوا إلى تجارهم وتجار الصابون كذلك والعيش لم يقدر أمين الاحتساب يعايره على خباز كونه حمايتهم، والمقاطعات معهم يأخذون من الأمنا موجب ما يأتي من بلادهم، ويغلوا الأخضار والفاكهة، ودار الضرب داخل بابهم، يضربوا عيار السكة على مرادهم»(٦١) .

وفي عام ١١٦٨ هـ//١٧٥٤م سجل الدمرداش موضوعاً هاماً هو موضوع

الخزينة الإرسالية(٦٢) التى غدت فى أواخر القرن الثامن عشر لا ترسل كل عام بل حسبما يرى الأمراء المماليك فقد يؤخرونها عاماً أو عامين أو ثلاثة قال « أتى خط شريف بطلب ثلاثة خزانات فى دولة مصطفى باشا خزنه سنة ١١٦٥ هـ ، سنة ١١٦٦هـ ، سنة ١١٦٧ هـ »(٦٣) .

ولم يقتصر الدمرداش على تسجيل الأحداث السياسية فى مؤلفه ، بل تناول الكثير من الشئون الاقتصادية ، الاجتماعية فكثيراً ما تحدث عن أسعار السلع وارتفاعها فنراه يذكر أسعار البن والصابون والسكر الخام والمكرر والعسل بأنواعه ، والزيت بأنواعه أيضاً والطحينة والزيتون والجبن واللحم والسمن والدقيق والعيش(٦٤) ، وكثيراً ما تحدث الدمرداش عن فساد العملة وسريان الغش إلى المواد التى تدخل فى تركيبها كما دون أيضاً أنباء النيــــل وفيضانه كل عام(٦٥) وأثر زيادته أو نقصه فى حياة مصر ، كما دون الدمرداش أنباء الأوبئة التى كانت تجتاح البلاد وأسبابها كما ذكر فى أحداث عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م ما كان من حدوث شراقى بسبب نقص ماء النيل مما أدى إلى وقوع مجاعة ووباء قال « فأخلى الفلاحون بلادهم ودخلوا مصر ، وصاروا يخطفون الخبز من الأفران والطواحين فقلوا وصارت الأغنياء تخبز عيشهـا فى البيوت ، والفقرا فطهر على الريع ، حتى أكلوا سلتها القطط والرمم ، وإذا بالطعن والطاعون، وقد الحـارات والأزقة من الموتى وقع فيهم فى خماسين سنة سبعة وماية وألف ثم وقع فى الإمارة وتوابعها »(٦٦) ، هـذا ولم يفت الدمرداش تسجيل الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد التى سادت المجتمع المصرى العثمانى فى أيامه ففى عام ١١٥٧هـ//١٧٤٤ م يذكر الدمرداش أن باشا مصر « أبطل من مصر شرب الدخان على الدكاكين ، وقدام البيوت ومصاطب القهاوى »(٦٧) .

ومن العادات الاجتماعية التى دونها الدمرداش عادة إقامة أفراح أسرة الباشا

فقد ذكر بعد انتهاء وباء ١١٠٧هـ//١٦٩٥م الفرح الرائع التى أقامه باشا مصر قال «فلما زال الوبا والغلا وبقيت الناس فى رضا وخير شرع الباشا فى فرح طهور أولاده فصل مايتان قفطان، ومايتان قميص، ومايتان حرام وأحضر مايتان شد ومايتان لباس ومايتان طاقية، ومايتان حرام، وأحضر مايتان صرمة لأولاد خدمه فى القلعة.

وفى فم الواحد عندطهوره شربنى أحمر(٦٨) طرة، أتت الفراشين نصبت الأحمال، وعلقوا فى حوش الديوان قناديل وثريات، وأتى «أبو اليسر الجنكى» ديوان الغورى(٦٩) بماليكه وجنك اليهود فى ديوان قايتباى والحواه والقرادتية والخيال والأدبا فى حوش الديوان والنوبة التركى تحت ديوان قايتباى بخيم وأرسل إبراهيم بك خازندارهبثلاثين مملوك وفرش ديوان الغورى بالأبسطة المفتخرة وبمراتب ووسايد ووقف رجال الباشا يستقبلون المهنئين لمدة خمسة عشر يوماً لا أكابر ولا أصاغر والرعية طالعين يتفرجوا والمدينة فاتحة لم أحد يقول فيها لأحد أنت رايح فين أمن وأمان وسخا ورضا.

وكانت مماليك إبراهيم بك فى باب الديوان واقفين للخدمة وقرة محمد أغا كتخدا الباشا جالس يتلقى الناس فكان أول يوم قاضى العسكر بقضاة المحاكم وثانى يوم كان العلما كمالا والمدرسين والطلبا وثالث يوم كان نقيب الأشراف بكامل الأشراف ورابع يوم على أرباب السجاجيد والحرف وخامس يوم على كامل السناجق والأغاوات وسادس يوم على أوجاق الجاويشية وأوجاق متفرقة وسابع يوم كامل اختيارية أوجاق مستحفظان والجوربجية وثامن يوم على أوجاق عزبان كامل الاختيارية والجوزية وتاسع يوم على كامل أوضاباشية الانكشارية وعاشر يوم أوضاباشية العزب وحادى عشر يوم على أهل خان الخليلى وسوق الصاغة وثانى عشر يوم على التجار والعقادين الرومى والقاووقجية والسروجية وثالث عشر يوم على تجار المغاربة وأهل الغورية وطيلون ورابع عشر يوم على العمى بالجامع الأزهر والشحاتين فى حوش

الديوان سماط للعمى وسماط للفقرا يوم الخامس عشر وكان يوم الخميس ويوم الجمعة طهر أولاده الاثنين والمايتان ولد من خدمة القلعة ، وكل واحد بيدله وشريفي طرة فى فمه وأنعم على الأغاوات وباش جاويشية وزعيم مصر[٧٠] باكراك سمور وقاقوم وعتامنه .

وأعطى خازندار إبراهيم بك أبو شنب عشرين عثمانى وإلى كل مملوك خمسة ذهب بطرة وأرضى الجنك وأرباب الملاهى والفراشين والطباخين والحلوجية .

وانفض العرس كان عرس سلاطين مصر السوالف لم حصل قبله ولا بعده فى دولة آل عثمان »[٧١] .

ويمكن من دراسة تاريخ الدمرداش معرفة التركيب الطائفى للمجتمع المصرى فى العهد العثمانى فهو يذكر الكثير من شيوخ الطوائف الحرفية مثل شيخ الطحانين ، شيخ الخبازين ، شيخ المعصراتية ، وشيخ وكالة الزيت ، شيخ الجزارين ، شيخ القبانية ، شيخ السكرية[٧٢] وغيرهم من شيوخ الطوائف الحرفيـة .

وكتاب الدمرداش « الدرة المصانة » يعتبر كما رأينا من خلال السطور التى عرضتها وكما يرى من يدرسه بالتفصيل مصدر هام وقيم لدراسة المجتمع المصرى من معظم زواياه فى فترة هامـة من فترات الحـكم العثمانى فى مصر فى القرن الثامن عشر .

وسأقوم فى المستقبل القريب بإذن الله بنشر وتحقيق هذا الـكتاب ، وفاء لحق صاحبه علينا وخدمة للباحثين فى تاريخ مصر فى العهد العثمانى .

الحواشى

(١) يذكر المؤلف على الغلاف أن كتابه الى آخر سنة ثمان وستين ومائة وألف ولكنه دون الأحداث الى عام ١١٦٨ هـ فى الصفحات من ٥٦٦ حتى ٥٨٣ ومن ص ٥٨٤ الى ٥٨٩ تناول أحداث عام سنة ١١٦٩ هـ فكأنه استطرد لتدوين أحداث عام أكثر مما ذكر فى مقدمته .

(٢) هذه النسخة كتبها عبد القادر الحنبلى بالقاهرة بجامع على بك سنة ١٢١٥ هـ ثم استقرت بالمتحف البريطانى بلندن ، وقد تفضل أستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بالسماح لى بالاطلاع على نسخة مصورة من المخطوط عن نسخة لندن وقد قام الأخ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن بطبع هذه النسخة المصورة فى كتاب أطلعنى مشكورا عليه .

(٣) تعتبر فرقة العزبان أهم الفرق العسكرية فى مصر بعد فرقة الانكشارية وكان يشار اليهم فى المصادر العربية باسم « عزب » وتعنى هذه الكلمة فى الأصل غير المتزوج ، ثم أطلقت على أنواع مختلفة من الجنود وفرقة العزبان فرقة مشاة خدمت وقت فتوح السلطان سليم ، وبعد فتح مصر أسندت الى العزبان مهمة حراسة ممرات القلعة ، وضواحى القاهرة فكانت تمثل مع الانكشارية ، هيئة الدفاع الأساسية عن القلعة .

د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر فى العصر العثمانى : الباب الرابع

(٤) لم أعثر على مؤلفات أخرى للدمرداش حتى الآن .

(٥) د. محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ص ١٨ .

(٦) امارة الحج كانت من المناصب الهامة فى مصر العثمانية ويتولاها الأمراء الصناجق دوريا وعلى البك أمير الحج أن يحافظ على سلامة الحجاج — ويتعهد فى اجتماع خاص يعقده الديوان العالى — بحمل مبلغ الصرة الشريفة وتسليمه لأهالى الحرمين الشريفين ، ومن أهم واجبات أمير الحج كف أذى العربان فى طريق الحج بكل الوسائل سواء باستمالتهم بالمال أو بارهابهم بالقوة العسكرية وكلما نجح أمير الحج فى تلك المهمة كلما زاد شهرة .

(٧) افرنج أحمد من رجال فرقة الانكشارية وقد أثار الفتنة والصراع بين الفرق جميعها فى عام ١١٢٣ هـ سنة ١٧١١ م وكاد يشعل بينها وبين الباشا والصناجق نار حرب أهلية وذلك بسبب سعيه لبسط نفوذه فى فرقته التى قاومته فلجأ الى غيرها من الفرق ، عن فتنة أفرنج أحمد وشخصيته انظر الشيخ على بن محمد الشاذلى الفرا : مخطوط ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة مصر القاهرة تحقيق ونشر دكتور عبد القادر طليمات المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٤ لسنة ١٩٦٨ .

(٨) البيرق : العلم .

(٩) الدمرداش : الدرة المصانة جـ ١ ص ١٥٨ .

(١٠) الدمرداش : المرجع السابق حـ ١ ص ١٧٢ .

(١١) المرجع السابق حـ ١ ص ٢٦٤ .

(١٢) يتفق الجبرتى فى عجائب الآثار مع الدمرداش فى اتخاذ عام ١٠٩٩هـ بداية للاحداث التى دونها وفى الاشارة فى بداية تاريخه أيضا الى ظاهرة انقسام جند مصر الى فقارية وقاسمية وأسباب ذلك بالضبط كما أورده الدمرداش فى مقدمة كتابه .

(١٣) تراجم الصواعق : مخطوط برقم ٣٣٦٩ بدار الكتب بالقاهرة الفه الصوالحى لتسجيل موقعة مقتل الأمراء الفقارية الصناجق التى وقعت سنة ١٠٧١ هـ ثم استطرد فيه لكتابة تاريخ مصر من سنة ١٠٧١ هـ ١٦٦٠ م الى سنة ١١١٣ هـ ١٧٠١ م بنظام التأريخ الحولى .

(١٤) تحفة الأحباب : مخطوط بمكتبة رفاعة بسوهاج برقم ٢٨ تاريخ وهو تاريخ لمصر من أقدم العصور فى أربعة أبواب خصص منها الباب الرابع للتأريخ لمصر العثمانية منذ الفح العثمانى حتى عام ١١٣١ هـ ١٧١٨ م كبه بطريق التأريخ للباشوية المصرية يبدأ بذكر عهد كل سلطان ومن تولى فى عهده من الوزراء فى مصر والأحداث التى وقعت فى عصر كل وزير

(١٥) كتب الشيخ على بن محمد الشاذلى الفرا كتاب ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة كشاهد عيان لفتنة افرنج أحمد سنة ١١٢٣ هـ ــ ١٧١١ م وقام بنشره وتحقيقه د. عبد القادر أحمد طليمات فى المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٤ لسنة ١١٦٨ م .

(١٦) مخطوط أوضح الاشارات بجامعة ييل برقم Lane berg 3 وهو تاريخ لمصر منذ سنة ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م الى سنة ١١٥٠ هـ — ١٧٣٧ م فى ٥٠٠ صفحة وقد سارفيه المؤلف على طريقة التاريخ لمصر من خلال عرضه لعهد باشاواتها ، ويقوم حاليا الزميل الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن بنشر هـذا المخطوط .

(١٧) تاريخ وقائع مصر القاهرة : مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٠٤٨ تاريخ ومؤلفه الحاج مصطفى ابراهيم معاصر للدمرداش ومن نفس فرقة العزبان الى كان الدمرداش ينتمى اليها ، والغريب أن كلا منما لم يترجم للاخر أو يذكره فى مؤلفه ومخطوط الوقائع تاريخ لمصر العثمانية منذ عـام ١١٠٠ هـ — ١٦٨٨ م الى ١١٥٢ هـ — ١٧٣٩ م على نفس نظـام ومنهج الدمرداش وان كان الدمرداش أكثر تفصيلا .

(١٨) صفوة الزمان : مخطوط بمكتبة رفاعة بسوهاج برقم ٥١ تاريخ مكون من ٢٤٨ ص وهو تاريخ لمصر منذ الفتح الاسلامى الى سنة ١٢٢٣ هـ والمؤلف مصطفى الصفوى من علماء الأزهر وقد سار فى مؤلفه على طريقة التأريخ بالحوليات .

(١٩) ذكر الدمرداش فى أحداث عام ١١٠٦ هـ — ١٦٩٤ م بمناسبة الحديث عن وكيل روز نامجى مصر « محمد أفنـدى بن الجيعان » أنه أى الدمرداش كان يعمل « ابن خزنة عنده » ويتضح من ذلك أنه كان على صلة قوية برجال الادارة المالية ، مما جعله يبدو أكثر مؤرخى عصره فهما لنظم تلك الادارة ومصطلحاتها .

(٢٠) لقد اشتركت قوات الحامية العسكرية العثمانية الممثلة فى الفرق السبع فى مصر فى حروب السلطان فى أوقات مختلفة وفى ميادين متعددة ، وكان بكوات المماليك الصناجق يتولون قيادة الحملات المصرية هـذه دوريا فمثلا عندما اشتركت فرق من الحامية العثمانية المصرية فى حرب العثمانيين فى جزيرة كريت قاد ابراهيم بك أبو شنب هذه الحملة المكونة من ألفى جندى وانتهى الأمر بانتصار العثمانيين ، وعودة القائد المصرى منتصرا الى بلاده .

(٢١) السدادرة جمع سردار وهو قائد من الفرقة العسـكرية وعند خروج البك المملوكى فى حملة لمساعدة الدولة فى حروبها كان يصحبه رجال من الفوق العسكرية السبعة فى مصر مع سدادرة سبعة أى قادة لتلك الفرق.

(٢٢) الدرمرداش : الدرة المصانة حـ ١ من ص ١٠٥ الى ص ١١٣ .

(٢٣) تتلخص تلك القصة فى أن كجك محمد قد لقن التاجر الفيومى — الذى خان الأمانة وتنكر لصديقه له أودعه وديعة قبل سفره للحج — درسا فى حفظ الأمانة والوفاء بالوعد ويستدل من هذه القصة على ذكاء كجك محمد وعدالته .

الدمرداش : الدرة المصانة حـ ١ ص ١٢ .

(٢٤) الجبرتى : عجائب الآثار حـ ١ ص ٦ .

(٢٥) يستطرد الجبرتى عن ذلك فيقول « وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ، لكنه على نسق فى الحملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار المصرية ، وينتهى كغيره ممن ذكرنا الى خمسين ومائة وألف هجرية ، ومن ذلك الوقت الى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ، ولم يسطر فى هذا الشأن شيئا يفيد » ويبدو هنا بوضوح تجاهل الجبرتى لعمل الدمرداش الذى امتد حتى عام ١١٦٩ هـ .

(٢٦) المسلم : هو الرسول الذى يرسله الباشا بعد صدور قرار تعيينه لولاية مصر لابلاغ خبر هذا التعيين للامراء المماليك .

(٢٧) التقادم تعنى الهدايا .

(٢٨) الدمرداش : الدرة المصانة ج ١ ص ٦ .

(٢٩) بدأت ظاهرة عزل الباشا على يد الأمراء المماليك منذ عام ١٠٤٠ هـ — ١٦٣٠ م حـ ين عزل الأمراء المماليك موسى باشا الذى حاول الايقاع بينهم وكتبوا للسلطان الذى أقر عملهم .

(٣٠) الدمرداش : الدرة المصانة حـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٣١) الدمرداش : الدرة المصانة حـ ٢ ص ٥٥٨ .

(٣٢) كان الديوان العالى يمثل فى مصر العثمانية المجلس الادارى الأعلى فى البلاد ، فيه تدرس وتناقش كل شئون الحكم والادارة فى ولاية مصر ، وتصدر القرارات التنفيذية ومن أمثلة الموضوعات التى كانت تعرض فى ذلك الديوان : أوامر الباب العالى المرسلة الى مصر — والشئون المالية فى البلاد ، ارسال صرة الحج ، ارسال الخزينة الارسالية للسلطان ، وموضوع استقبال الباشا الجديد ، محاسبة الباشا المعزول من ولاية مصر ، احتفالات وفاء النيل ، وطلب ارسال فرق عسكرية لمساعدة الدولة فى حروبها خارج مصر ، اعلان تولية السلاطين الجدد ، شئون العملة .

وقد عرف هذا الديوان باسم الديوان العالى أ والديوان الكبير تمييزاً له عن ديوان آخر وجد فى مصر العثمانية وعرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا وكان يمثل المجلس التنفيذى اليومى الذى يجتمع فيه الباشا مع وكيله وبعض كبار رجال الادارة فى مصر لتصريف شـئون الولاية المعتـادة

لمزيد من المعلومات عن الديوان العالى واختصاصاته انظر : د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر فى العصر العثمانى الباب الثالث القاهرة ١٩٧٨ .

(٣٣) يوجد سجلان من سجلات محاضر جلسات الديوان العالى بين سجلات المحاكم الشرعية الموجودة حاليا بدفتر خانة الشهر العقارى بالقاهرة والسجل الأول خاص بالسنوات من ١١٥٤ هـ ـ ١١٥٧ هـ ـ ١٧٤١ م ـ ١٧٤٤ م .

والسجل الثانى خاص بالسنوات من ١١٧٧ هـ ـ ١٢١٩ هـ = ١٧٦٣ م ـ ١٨٠٤ م .

(٣٤) عربان أولاد وافى : من عرب المغاربة وكانوا يعيثو نفسادا فى منطقة بنى سويف والبهنسا والفيوم .

(٣٥) اقليم درجة أى اقليم جرجا .

(٣٦) الدمرداش : الدرة المصانة حـ ١ ص ٦١ .

(٣٧) ظهر نظام الجمعية فى مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وقد اختلفت الجمعية عن الديوان العالى فى أسباب عقدها والشـكل الذى كانت تأخذه وعضويتها وكانت تعقد فى معظم الحالات فى بيت أحد كبار الأمراء المماليك صـاحب النفوذ الأكبر فى عصره ، وهى نظـام اعترف به السلطان نفسه ، وكانت تعقد فى حالة الأزمات العامة التى تستدعى الحصول على رأى عام وموافقة الزعامات التى تمثله بالنسـبة للمسائل موضـوع البحث وربما كان ظهور نظام الجمعية نتيجة لضعف السلطة العثمانية فى مصر .

د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر اباب الثالث الفصل السابع .

(٣٨) كانت العملة تسك فى مصر أثناء العهد العثمانى اما من الذهب أو الفضة أو النحاس فى سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة ، وكان أقـل النقود الفضية قيمة هو البارة أو النصف فضة ، والنقود النحاسـية أجزاء البارة مثل الجديد ومنذ سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م والنقود فى مصر يجدد سكها كلما تولى عرش السلطنة سلطان جديد وكانت القيمة السائدة للنقود فى مصر تتغير من وقت لآخر .

(٣٩) التنابية : هى تذاكر الدعوة التى ترسل مع رسل من فرقة الجاويشان لحضور الجلسة المزمع عقدها ، وترسل « التنابية » فى الليلة السابقة لعقد الجلسة .

(٤٠) عن ترجمة حسن أغا بلفية ، انظر الجبرتى : عجائب الاثار حـ ١ ص ١٦٧ .

(٤١) أغا الانكشارية فى مصر هو قائد تلك الفرقة وصاحب الصدارة على قواد بقية الفرق وهو قائد جيش مصر ورئيس قوات حفظ الأمن فى القاهرة وضواحيها ، وفى القرن الثامن عشر انتقلت السلطة الحقيقية فى أوجاق الانكشارية الى يد الكتخدا ، وظل الأغا يختفظ بسلطات البوليس الهامة التى كانت من اختصاصه من أوائل العهد العثمانى وكانت سلطة أغا الانكشارية تشمل الحفاظ على الأمن العام والاشراف على شئون الشرطة فى كافة المجالات وكان يؤدى هذا الواجب عن طريق نقط الشرطة فى القاهرة وضواحيها بالاستعانة برجال من فرق الانكشارية ، ومن مماليكه الخاصة وقد بلغت سلطة أغا الانكشارية أوجها فى الاشراف على الأمن فى القاهرة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانت الادارة العثمانية تمنح أغا الانكشارية نوعا من التفويض العام بالسلطة فى وقت الأزمات ، مما أدى الى اتساع سلطته اتساعا كبيرا ، ومن أشهر الأغوات الذين منحوا هذا النوع من التفويض العام بالسلطة على أغا المشار اليه أعلاه .
د. ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر : الباب الرابع ، الفصل التاسع.

(٤٢) دار الضرب : دار سك العملة وكانت موجودة فى القلعة .

(٤٣) الجدد النحاس : نقود نحاسية تمثل أجزاء البارة ، وكان الجديد يساوى ربع بارة والمتصوص يساوى ٨ جدد .

(٤٤) لتخفيض أسعار الأصناف ، أحضر على أغا شيخ الطحانين والخبازين ، وتجار البن والصابون ، وشيخ المعصرانية وشيخ وكالة الزيت الطيب ، وشيخ الجزارين ، وشيخ القبانية ، شيخ السكرية وكتب لهم قائمة بكامل أسعار الأصناف المخفضة ، ثم أخذ من الباشا فرمان بالموافقة على تلك القائمة وبذلك هدات الأحوال ، وهبطت الأسعار الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١٠٧ .

(٤٥) الجبرتى : عجائب الاثار ح ١ من ص ١٠٢ الى ص ١٠٤ .

مارس على أغا الانكشارية عمله على الصورة السابقة الى أن عزله حسن أغا بلفية سنة ١١١٦ هـ = سنة ١٧٠٤ م وقد التزم الأمراء

المماليك بتعهدهم له بعدم الوقوف فى طريقه ، حتى أنه ذات يوم كان اسماعيل بك الدفتردار ذاهبا الى الديوان فلما علم بمرور موكب على أغا توارى من طريقه فلما قال له من حوله أنت دفتردار مصر تتوارى من على أغا الانكشارية قال « كتبنا على أرواحنا حجة لم أحد يقف له فى طريق لأجل غيرنا ما يعتبر ».

الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١١٣ .

وقد مارس على أغا عمله لمدة عامين من سنة ١١١٤ هـ الى سنة سنة ١١١٦ هـ .

(٤٦) تعرضت مصر خلال العهد العثمانى لفرض عدة زيادات « مضافات » فى الضرائب فى أعوام ١٠٧٤ هـ = ١١٦٤ م ١١٠٧ هـ = ١٦٩٥م و ١١٥٥ هـ = ١٧٤٢ م ، ١١٧٤هـ = ١٧٦٠ م وذلك مسجل بدفاتر التزامات الأراضى والجمارك والايرادات الموجودة بدار الوثائق بالقلعة .

(٤٧) كشوفية المناصب : هى الضرائب التى كان يدفعها كبار الموظفين فى الادارة فى مصر العثمانية مقابل تعيينهم فى وظائفهم وايرادتهم التى يحصلون عليها من شغلهم لتلك الوظائف وقد عرفت هذه الضرائب أيضا باسم « كشوفية ى كبير » .

(٤٨) الجمرك هو الهيئة المختصة بتحصيل الرسوم المقررة للدولة على واردات البلاد وصادراتها وقد أديرت الجمارك فى مصر العثمانية سواء أكانت فى الموانى البحرية أو النيلية بنظام الالتزام كالأرض الزراعية ، وقد كان لباشا مصر الحق فى التزام جمرك هام هو جمرك عشور أصناف أو جمرك السويس أما باقى الجمارك الهامة . كالاسكندرية ودمياط ورشيد وبولاق ومصر القديمة فقد أخذ رجال الفرق العسكرية والأمراء الصناجق الحق فى حيازة التزاماتها .

(٤٩) الدمرداش : الدرة المصانة ح ٢ ص ٥٥٧ .

(٥٠) اسماعيل بك الشرايبى نسبة الى أسرة الشرايبى وهى أسرة تجارية ثرية اشتهرت بحبها للعلم والعلماء ، وكانت تقتنى عددا كبيرا من المماليك ثم تحررهم وتضعهم فى المناصب الهامة فينسبون اليها .

(٥١) كان من المقرر أن يكون عدد الصناجق فى مصر أربعة وعشرين صنجقا كل عام وهم من كبار الأمراء المماليك ، ولكن فى الواقع لم يكتمل عدد الصناجق فى معظم الأعوام .

(٥٢) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١٢٨

(٥٣) قابجى أى رســول .

(٥٤) الجزية هى الضريبة التى كانت تفرض على أهل الذمة من أقباط ويهود فى مصر ، وعرف الرسول الســلطانى الذى كان يرســل من طرف السلطنة لجمع الجزية من مصر باسم الجزية دار .

(٥٥) حلوان : المــال الذى يدفع للسلطة عند الحلول محل ملتزم آخر لوفاته وانحلال التزامه عنه نظير موافقة السلطة على التعديل .

(٥٦) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١٠٢ .

(٥٧) كحك محمد أحد زعماء فرقة المستحفظان « الانكشارية » وكان يشغل منصب باش أوضة باشى فى فرقته وسيطر على الادارة والســلطة فى مصر منذ عام ١٠٨٥ هـ = ١٦٧٤ حتى عام ١١٠٦ هـ = ١٦٩٤ م .

(٥٨) منصب باش أوضة باشى أو كمــا يذكر فى بعض المراجع باش أودة باشى لفهم طبيعة هذا المنصب وأهميته يجب التعرف على مكانته بالنسبة للمناصب الأخرى فى فرقة الانكشارية فقد كان قائدها يعرف بالأغا ويساعده فى عمله الكتخدا وبعده فى الرتبة الجاويش ثم وجــد الاختيارية وهم كبــار الانكشارية سنا ثم وجد موظفون أدنى رتبة مثل الأوضة باشى الذى كان يرأس احدى فرق الانكشارية التى تقيم عادة فى أوضة (غرفة) وكان يرأس الأوضة باشية موظف يسمى باش أوضة باشى .

(٥٩) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١٢ .

(٦٠) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ١٣٢ .

(٦١) الدمرداش : المرجع السابق ح ١ ص ١٣١ .

(٦٢) الخزينة الارسالية هى المبلغ الذى يتبقى كفائض من خزينة مصر بعد تحصيل ايراداتها وانفاق مصروفاتها وكانت ترسل للسلطان .

(٦٣) الدمرداش : الدرة المصانة ح ٢ ص ٥٨٨ وقد حكم مصطفى باشا مصر من ١١٦٨ هـ — ١١٦٩ هـ = ١٧٥٤ م — ١٧٥٥ م .

(٦٤) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ٨٠ ، ص ١٠٧ .

(٦٥) الدمرداش : المرجع السابق ص ٤٠ .

(٦٦) الامارة أى أمراء مصر الدمرداش : المرجع السابق ص ٣٨ .

(٦٧) اعتبر شرب الدخان فى ذلك الحين عادة اجتماعية سيئة تحاربها الادارة .

الدمرداش : الدرة المصانة ح ٢ ص ٥١٢ .

(٦٨) شريفى أحمر بطرة أى جنيه ذهبى عليه علامة السلطان .

(٦٩) ديوان الغورى : قاعة من أكبر قاعات القلعة وكانت فى العادة مقرا لجلسات الديوان العالى وتستخدم أثناء الاحتفالات الهامة .

(٧٠) زعيم مصر ويشار اليه أحيانا باسم والى مصر وهو موظف ادارى اسندت اليه مهمات بوليسية لرعاية الأمن والنظام فى مدينة القاهرة.

(٧١) الدمرداش : الدرة المصانة ح ١ ص ٤٢ .

(٧٢) الدمرداش : المرجع السابق ح ١ ص ١٠٧ ، ح ٢ ص ٤٧٩ .

QUELQUES PERSONNAGES CELEBRES DES TEMPS PHARAONIQUES JUSQU' AU DEBUT DE L'EPOQUE CHRETIENNE DANS LES PROVINCES DE MOYENNE ET DE HAUTE EGYPT

Par

Ramadan el-Sayed

Cet article est le second que nous comptions écrire sur le sujet, (**1ère Suite de celui qui** a paru sur les hommes célèbres de Basse Egypte(1)

A la difference du précédent on verra que grâce aux inscriptions, aux monuments, mieux conservés en Moyenne et Haute Egypte que dans le Nord, nous pouvons retrourer trace d'hommes qui ont marqué dans l'histoire dès l'Ancien Empire.

Il nous a été rarement permis de retrouver la biographie complète de nos personnages dont on connaît une tranche de vie mais peutêtre pas toujours leur ville d'origine ou le lieu de leurs exploits, parfois nous ne connaissons que leurs tombes. Cette restriction donneé nous classerons les hommes célèbres en citant ceux qui retiendront notre attention d'abord pour la Moyenne Egypte, puis pour la Haute Egypte, du Nord vers le Sud.

Moyenne Egypte

Herakleopolis

Nous citerons ici un grand personnage **Semataoui-Tefnakht**(2) qui fut parmi les plus influents au temps de **Psammetique 1** dans la région de Moyenne Egypt et jusqu'au Nord de Thèbes. Ce fut un «chef des bateaux» ; Nous dirions un amiral, fonction qui donnait alors à leur détenteur toute autorité sur le trafic du fleuve et un droit d'inspection sur la Haute Egypte ; les attributions de notre personnage étaient sûrement plus étendues que celles de Mentouemhat gouverneur de Thèbes, que nous retrouverons plus loin ;

c'est pour diminuer l'influence de ce dernier(3) que Psammetique, habile politique, avait augmente' l'importance de Semataoui-Tefnakht qui lui avait toujours été fidèle à Herakleopolis.

Notre connaissance du grand amiral est loin d'être complète. le Musée du Caire possède un fragment de statue provenant de Ahnassieh(4). C'est un socle rectangulaire d'une statue de granit noir. le personnage devait être agenouillé. L'inscription nous apprend que l'offrande est faite «aux divinités d'Herakleopolis» pour le ka «du prince, gouverneur, préposé au midi, Semataoui-Tefnakht fils du prince royal». Une autre statue acéphale donne les titres de «gouverneur, véritable connu du roi, conseiller en toutes, ses places Semataoui-Tefnakht.. chef de l'équipe de la flotte royale» avec les cartouches de Psammetique 1.

En fait nous ignorons actuellement s'il vivait du temps du grand Piankhi ? Il serait alors l'ancêtre du prince d'Herakléopolis(5) qui figure sur la stéle de l'adoption(6). Nous possédons aussi portant le même nom et trouvés au temple de Mout à karnak zblocs «du noble et prince, général d'Herakléopolis et chef des bateaux»(7)

La stèle de l'adoption nous donne le plus d'explication et permet d'évoquer clairement le personnage. Elle relate l'expédition qui partit en l'an g du roi Psammétique, le 28 de Thot, composée de nombreux bateaux chargés de dons pour le temple de Thèbes et amenant la princesse Nitocris, fille adoptive du roi Psammetique, divine adoratrice d'Amon que la reine Shepen-oupet, (veuve de Taharka, pharaon défunt alors), avancée en âge, devait adopter comme sa fille et son héritière. Nitocris devait avoir alors une vingtaine d'années(8) et mourut en l'an 4 d'Apries. Une scène du bas-relief de karnak illustre le récit de l'avriveé à Thèbes de la jeune princesse(9). Le 1er vaisseau, c'est le vaisseau d'Amon ; la 2eme qui a, à son bord, le général Semataoui-Tefnakht et la princesse c'est «le grand bateau de Saïs» pour le prince gouverneur de l'armée d'Herakleopolis, commandant de la flotte» qui est représenté debout devant une sorte de cabine. Le 3ème vaisseau «vaisseau de Piankhi» se dirigeait vers le sud, conduit peut être par Piankhi lui-même ? Une suite importante de courtisans, de prêtres et d'officiers militaires les accompagnait. A Thèbes on assigna un palais à la princesse(10).

El Hibeh (Teudjoi)

C'est un personnage célèbre par ses mésaventures qui nous est connu a El Hibeh. Il s'agit de **Peteisis** «scribe de la maison de vie» — qui vécut un veritable roman(11). Lui même nous relate ses malheurs, ses démêlés avec les prêtres d'Amon d'El Hibeh et le rècit éclaire d'un jour singulier l'attitude du clergé en cette ville et à cette époque. L'époque c'est encore psammétique I et II vers 512 et le descendant d'une famille sacerdotale d'El-Hibeh(12), raconte les démêlés sordides qui pendant 150 ans opposerent ses ancêtres aux **prêtres d'Amon(13).**

La famille installeé à El Hibeh vivait des revenus d'une charge appartenant à un haut fonctionnaire d'Herakléopolis. Les démêlés commencent quand Péteisis veut disposer des revenus en faveur de son gendre. Il n'en avait que l'usufruit personnel ; quand les prétres d'Amon veulent, au contraire, et non moins illégitimement, s'attribuer et le bénéfice et la rente sacerdotale de Péteisis, la chicane devient criminelle car les prêtres tuent, à coups de bâton, nous dit Peteisis, les deux petits-fils de Péteisis qui s'étaient présentés aux prêtres. Quand on cherche les assassins tout le monde a disparu. Péteisis, plus tard, finira par pardonner. la suite est non moins affreuse : les prêtres, victimes eux-mêmes d'un surintendant qui leur confisque une partie de leurs domaines, veulent acheter une protection aux dépens du prophète Essemtaouy, un descendant de Peteisis. Le prophète effrayé s'enfuit de la ville ; les prêtres saccagent sa maison, la pillent, detruisent tout. Plus tard le prophète et sa famille, très attachés à leur ville y reviennent quand même, alors, tenaces, les prêtres incendieront la maison et les laisseront comme morts. C'est alors que le gouverneur de la ville obligera Péteisis à ecrire le récit de cette histoire — tâche que Peteisis était tout à fait capable de remplir car cétait un lettré très apprécié de ses concitoyens et si l'on avait besoin d'un prêtre allant présenter le bouquet à Amon-du-pays-de-Khor, avec pharaon, c'est lui qu'on choisissait :

«Les prêtres se mirent d'accord pour dire à Péteisis : c'est toi qui es choisi pour aller avec pharaon, il n'y a personne d'autres dans la ville qui puisse le faire.. tu es scribe de la maison de Vie.. tu es de plus le prophète d'Amon et ce sont précisément les prophètes des grands dieux de l'Egypte qui accompagneront pharaon». Ceci se passait en l'an IV de Psammétique II (591 avant J.C.).

Peteisis se refusa pendant longtemps à écrire ses démêlés avec les prêtres d'Amon car il espérait peu de la justice, et ne se sentait pas lui même une conscience en tout repos, surtout il redoutait les représailles. C'est malheureusement ce qui lui arriva quand le gouveneur l'obligea sous menace à rédiger son rapport.. «Ils nous massacrèrent de coups jusqu' à ce que nous fussions comme morts. Alors ils s'arrêtèrent et nous portérent à une vieille tour, près de la porte du temple, où ils nous jetèrent, avec l'intention de renverser sur nous les ruines de la tour».

Le papyrus ne contient pas la suite des malheurs, du vieux Peteisi sque les médicins ont soigné et dont la maison a été de nouveau incendieé quand il revient dans son cher Teudjoi où sans doute la mort lui apporta la paix.

Hermopolis - Touna el Gabal

Le destin de Petosiris fut aussi glorieux que celui de Peteisis fut pénible et cependant l'un comme l'autre vècurent pendant des périodes troublées de l'histoire de l'Egypte. Son tombeau lui-même à Touna el Gabal est resté en excellent état et nous permet de connaître la vie de ce grand maître. Lefebvre en a tiré une étude magistrale(14).

Petosiris vécut à Hermopolis la Grande, la ville du dieu Thot, peu de temps avant l'ariveé d'Alexandre en Egypte (vers 350) et il a ecrit sur son tombeau : «Je passai 7 ans au.. Service de Thot, administrant ses biens sans que fut trouveé de faute dans ma gestion alors qu'un roi des pays étrangers était en puissance sur l'Egypte (deuxieme domination perse). Et il n'y avait plus rien qui fût en sa place depuis que des luttes se déroulaient dans l'interieur de l'Egypte, le sud étant dans l'agitation et le Nord en état de révolte. Les hommes marchaient dans l'égarement»(15).

Lefebvre nous présente 5 générations de cette famille éminente vivant à Hermopolis. Presque tous les hommes sont «Grand des cinq» ou «un des cinq» dans la maison de Thot, vis a vis des 4 autres dieux qui sont les assesseurs de Thot :

1) Son aïeul est «grand des cinq et maître des Sièges» portant le beau nom de Zedthotefankh c'est à dire «tel dieu (= Thot) parle et il vit (=celui qui porte ce nom).

2) Son fils «Sishou», celui qui appartient à Shou a pour femme Noferrenepet musicienne de Nehmetaouai. Non Seulement il est grand-prêtre de Thot mais aussi «Second prophète de Khnoum-Rê, maître d'Hirourt et d'Hathor dame de Neferoust, phylarque des deux temples d'Hirourt et Neferoust» (deux villes voisines d'Hermopolis et situeés dans le voisinage de l'actuelle Balansourah.

3) Sishou eut cinq fils et 4 filles. L'aîné des fils porte le même nom que son grand-père et a les mêmes titres sacerdotaux que son père ; une moité de la deuxieme salle du tombeau lui est consacrée et le musée de Turin possède un fragment de son cercueil en bois (16). Le second fils est notre Petosiris. Nous connaissons au moins le nom des autres enfants, plusieurs sont prêtres ou prêtresses.

4) Notre Petosiris eut de son épouse Renpet nofrit (fille ellemême d'un grand-des-cinq Peftaouneith (17) et de la dame Sitourit) deux fils et trois filles, le fils aîné est Grand-des-Cinq ainsi que le second qui mourut jeune et dont nous possédons un des cercueils. Les filles, l'une au moins, appartenait à la déesse Nehmat-aouai.

5) La cinquième génération marcha sur la même lanceé et un petit fils, aumoins, fut grand-des-cinq.

Petosiris donc, «don d'Osiris» (c'est le surnom inscrit sur le couvercle de son cercueil intérieru : An Khef Khonsou «Khonsou est ma vie») appartient vraiment bien à une famille sacerdotale d'Hermopolis, sa femme aussi. Mais cette grande famille ne semble pas avoir de titres héréditaires ; elle montre la noblesse de ses origines en portant dès le berceau des titres religieux. Jamais de scandale dans cette famille et Petosiris (d'autres membres peutêtre) fut un sage comme le montrent les textes dont il fit couvrir son tombeau. Sa titulature est imposante :

Il est procurateur de Thot (mr — sn), prêtre, grand-prêtre, chef des prêtres. Il s'intéresse aussi à la prospérité matérielle du temple de Thot comme le prouve l'inscription no 81 ; il remplit les greniers, il accroit l'importance de ses prêtres. Il était «le vicaire du dieu sur la terre» et en récompense Thot lui accorde «d'arriver à la ville d'éternité» mais en attendant il reçoit des terres, des vergers, des greniers, du bétail, des écuries, des bateaux et le grand prêtre peut

mener la vie d'un prince comme ses ancêtres nomarques hermopolitains de Moyenne-Egypte. Il peut se donner des apparences royales et sur son tombeau on voit le «Sauveur» faisant des offrandes à la façon des rois, il tend le cordeau, fait suivre son nom de l'épithète royale : ankh-oudja-seneb. De son vivant d'ailleurs on lui construit un tombeau digne d'un roi et que le temps épargnera.

Ce tombeau fut retrouvé en 1919 dans le désert. Des fouilles nombreuses dégagèrent la nécropole et ce tombeau particulièrement qui ressemble à un temple. Des maximes qui l'ornent peuvent former un Recueil digne des meilleurs Recueils de maximes :

«Celui qui marche sur ta route (= Dieu) il ne trébuche pas.. elle est bonne la route de celui qui est fidèle à Dieu ; c'est un béni celui que son coeur dirige vers elle.. Si je suis parvenu ici, à la ville d'éternité, c'est que j'ai fait le bien sur la terre, et que mon coeur s'est complu sur le chemin de Dieu depuis mon enfance jusqu'à ce jour(18). Toute la nuit l'esprit de Dieu était dans mon âme et dès l'aube je faisais ce qu'il aimait. J'ai pratiqué la justice j'ai detesté l'iniquité.. ô vivants je ferai que vous soyez instruits des volontés de Dieu. Je vous juiderai vers la voie de vie.. heureux celui que son coeur conduit vers elle. Celui dont le coeur est ferme sur la voie de Dieu, affermie est son existence sur la terre..»

Petosiris vécut sans doute jusqu'aux dernières années de Ptolemeé Soter(19) (285) mais un fait est certain c'est qu'au milieu du III siecle, on venait déja visiter son tombeau comme un lieu de curiosité ou de pélerinage ; la lègende s'empare de son personnage. Des graffiti de touristes grecs montrent qu'il était célèbre «J'invoque Petosiris dont le corps est sous la terre mais dont l'âme réside au sejour des dieux : sage, il est réuni à des sages». La vie édifiante(20) de Petosiris peut servir d'exemple aux gens du XXe siècle de notre ère.

Beni-Hassan

Cette nécropole du Moyen-Empire contient les tombes des nomarques du XVe nome, celui du lièvre, ceux du nome de la Gazelle (XVIe nome). Sur les 39 tombes plusieurs contiennent celles de nomarques dont le rôle est d'importance. Nous citerons :

1) **Le prince Amenemhat dit Ameni ou Imeni**

Il prit le soin, dans un texte biographique de 32 lignes, de nous montrer son importance en l'an 25 de son règne de nomarque, ce qui correspond à l'an 43 du règne de Sesostris I. Ce prince de la Gazelle(21) S'accorde 30 titres «Seigneur héréditaire» mais aussi «ami unique, le connu de sou roi»(22) il épousa une prêtresse d'Hathor et de Nefrous, Hotepit. Il raconte comment il administra son nome, et parle comme un souverain : «J'ai été bienveillant, j'ai été un souverain que sa ville aimait ; je n'ai maltraité aucune fille de bourgeois ; je n'ai pas opprimé de veuve ; je n'ai gêné aucun cultivateur, et n'ai pas contrarié de bergers, je n'ai jamais enlevé à un supérieur ses gens pour des corvées» «Dans ma région personne n'était misérable ; de mon temps personne n'était affamé. Quand sont venues les années de famine (= inondation insuffisante) j'ai cultivé tous les champs du nome jusqu'à sa frontière méridionale et septentrionale et ainsi j'ai nourri le peuple.. je n'ai pas fait de distinction dans mes dons entre grands et petits lorsque sont revenues les grandes inondations apportant du blé et toutes choses, je n'ai pas exigé les arrérages des tributs de blé»(23).

Voila l'idéal d'un nomarque du Moyen Egypte qui avait recu en fief, de Sésostris I, le XVIe nome et sut l'administrer avec justice, secourant le peuple en temps de disette, n'augmentant pas les impôts en temps d'opulence, indépendant mais respectueux de ses devoirs envers le roi auquel il fournit les produits obtenus par un troupeau de trois mille taureaux et leurs vaches qu'il avait donné aux temples du nome.

De plus Ameni sait, à l'occasion, remplir ses devoirs envers le roi, quand celui-ci entreprend une guerre. Ainsi une 1ere fois, avec son père, il accompagne le roi dans une campagne contre les tribus nubiennes. Il va loin dans le sud et rapporte beaucoup d'objets précieux ; alors le roi lui fait des éloges qui «atteignaient jusqu'au ciel». Dans une 2eme campagne, en Nubie, avec le prince héritier, Ameni dirige 400 des meilleurs soldats et rapporte de l'or extrait des mines. Le prince le remercie. Une 3 eme Campagne militaire est faite dans le même but, avec 600 hommes mais pour rechercher l'or dans les montagnes entre l'Egypte et la mer Rouge. Il puet se vanter de n'avoir perdu aucun soldat. Apprécié de son roi, il dirige même la construction du tombeau de son maître et a l'honneur de naviguer dans le bateau des enfants royaux.

Ainsi notre Ameni, chef du chef des soldats, chef du directeur des greniers du nome, du directeur des troupeaux de boeufs du nome, du directeur du désert, chef d'une phalange d'intendants de maison, chef d'une armeé de scribes put-il être déposé avec honneur dans le tombeau qu'il avait fait orner.

2) D'autres nomarques de la XIIe dynastie enterrés à Beni-Hassan furent célèbres aussi, les **Khnoumhotep** I (24), III (25), IV (26) Kheti(27), par exemple tous sont «Seigneurs héréditaires, ami unique, connu du roi, gouverneur du désert oriental». Ils sont princes de Monat Khoufou et de la Gazelle(28). Ils ont un nombre impressionnant de titres (22 pour Khnoumhotep III) (29). L'arriveé d'une caravane d'Asiatiques à travers le désert semble un fait assez remarquable pour que ce même Khnoumhotep III le fasse représenter dans sa tombe (an VI de Sesostris II). Le chef sémite Abichai s'incline devant le nomarque en lui apportant plusieurs produits de son pays, le précieux kohol pour les yeux entre autres, 34 Amou l'accompagnent(30).

El-Bercheh

Le prince du nome du Lièvre, **Djehouti-hotep II,** réussit à conserver son indépendance, ou presque, sous la XIIe dynastie(31). C'est ce qu'il voulut exprimer dans les peintures de sa tombe à El Bercheh. Malheureusement les tombes de cette nécropole, exploiteés dépuis longtemps par les carriers sont dans un état lameutable. On distingue encore tne peinture qui dépeint bien le le caracterè de ce nomarque. Il s'était fait tailler une statue colossale qui le représentait. Elle ne mesurait pas moins de 6m 50 et provenait des carrières d'albâtre d'Hat-Noub situeés dans une zone désertique à 5h de marche de la valleé du Nil. Pour transporter le colosse cela demandait beaucoup d'habileté et de bonnes volontés. Un grand tableau et une inscription expliquent comment on s'y prit : «comme le chemin sur lequel la statue s'avançait était très malaisé.. Je fis venir des troupes [de Jeunes gans] pour qu'ils préparassent le chemin ainsi que des corporations de sculpteurs et de tailleurs (de pierre) .. Mon coeur jubilait et tous les habitants de la ville poussaient des cris de joie. C'etait un spectacle prodigieux».. Tout le monde était plein de zèle pour venir en aide «au prince tant aimé».. «un seul avait la force de mille»(32).

On voit que la modestie n'habitait pas le coeur de Djehouti-hotep(33).

Assiout

Un philosophe dont l'oeuvre est encore connue et apprécieé de nos jours, comme étant une étape importante dans l'histoire des idées, **Plotin,** est né à Assiout d'une famille romaine qui était venue habiter en cette ville (205 - 270). Néo-platonicien, disciple de l'école d'Alexandrie, Plotin enseigna à Rome, une philosophie où il fond les doctrines antiques et le christianisme. Nous possédons encore un certain nombre d'ouvrages de cet auteur, entre autres : les **Ennéades** qui ne sont pas sans rappeler l'Ennéade héliopolitaine.

Un historien, Vacherot, dit du néo platonisme de Plotin : «c'est un enchaînement systématique de conceptions profondes sous les formes éblouissantes de l'imagination orientale.. c'est la synthèse la plus vaste, la plus riche, la plus forte peut être qui ait paru de l'histoire de la philosophie». Nous connaissons sa vie par un de ses disciples, écrivain aussi : Porphyre(34).

Entre la IX - XIIe dynastie le nome d'Assiout nous a fournit les noms de 5 personnages importants, trois portent le nom **Hapi-Djefai** I(35), II(36), III(37) et deux appelés **Kheti** I(38), II(39). Ils furent tous gouverneurs du nome. Le premier fut le plus célébre, il declare dans ses inscriptions : «J'ai satisfait Dieu par ce qu'il aimait, me souvenant que je parviendrais à Dieu le jour de ma mort»(40). Il a exécuté des projets commerciaux à kerma, et il fut nommé gouverneur du nouveau territoire. Il y mourut et fut enterré sous un grand tertre qu'on a découvert et où l'on a récemment pratiqué des fouilles(41).

Haute Egypte

Sohag et Akhmim

1) Selon les auteurs coptes des premiers siècles du christainisme dont l'imagination était des plus fécondes et qui travestissaient l'histoire sans scrupule.. **Dioclétien,** L'empereur romain serait né en Egypte près d'Akhmim(42) et se serait appelé Aghrabida-Berger chez les parents du jeune Psoté qui devait devenir évèque de Ptolemaïs, mais sera martyrisé par Dioclétien, Aghrabida en question ne savait que jouer de la flûte mais avec un tel art qu'il faisait danser les chèvres. Ensuite il quitte l'Egypte pour la Syrie

et devient palefrenier dans les écuries impériales d'Antioche. Là il fait danser les chevaux au son de sa flûte. Une fille de l'empereur suit la scène, devient amoureuse du jeune homme et l'épouse en l'absence de son père qui était parti en guerre et y mourut. La princesse profite de cette situation pour faire reconnaître son mari comme empereur. Il fait exiler en Egypte tous les prétendants au trône et ils y deviennent martyrs.

Le seul aspect historique exact, évidemment, ce sont les persécutious de Dioclétien contre les chrétiens d'Egypte.

2) Un autre personnage important est bien né a'Akhmim (Panopolis), c'est la curieuse figure du moine **chenoudi**(43), ardent, fanatique, grand réformateur du cénobitisme au IV siecle, qui fit construire près de Sohag les deux grands couvents qui peuvent encore se visiter : le couvent Blanc et le couvent Rouge qui furent des mines de manuscrits coptes dispersés aujourd'hui dans des collections un peu partout. Chenoudi jouissait d'une grande réputation dans sa région. Son éloquence convainquait son public de gré ou de force. Il n'hésitait pas à faire détruire temples et mêmes villages lorsqu'il y trouvait des magiciens, des écoles de paganisme, de sorcellerie. Parfois d'ailleurs sa charité l'amenait à nourrir pendant des mois le canton d'Akhmim qui avait été ruiné par des invasions diverses.

Région de Koptos (Kouft)

Le grand évêque **Pacôme** fonde, au milieu du IV siècle, à la suite d'une vision, un couvent qui devint célèbre(44).. Aa sa mort il dirigeait dix de ces couvents (vers 348).

Dans la même région, au début de la domination perse (615 - 626) l'évêque **Pisenthios**(45), moine, puis chef de monastère à Koptos exerce une énorme influence et sert de médiateur entre les fellahs et les maîtres étrangers.

Henou

Sous Se'ankhéré — Montouhotep IV — XIe dynastie, est «commandant du désert, grand des montagnes, pacifient les deux terres pour le Roi»(46). Il est fort connu par l'inscription qu'il laissa à Hammamât lors d'une mission qu'il y remplit(47).

«.. Sa Majesté m'envoya pour équiper des bateaux de Byblos à destination de Pount.. pour chercher l'encens frais.. Je partis de Koptos.. je me mis en marche avec une armée de trois mille hommes». L'expédition est si bien préparéé que chacun reçoit deux cruches d'eau et vingt pains par jour ; on creuse des puits dans le pays d'Edahet et dans celui d'Eaheteb.. «lorsque je suis revenu de la mer j'apportai à Sa Majesté tous les produits que je trouvai dans les districts du pays du dieu..». Au retour il passe par les carrières de Hammamât d'où nous est vesteé cette si utile inscription. Il était alors «directeur général du trésor» .. «jamais on n'avait rapporté chose pareille à la cour du roi.. mais moi j'ai fait cela pour la Majesté de mon maître parce qu'il m'aime tant.. parce qu'il m'a assigné la 1ére place dans sa maison avant tous les autres grands.. je suis son serviteur préféré..».

Remarquons en passant que la route de l'encens était donc connue à l'époque.

Il est possible que ce Henou soit celui dont la tombe a été retrouvée à Deir el Bahari(48) et qui d'après une stèle fragmentaire(49) exerça d'importantes fonctions sous un roi qui précéda Séankheré - Montouhotep IV un Montouhotep II ou III.

Abydos

Le grand génèral Ouni a vécu à la fin de l'Ancien-Empire sous la VIe dynastie. Son Souvenir reste vivant bien que sa tombe en forme de mastaba(50) soit des plus modestes ; une petite chambre d'offrandes lui est adossée mais, par chance, le bloc unique qui sert de fond porte une longue inscription racontant la vie et les exploits d'Ouni ; grâce à cette inscription nous connaissons beaucoup de détails sur cette époque lointaine et sur la fonction de «gouverneur du Sud» qui sera remise en usage par Merenré en l'honneur d'Ouni, lequel ne manque pas de souligner le caractère exceptionnel de la fareur qui lui est faite par le Roi(51).

Ouni est né sous le règne de Teti et rapidement il devint fonctionnaire royal. Sous Pepi I il sera prêtre à la pyramide royale et enfin juge. Il a la confiance de son maître(52) :

«Sa Majesté avait plus grande confiance en moi qu'en tous ses princes, ses nobles, ses serviteurs». Il est chargé d'une mission

à l'intérieur du harem royal car «le roi avait plus de plaisir avec moi qu'avec tout autre serviteur».

Pepi lui offre un sarcophage en bon calcaire de Toura «transporté sur un bateau royal.. jamais encore chose semblable n'avait été faite pour un serviteur du roi»(53). De même c'est Ouni et un autre juge qui sont chargés d'une instruction ouverte contre la grande épouse royale Iamtes.

Mais la célèbrité d'Ouni se manifeste surtout dans son rôle de général qui mène victorieusement ses soldats et chasse l'ennemi. Plusieurs fois Ouni sera le grand chef de l'armeé :

1 D'abord contre une attaque en nombre des «habitants des sables»(54) (Bédouins) qui voulaient s'etablir dans le Delta fertile : Pepi I appelle aux armes toutes les forces à sa disposition sous la direction du «chef des soldats Ouni» qui en fait était surtout juge. C'est Ouni qui commande une armée de plusieurs dizaines de milliers de soldats provenant de toutes les régions de l'Egypte et même six tribus de Nubie. «Voici, les princes des nomes, les amis les plus proches du roi, les chefs de toutes les villes de Haute et de Basse Egypte, les grands prêtres .. chacun était à la tête de ses troupes». Ouni se vante de savoir maintenir l'ordre et la justice, de sorte que la victoire égyptienne est complète dans le Delta «Sa Majesté guerroya contre les Asiatiques .. [l'armeé venait] de toute la Haute Egypte, du sud à partir d'Elephantine et au Nord à partir d'Aphroditopolis ; de la Basse Egypte partout sur les deux côtés de la fortification (?) des Nubiens d'Ezret, des Nubiens de Meza.. de yam.. de Ouaouat.. de kacou et du pays des Libyens.. c'est moi qui les dirigeais tous, bien que mon rang ne fût que celui de directeur des domaines de pharaon».

Le désordre devait régner dans les campagnes antérieures car Ouni déclare avec fierté : «Aucun ne se querella avec l'autre, aucun ne vola de la pâte de pain ou des sandales à un voyageur, aucun ne prit du pain dans aucune ville, aucun n'enleva une chèvre à qui que ce fût..».

Il n'ya, en fait, aucun détail militaire sur l'expédition elle même, mais un chant de victoire célèbre le retour :

«Cette armeé revint en paix(55)

Après avoir mis à sac le pays de ceux qui sont sur le sable
Après avoir renversé des forteresses
Après avoir coupé ses figuiers et ses vignes
Après avoir mis le feu à ses habitations
Après avoir tué ses troupes par myriades nombreuses
Après avoir ramené de très nombreuses troupes de prisonniers»
la campagne avait du être d'importance puisque il est fait allusion à des villes, des forteresses, des campagnes cultiveés de Palestine

2) Cette victoire éclatante sera suivie de 4 autres victoires car les Bédouins ne cessent de se révolter. Ouni parle d'une armeé escorteé de navires de guerre pour écraser les révoltés dans «le nord du pays des habitants des sables» (= Syrie ou Palestine ?). Et là il se montre un habile stratège à moins que l'honneur n'en revienne au roi car il attaque les ennemis par l'arrière et revient victorieux encore.

Ouni garde la confiance royale sous le règne de Merenrê. Il reconnaît avoir le contrôle de tous les nomes de Haute Egypte pour les constructions, les canaux, les redevances dûes à la couronne. Il fait évaluer les possessions de l'état et enregistrer toutes les corveés dont l'état a le bénéfice «jamais chose semblable n'avait été faite en Haute-Egypte». Il aurait même voulu innover et faire percer, à travers la 1e cataracte, un canal(56) qui devait lui permettre de pénétrer eu Nubie avec une flotte de guerre. Mais le fidele serviteur échoua dans ce projet qui ne sera réalisé que sous Sesostris III.

Thèbes

On sera pas surpris de trouver à Thèbes, dont l'importance fut si considérable, un très grand nombre d'hommes célèbres, les uns sont originaires de la ville et ne l'ont guère quitteé comme Hapou-Seneb ou Baken-Khousou, d'autres y furent appelés par leurs fonctions et tinrent à l'honneur d'avoir leur sépulture sur la rive gauche. Ils sont si nombreux qu'il faudra faire un choix parmi ces célébrités thébaines de toutes époques. Nous les présenterons par ordre chronologique.

Dès le Moyen Empire — Un porteur du sceau royal, père divin, chef des porteurs des sceaux dans le pays entier, ami unique du

roi Montouhotep III sous la XIe dynastie, chancelier, se fit construire un immense tombeau (no 311) dans la nécropole de Deir el Bahari, découvert en 1922 — 23(57). Il est connu comme **Kheti-le sage**(58) mais les maximes ont malheureusement diparu. Fils de **Douaouf ?**

Ipy vécut à la même époque. Il fut célèbre comme vizir, gouverneur de la ville et juge. Sa tombe dans la même nécropole fut découverte en 1922(59) et on parla à cette époque beaucoup de Ipy car un prêtre funéraire d'Ipy nommé Hekanakht avait déposé dans cette tombe des papyrus fort importants pour notre connaissance de le vie à cette époque. Hekanakht donne des conseils à son fils Mersou(60) relativement à l'administration de la maison et des domaines pendant la grande famine qui eut lieu alors en Egypte.

Au **Nouvel Empire**, à la XVIIIe dynastie, Thèbes a conservé le souvenir de beaucoup d'hommes célèbres.

Ineni vécut sous Amenhotep I, Thoutmosis I, II, III et Hatshepsout ; il était «directeur du double grenier d'Amon, chef de tous les travaux dans karnak, chargé de la double maison de l'or et de l'argent, autorisé à sceller tout ce qui était à sceller dans la maison d'Amon»(61).. Toutes charges de très haute importance. C'était l'époque où ces hautes charges appartenaient encore à des laïcs et non aux grands prêtres d'Amon. Sur sa tombe à cheikh Abd el-Gournah, no 81(62), les inscriptions donnent des éléments de biographie et nous savons ainsi qu'il survécut à trois rois et mourut sous Hatshepsout, mais toujours : «j'étais un favori du roi en chaque place ; il fit plus pour moi que pour tous ceux qui m'ont précédé. J'atteins le vieillesse et continue à avoir chaque jour la faveur de Sa Majeste»(63).. «Sa Majesté me louait, m'aimait reconnaissant ma valeur à la cour.. m'honorait ; Elle emplit ma maison d'or et d'argent avec tout ce qui est beau dans la joie du coeur, je ne montrai jamais de traitrise.. je ne fis pas de mal.. je ne blasphémai pas les choses sacrées..»

Rarement personnage peut se vanter d'avoir été ainsi le favori de plusieurs rois.

Comme nous le disions plus haut, **Hapouseneb** de famille sacerdotale de karnak, suivit la tradition familiale, vécut à karnak où il fit toute sa carrière et fut enterré à cheikh-el-Gournah(64).

Nous connaissons très bien son aspect physique grâce à une statue provenant de karnak et actuellement au louvre, à une autre statue provenant du temple de Mout au museé du Caire, une autre à Bologne, une à Turin. Nous connaissons sa biographie grâce au cénotaphe qu'il se fit construire au Djebel-Silsileh no 14 et à son tombeau thébain où on déposa son corps(65). Son grand-père Imhotep était vizir en fonction sous Thoutmosis I ; son père, prêtre ouab et prêtre lecteur de 3eme classe et sa mêre peut-être nourrice royale ; son frère était porteur du sceau d'Amon ; ses fils et filles occupaient aussi des emplois religieux à Thèbes comme prêtres du culte funéraire de Thoutmosis I, chanteuses d'Amon. Notre Hapouseneb lui même fut un premier prophète d'Amon, un père divin, chef des prophètes de la Haute et Basse Egypte, chef des temples, administrateur des mêmes temples, et prêtre-sem d'Héliopolis. Sans doute aurait-il pu remplir une carrière sans histoire jusqu'à sa vielliesse mais la politique va grandement influencer sa vie. Il avait servi Thoutmosis I avec fidélité mais l'apogeé de sa carrière eut lieu sous Hatshepsout qui choisit délibérément ce grand prêtre «en tête de millions.. si excellent il était au coeur de sa Majesté». C'est elle qui le fit «chef de tous les emplois de la maison d'Amon et chef dans karnak dans le domaine d'Amon, dans toutes les terres d'Amon». Nous sommes là loin de fonctions purement sacerdotales. S'il avait la direction de tout le corps sacerdotal, s'il était chef des temples, y compris celui d'Hélipolis, et chef des prophètes de la Haute et Basse Egypte, en somme s'il était le souverain pontife de la religion équptienne faisant de tout le clergé un instrument docile entre les mains d'Hatshepsout.. ses fonctions ne se limitaient pas là.

La reine l'avait couvert d'honneurs et de dignités. Pour le temporel d'Amon, il était «chef de tous les emplois du domaine, directeur des troupeaux, comptable des vaches d'Amon» mais dans le domaine strictement politique il était «noble, compagnon unique, grand compagnon .. gouverneur du Sud, préfet et vizir (en fait il ne porte ce titre que sur la statue du louvre et la charge ne fut peut être que provisoire). Il mourut longtemps avant la fin du règne de la reine et aucun des grands travaux ne porte son nom.

Comme beaucoup de grands personnages de la XVIIIe dynastie il s'était fait construire un tombeau dans les carrières de Gebel Silsileh, peut être pour y déposer le corps en cas de decès en ce

lieu mais il ne s'agit que d'un cénotaphe. Le grand prêtre fut enterré à Cheikh-abd-el-Gournah, dans un tombeau vaste et somptueux avec le cartouche de Maât Kare mais Thoutmosis lui fit subir bien des dommages et aujourd'hui c'est un des plus ruinés de la nécropole thébaine.

Sur la statue de Bologne il se glorifie «je suis un défunt qui fut juste sur terre.. j'ai fait ce qu'aiment les hommes, ce qui plaît aux dieux.. j'ai observé les instructions du roi (= Hatshepsout) .. il ne vint jamais d'exemples de mon indignité à la cour.. on ne trouvera pas une faute dont je me fusse rendu coupable dans les temples.. il n'y a pas de mysterè que j'aie divulgué au dehors..» «Pour faire vivre le nom» de leur père Hapouseneb et son frère Cadet lui offrirent dans le temple d'Amon une statue qui devait participer aux offrandes de toutes les fêtes(66).

Hapouseneb ne fut pas le seul favori de la reine mais il eut l'avantage, Si l'on peut dire, de mourir avant sa bien-faitrice.

Senmout le grand favori n'eut pas cette chance mais ce fut à coup sôr un architecte de génie.

Nous savons peu de chose de sa biographie et sans doute devait-il être d'une humlbe famille, son père n'ayant droit qu'à l'epithète vague de «honorable». Il commenca une carrière dans l'armeé sous Thoutmosis I puis on le retrouve «chambellan» et très vite le favori d'Hatshepsout. C'est alors qu'il devient tuteur de la jeune princesse Neferrourê, fille d'Hatshepsout et de Thoutmosis II comme le présente la statue — cube de Berlin 2296, avec la tête charmante de la jeune princesse placeé devant la sienne. En même temps il devenait, ou restait fonctionnaire attaché au temple d'Amon «intendant d'Amon, directeur des champs, des jardins, des troupeaux, du double grenier d'Amon» mais aussi «grand devant les deux terres, supérieur des supérieurs et directeur des directeurs de toute **l'Egypte**»(67).

La génie de senmout est resté manifeste au cours des siècles à cause de son oeuvre d'architecte et particulierèment la construction de Deir-el-Bahari(68). Pour que la construction ne fût pas écraseé par la hauteur de la palaise il avait eu l'ideé de préparer le sanctuaire par deux rampes axiales. La dernière conduit au Saint des saints.. en coutrebas au sud une chapelle dediée a Hathor

faisait pendant à un sanctuaire d'Anubis, l'ensemble était précédé de jardins avec des arbres à encens. Senmout dans le plan qu'il adopta s'inspira directement du temple de la XIe diprastie (Montouhotep II) (69) mais avec plus d'originalité et d'audace. . on peut juger par l'impression que produisent encore aujourd'hui les deux temples de l'effet qu'ils devaient produire sous la XVIIIe dynastie quand ils n'avaient pas souffert des injures du temps. Il osa se faire représenter dans le temple de la reine, discrètement il est vrai, dans l'embrasure d'une porte où on le voit priant pour sa souveraine. Le favori qui avait construit des obélisque revêtus d'or fin pour Hatshepsout à karnak «dont les rayons se répandent en flots sur l'Egypte» pouvait tout se permettre : Il s'était fait représenter aussi à Assouan dans la carrière d'où provenaient les obélisques (70) et dans les bas-reliefs qui figurent l'expédition au pays de pount.

Senmout se prépara deux tombeaux le plus ancien est à cheikh-Abd-el-Gournah no. 71 (71), d'un plan magnifigue, avec un vestibule à piliers carrés : la frise a têtes d'Hathor et les Crétois apportant des tributs sont parmi les détails pleins de finesse et d'originalité du tombeau. L'autre tombeau est à Deir el Bahari même, sans doute pour reposer près de sa souveraine (72). Il fut découvert en 1925 — 1927 les travaux du Metropolitan Museum dans la dépression creuseé de main d'homme au Nord de la rampe mirent à jour une série de statues d'Hatshepsout qui avaient été jeteés là et mutileés par ordre de Thoutmosis III. Le tombeau de Senmout est à l'angle Sud Ouest de la carrière. Une des chambres a un croquis du profil de senmout. Une autre a un plafond astronomique avec décans et constellations d'autres chambres sont orneés de peintures parfois inacheveés (73). On sait que Thoutmosis III se vengea cruellement sur tout ce qui lui rappelait le souvenir détesté de Hatshepsout et il ravagea en particulier toutes les effigies du «grand majordome de la Maison de la divine épouse d'Amon» favori de la reine. C'est pourquoi son corps fut déposé à Gournah.

Sous **Thoutmosis III et Aménophis II**, un grand personnage est resté célèbre c'est le vizir **Rekhmiré** dout tous les visiteurs connaissent le tombeau no 100 dans la nécropole de chiekh-Abd-el-Gournah (74), un des plus beaux, des plus complets, malgré les dégradations.

Nous savons peu de choses sur sa biographie sinon que sa femme s'appelait Merit et qu'il préside avec elle, leurs fils et leurs

filles, le banquet funèbre comme il est représenté dans la zeme salle de son tombeau. Mais il fut vizir du sud et les attributions du vizir nous sout relativement bien connues grâce aux peintures et aux inscriptions de sa tombe. De même que son loyalisme envers son souverain Thoutmosis III «dieu tutélaire sous la main duquel vivent les hommes, le père et la mère de l'humanité, l'unique et sans pareil»(75). **Même fidélité** sous Aménophis II : il ira recevoir les colliers d'or de récompense. A partir de l'an 28 de Thoutmosis, Rekhmiré gouverne le sud, mais il gouverne pour le roi(76). On le voit dans la 1ere salle de son tombeau recevant les tributs des peuples étrangers, cérémonie qu'il dirigeait comme gouverneur de Thèbes. Il y a les envoyés de pount, ceux de kefti (= les Crétois) les nègres de kouch, les Retenou (= Syriens et Assyriens) et des étrangers divers surtout des femmes.

Dans a ze salle il est représenté de taille colossale par rapport aux travailleurs du temple d'Amon auxquels il distribue des vivres, il y a même des esclaves syriennes auxquelles on fait la distribution annuelle de vêtements et d'huile Les inscriptions surtout sont significatives du rôle de Rekhmiré et de l'ideé que ce noble personnage se faisait de son devoir(77) :

«Veille (lui dit le roi) sur tout ce qui se fait dans la salle du vizir, c'est l'ordre du pays tout entier.. A la vérité, être vizir n'est pas doux, mais amer, car il s'agit de ne pas avoir d'égards pour les princes et les autorités, de ne réduire à son profit absolument aucun être humain au rang d'esclave. Ce qu'il doit faire, c'est s'en tenir à la loi.. de façon que tout homme obtienne ce qui est son droit traite celui que tu connais comme celui que tu ne connais pas, celui qui est proche du roi, comme celui qui en est éloigné». On doit craindre le vizir mais sans exagération : «Ne te mets en colère, qu'au sujet de ce qui doit provoquer la colère» .. «celui qui doit avant tous les hommes, pratiquer la justice, c'est le vizir».

Ainsi le vizir avait un idéal de justice, de bonté, de respect des hommes qu'il gouvernait, correspondant certainement à une realité qu'il dût chercher à réaliser sa vie durant.

Thouti ou Djhouti était inspecteur du trésor, inspecteur des travaux sous Hatshepsout et Thoutmosis III. Il a participé à beaucoup de travaux à karnak dans le rôle de «Inspecteur de la double maison de l'or et de l'argent». Il présidait à l'emploi de l'or et de

l'argent dont on faisait alors grand usage en architecture. Sa tombe à Drah-abou-el-Naggah(78) (no 11) a plusieurs inscription(79) disait qu'il reçut de son souverain une coupe en or en récompense(80) des services rendus dans les îles de la Méditerraneé en remplissant les coffres de sa Majesté de lapis-lazuli, d'argent et d'or, mais le plus curieux est la victoire qu'on lui attribue comme général de l'armée à Joppé. Le prince de la ville de Joppé en Palestine s'était révolté contre le roi d'Egypte qui envoie une armeé commandeé par Djhouti pour soumettre les rebelles. Djhouti use d'un stratagème ressemblant à celui des Grecs pour s'emparer de la ville de Troie : il réussit à introduire dans Joppé de grandes jarres à huile dans lesquelles étaient enfermés des soldats (500), 500 autres apportent ces jarres dans la ville et les Egyptiens s'emparent de la ville. Djhouti ecrivit ensuite au roi(81) «Rejois toi ! Amon ton bon père, t à donné le prince de Joppe avec ses hommes et sa ville, ordonne donc de les emmener captifs, afin que tu emplisses la maison de ton père Amon d'esclaves hommes et femmes». Ce ne serait pas une légende car le Museé du Louvre a une coupe en or qui serait celle de Djhouti et le Museé de Berlin a le poignard du général.

Sous **Aménophis II** plusieurs personnages furent célèbres, nous en retiendrons trois.

1) **Nebamon**, scribe et médecin du roi dont la tombe est à Drah-Abou-el-Neggah no 17 (82). Il avait une telle réputation que l'on venait le consulter de toutes parts. les peintures de son tombeau représentent par exemple des Syriens dans leurs costumes orientaux qui viennent vers lui. Le tombeau est resté très beau.

2) Le héraut Antef sous Thoutmosis III et Aménophis II, connu grâce aux inscriptions de son tombeau no 155 à Drah-Abou-el-Neggah(83) également ; nous voyons combien était importante la fonction d'un héraut(48), intermédiaire entre le roi et les gens de l'extérieur. Il était chargé de missions se rapportant aux différents

domaines de l'administration ; il était maître des cérémonies. Antef de plus était gouverneur du nome thinite et en cette qualité, il exerçait son autorité sur toute la région des oasis. Sa tombe répre sente une scène de porteurs d'offrandes qui sont des étrangers, hommes et femmes. Mais la noblesse du caractère du personnage est manifesteé sur la belle stèle(85) du Louvre no 26 qui le représente. Il dit : «Quant à mon coeur, il m'a fait accomplir ces actions tandis qu'il guidait mes affaires. Il fut pour moi un témoin excellent. Je n'ai pas enfreint ses paroles tant je redoutais de contrevenir à sa direction, tant je réussissais remarquablement à cause de cela. J'excellais parce qu'il faisait que j'agisse, j'étais parfait lorsqu'il dirigeait.. C'est un jugement du dieu qui est en tout corps. Ce fut un heureux celui qu'il a guidé vers la voie parfaite de l'agir..»

Seul un vrai sage peut écrire de telles paroles.

3) **Mery**, grand prêtre d'Amon(86) sous Amenophis II semble être le 1er à avoir établi le contrôle des souverains pontifes sur tout «le temporel» du temple d'Amon. Il était en effet : «directeur des troupeaux et des greniers d'Amon, intendant d'Amon, directeur des champs d'Amon, directeur de la Double maison de l'Argent, directeur de la doublé maison de l'or», c'est à dire du trésor du temple.

Il succéda comme grand-prêtre à Menkheperrêseueb. Il était originaire de koptos où son père Nebpehtiré était 1er prophète de Min. Sa mère Hounay était «grande nourrice du Maître du double pays» (donc d'une grande famille) Il eut sous sa juridiction tout le clergé du pays comme «chef des prophètes de la Haute et de la Basse Egypte» et se consacra surtout au «temporel» de karnak qui était extrêmement important car, entre les anneés 23 et 42 de son règne Thoutmosis III avair fait don à Amon de trois villes captureés au Liban, de 1578 esclaves syriens, de pierres précieuses, d'or, d'argent, vaisselles, troupeaux.. Mery a donc une importante gestion. Il a de plus une charge à la cour comme «chef de tout sceau au palais royal de V.S.F.», il est «gouverneur du Sud» mais il n'est pas sûr qu'il ait été vizir.

Il fut enterré à cheikh-abd-el-Gournah(87). Par précaution il avait usurpé et aménagé le tombeau d'Amoun ezeh contemporain de Thoutmosis III et mit son nom à la place de celui d'Amounezeh.

Le temps le lui permettant, il se fit construire un tombeau plus vaste ; le cartouche d'Amenophis II reste très lisible. Son père et sa mère sont représentés assis pour le repas funéraire. Non loin est le petit tombeau bien conservé de Thouty le «serviteur de la table et majordome du 1er prophète d'Amon, Mery».

Sous Thoutmosis IV nous retiedrons **deux** noms :

Menna et Amenemhat.

Menna ne serait peut être pas à proprement parler célèbre, S'il n'avait su se faire construire à Cheikh Abd el Gournah un tombeau que le temps a respecté et qui est, par suite, des plus visités(88). C'est le tombeau no 69 dont les couleurs sont resteés fraiches et les scènes tres bien dessineés. Ce peut être un prototype d'un tombeau thèbain à la XVIIIe dynastie. On y trouve les scènes classiques d'adoration au soleil le vant, d'adoration devant Osiris — Ounnefer par Menna, sa femme et ses serviteurs ; des scènes avec les traveaux agricoles, la comptabilité de la recolté et des grains ; des scènes de concert, d'offrandes ; de chasse et pêches, c'est à dire des scènes de funérailles très complètes dont le pélerinage à Abydos. Il y a des détails charmant(89) comme une glaneuse qui se restaure tandis que l'enfant joue avec ses cheveux. Dès sa construction le tombeau et sa décoration furent sans doute très appreciés puisque le célèbre Montouemhat voir plus loin) s'en inspira pour son propre tombeau(90).

De Menna lui même nous savons qu'il était scribe du domaine de la couronne.

Amenemhat, heureusement, nous est beaucoup mieux connu que Menna. C'est un homme au destin des plus curieux car d'une très humble origine il aurait pu rester un obscur «prêtre ouab(91),

directeur de l'atelier des fabricants de sandales» dans le temple d'Amon, comme son père Thouthotep et fils de la dam Mymy qui n'a aucun titre. Mais ce thébain né et mort à Thèbes(92) et qui s'est rarement éloigné de sa ville, à ce qu'il semble, sa vie durant, sera grand prêtre d'Amon un pontife présentant la particularité d'avoir été exclusivement un homme religieux. Il succèdera à Mery.

Elevé au temple de karnak il dit : « je fus le bâton de vieillesse de mon père tant qu'il fut de ce monde. j'allais, je venais à son commandement, sans jamais transgresser les paroles de sa bouche. J'exécutais scrupuleusement ce dont il me chargeait.. Je ne le regardais pas fixement mais je baissais la tête quand il me parlait.. Je ne connaissais pas la servante de sa maison, je n'avais pas de relation avec elle..». Ce fils docile, à 54 ans, n'occupe encore que de petits emplois dans le temple comme «prêtre-ouâb des sandales du dieu, chef de la cuisine, superintendant du persounel». Rien ne permettait de penser qu'il serait un jour souverain pontife. Cependant, pour une raison ignoreé, il a été presenté à la cour et «le maître du Double-Pays' le fit avancer». A ce moment se produit un changement de règne : Thoutmosis IV succède à Amenophis II et le nouveau souverain le fait entrer comme père divin dans le collège sacerdotal et il est invité à rédiger «le grand nom» du nouveau roi(93).

On ignore comment et pourquoi il gravit d'un pas rapide les échelons du pêre divin jusqu'à celui, au sommet, du Premier père divin d'Amon. Dut-il cette ascension, à ses merites, à la faveur royale ?, mais il est grand prêtre vers l'âge de 60 ans «chef des mysterès dans karnak, chef de la terre entière, bouche causant de la satisfaction dans les temples, admis à entrer au ciel (= le sanctuaire) et à voir ce qui y est directeur de la double Maison de l'or et de la double maison de l'argent (du temple d'Amon), prince du temple ? de Geb, chef des prophètes de la Haute et de la Basse Egypte». Il faut ajouter l'antique titre de «maître des deux sièges d'Hermopolis». Malgré tout cela il ne semble pas qu'il ait ambitionné ou qu'il ait été admis à exercer en dehors de quelques petites charges au «palais de V.S.F.», aucune haute fonction dans l'administration de l'Etat.

Outre la stèle biographique nous le connaissons un peu grâce à sa statue trouveé par Naville à Deir el Bahari, à Son cenotàphe à Gebel Silsileh et à son tombeau à cheikh abd el Gournah, aujourd'hui ruiné qui contenait la Stèle (no 97) et où l'on peut lire encore quelques textes epars sur les murs et le plafond.

Les dignités civiles dont il était revêtu sont de caractère purement honorifiques : «prince, grand d'amour, compagnon unique, grand compagnon, aimé, porteur du sceau royal, grand au palais royale de V.S.F.».

Il mourut laissant six filles et cinq fils dont l'aîné était prêtre ouab d'Amon.

(à suivre)

Notes

(1, Revue de la Societe Egypt d'etudes historiques, t. 24 (1977), p. 37 — 59. Nons espérons achever lêétude dans 3e article. Nous arrêtons ici aux hommes célèbres thèbains sous **Thoutmosis IV.**

(2) Voir de Meulenare, Herodotos, p. 61 ; Drenkhahn, MDIAK 23 (1968), p. 115 — 116 ; cité par PN I, 296, 13 ; t. II, p. 385.

(3) Drioton-Vandier, l'Egypte, éd. (1152), p. 581.

(4) Voir Daressy, ASAE 18 (1918), p. 30.

(5) Ce personnage est connu par deux statues : Statue Mus. du Caire (inédite), Copie du texte communiqueé par Mr. leclant. Statue Caire CG. 653 = Borchardt, Stat. und Statuett. 11, p. 197 = Daressy, op. cit., p. 30 = Gauthier, DG IV, p. 84 = Reisner, ZAS 37 (1893), p. 69 (25) = PM IV, p. 46.

(6) La bibliographie complète de cet important document est signaleé dans : leclant, Montouemhat, p. 239 ; Barguet, le temple d'Amon - Rê, p. 52 (4) ; Caminos, JEA 50 (1964), p. 71 — 100, pl. 8 — 10 ; Gauthier, LR IV, p. 84 (f) ; de Meulenaere, op. cit., p. 27 n. 69 ; Id.,le Surnom egyptien, p. 13 (40) ; Jelinkova, ASAE 54 (1957), p. 287 n. 44 ; Drenkhahn, op. cit., p. 115 ; Drioton-Vandier, op. cit., p. 580 ; PM, Theban Temples 11, p. 11.

(7) Benson — Gourlay, The temple of Mut in Asher (1899), p. 258, 374 — 375.

(8) Weigall, Hist. de l'Egypte anc., p. 213.

(19) Inscription du temple de Mout à karnak, voir Daressy, op. cit., p. 31 = Benson — Gourlay, op. cit, p. 374 — 75 pl. 20 = Griffiths, Rylands library 111, p. 73 = PM, Theban Temples, p. 91 (12).

(10) Drioton — Vandier, op. cit., p. 617.

(11) Capart, Un romain Vécu il y a 25 Siecles 1914), p. 10 ; Griffith, Rylands library 111, p. 108, et p. 248 (texte).

(12) Pour la date, voir Christophe, ASAE 54 (1957), p. 92 — 93.

(13) Sauneron, les prêtres de l'Ancienne Egypte, p. 17, 20, 61, 103.

(14) Lefebvre, le Tombeau de Petosiris, p. 5 et p. 111.

(15) Drioton — Vandier, op. cit., p. 613.

(16) Lefebvre, ASAE 20 (1920), p. 27.

(17) Lefebvre, le Tombeau de Petosiris, texte 58, 1. 12 ; 61, 1. 12 ; Id., ASAE 20 (1920), p. 57 ; Posener, Domination Perse, p. 11 n. (k).

(18) Courayer, le chemin de vie en Egypte (Extrait de la Revue Biblique 56 (1949), p. 419 ; Vercoutter, BIFAO 49 (1950), p. 88 ; Otto, Gott und Mensch, p. 43 ; Wilson, JNES 13 (1954), p. 251.

(19) Pour la date, voir le febvre, ASAE 20 (1920), p. 120 — 121.

(20) Sauneron, op. cit., p. 9 — 11.

(21) Erman, L'Egypte des Pharaons, p. 133 — 134.

(22) Newberry, Beni-Hassan I, p. 9 — 38 pl. 3 — 21 = UrK VII, 18, 22 = PM IV, p. 141 — 144.

(23) Newberry, op. cit. I, p. 23 — 27 pl. 8 = LD 11, 122 = Maspero, RTI (1879), p. 171 — 174 = Erman, op. cit., p. 134.

(24) Du temps d'Amenemhat I = Newberry, Beni-Hassan I, p. 79 85 pl. 44 — 47 = PM IV, p. 149. Quant à knoum-hotep II, il fut scribe des archives royales» = Newberry, op. cit. I, p. 73 — 77 et pl. 41 = PM IV, p. 149.

(25) Newberry, op. cit. I, p. 41 — 72 pl. 24 — 38 = LD II, 127 = PM IV, p. 144 — 145 = Vandier, Manuel d'archéologie II, p. 324 — 325.

(26) Newberry, op. cit. I, p. 7 pl. 39 — 40 = PM IV, p. 149.

(27) Newberry, op. cit. II, p. 51 — 62 pl. 10 — 19 = Chapollion, Not. Descr. 11, p. 334 = LD I, 60 = PM IV, p. 154 — 158 = Vandier, op. cit. II, p. 324 fig. 222, kheti fut le fils du chaucelier du roi de Basse Egypte, **Bakt 111** = Newberry, Beni-Hassan 11, p. 41 — 50 pl. 4 — 8 = PM IV, p. 151 — 4.

(28) Erman, op. cit., p. 126.

(29) Newberry, op. cit. I, p. 72 pl. 29 = LD 11, 131 — 132.

(30) Newberry, op. cit. I, p. 72 et pl. 28 — 30 = LD 11, 131 — 132 = Champollion, Not Descr. II, p. 406 — 416 = Erman-Ranke, la civil. egyptienne, p. 689 = Vergote, Joseph en Egypte (1969), p. 16.

(31) Newberry, El Bersheh I, pl. 5 = LD 11, 135 g = PM IV, p. 179 — 180.

(32) Weigall, Hist. de l'Egypte ancienne, p. 77 — 78 = Erman, op. cit., p. 138 = Newberry, El Bersheh I, p. 17 et pl. 12 — 15 = PM IV, p. 180 (14 — 15).

(33) Un autre prince du nome du lievre fut célèbre : Djehouti-nakht IV = Newberry, op. cit. 11, p. 17 — 26 pl. 4 — 9 = PM IV, p. 177.

(34) Amelineau, Resumé de l'histoire de l'Egypte, p. 226.

(35) Reisner, JEA 5 (1918), p. 79 — 98 = Griffith, The inscriptions of Siut and Der Rifeh, pl. 1 — 10 = PM IV, p. 261 — 262 ; Montet, kemi I (1928), p. 58.

(36) Griffith, op. cit., pl. 10 = PM IV, p. 262 (de la XII dyn).

(37) Moss, JEA 19 (1933), p. 33 = PM IV, p. 264 (du temps d'Amenemhat II).

(38) Griffith, op. cit., pl. 15= PM IV, p. 264 (de la IX — X dyn).

(39) Griffith, op. cit., pl. 13, 14, 20 = PM IV, p. 263 (Merkaré — X dyn).

(40) Drioton-Vandier, op. cit., p. 64.

(41) Weigall, op. cit., p. 73.

(42) Amelineau, op. cit., p. 207.

(43) Id., op. cit., p. 230, 233, 237.

(44) Amelineau, Monuments pour servrir à l'histoire de l'Egypte Chretienne II, p. 70 — 71.

(45) Guide Bleu Hachette, p. 291.

(46) Erman-Ranke, op. cit., p. 677 — 679.

(47) Gouyat-Montet, Ouadi Hammamât, p. 114 ; Weigall, op. cit., p. 69.

(48) Drioton-Vandier, op. cit., p. 269 — 270.

(49) Hayes, JEA 35 (1949), p. 43 — 49.

(50) PM V, p. 72.

(51) Erman, Histoire des Pharaons, p. 100 — 105.

(52) Mariette, Abydos II, pl. 44 — 5 = Sethe, Urk I, 98 — 110 = Stracmans, la carriere du Gouveneur Ouni in Ann. de l'Inst. de phil. et d'Hist. Orien. 111 (1935), p. 509 — 544 = Erman, ZAS 20 (1882), p. 1 — 29 = Tresson, Bibl. d'Etude 8 = Maspero, RT 13 (1890), p. 203 — 204.

(53) Drioton-Vandier, op. cit., p. 233 = Breasted, AR I, § 306 — 315 = Daumas, la civil. de l'Egypte pharaonique, p. 73.

(54) Erman-Ranke, op. cit., p. 898 — 701.

(55) Daumas, op. ict., p. 392 ; lichtheim, Ancient Egyptian

literature (1973), p. 18.

(56) Drioton-Vandier, op. cit., p. 273.

(57) Winlock, The Museum's Excavation at Thebes in N.Y. Metro. Bull. pt. 11 (1923), p. 12 — 19 fig. 4, 7 — 12 = PM, Theban Necropolis I (1927), p. 169 — 170 = Vandier, Manuel d'archeologie II, p. 327 — 328.

(58) Guide Bleu Hachette, p. 376.

(59) Winlock, Excavation at Thebes in N.Y. Metro. Bull. pt. 11 (1922), p. 33 — 34 fig. 29, 32 — 34 = PM, op. cit. I (1927), p. 170 = Vandier, Manuel d'archeologie II, p. 329 fig. 226.

(60) James, The Hekanakhte Papers (1961), p. 5 ; Weigall, op. cit., p. 68 ; Drioton-Vandier, op. cit., p. 269.

(61) Lefebvre, Hist. des grands pretres, p. 54.

(62) Boussac, le tombeau d'Anna in MMIFA 18 = PM, op. cit. I, p. 108 — 109.

(63) Sethe, Urk IV, p. 53 — 62 (20) = Bouriant, RT 12 (1892), p. 106 — 107 = Breasted, AR 11 § 341 — 342 = Weigall, op. cit., p. 103, 106 —107 = Daumas, op. cit., p. 86 = Drioton-Vandier, op. cit., p. 338.

(64) PM, op. cit., I, p. 96 — 97.

(65) Lefebvre, op. cit., p. 55 — 56, 65 — 66, 76 — 81, 228 — 230 ; Benson-Gourlay, op. cit., p. 20 ; Urk IV, p. 471 — 488 (156) = Breasted, AR II § 388 — 390.

(66) Daumas, op. cit., p. 85.

(67) Sethe, Urk IV, p. 395 — 415 ; Breasted, AR II § 345 — 368 ; Barguet, CdE 55 (1953), p. 23 — 27 ; Allen, AJSL 44 (1928), p. 49 — 55.

(68) Daumas, op. cit., p. 451 ; Drioton-Vandier, op. cit., p. 475 ; Vandier, Manuel d'archeologie II, p. 670 — 680.

(69) Drioton-Vandier, op. cit., p. 475.

(70) Erman, L'Egypte des Pharaons (1952), p. 181.

(71) PM, op. cit. I, p. 99.

(72) Davies, Ancient Egyptian Paintings, Chicago (1936), pl. 14.

(73) Bull. Metro. Mus. of Art, part II (1928) (1925 — 1927), p. 32, La mission a retrouvé également la tombe des parents de Senmout, voir Id. 1937 (1935 — 1936), p. 5.

(74) PM, op. cit., I, p. 129 — 130 = PM, Private Tombs, p. 212 (15) = Newberry, The life of Rekhmare (1900), p. 15 = Davies, The tomb of Rekhmire (1934), pl. 106 — 122 = Virey, le tombeau

de Rekhmara (MIFAO V), p. 1 — 172 = Weill, Recherches II, p. 13 ; Settgast, Bestattungs, p. 100 — 102 = Vandier, Manuel II, p. 560 ; Id. CdE 19 (1944), p. 40 — 42 = Junker, MDIAK 9 (1940), p. 14.

(75) Aldred, les Egyptiens (1965), p. 191.

(76) Sethe, Urk IV, p. 1071 — 1173 ; Breasted, AR II § 663 — 762.

(77) Drioton-Vandier, op. cit., p. 464 ; Erman-Ranke, op. cit., p. 201 — 202.

(78) PM, Theban Necropolis I (1927), p. 58.

(79) Sethe, Urk IV, p. 448 (140), 448 — 9 (140) = Spiegelberg, RT 23 (1901), 118 — 119.

(80) Drioton-Vandier, op. cit., p. 406, 496.

(81) Erman, op. cit., p. 184.

(82) PM, Private Tombs, p. 31 (11) ; PM, op. cit., I (1927), p. 59 = Newberry, Theban Necropolis, p. 13 = Settgast, op. cit., p. 100, 117 pl. 12 = Save-Soderbergh, Four Eighteenth Dynasty Tombs, p. 30 — 31 et pl. 24.

(83) PM, op. cit., I (1927), p. 145 = Vassali, I Monumenti Istorichi Egizi (1867) p. 139.

(84) Drioton-Vandier, op. cit., p. 371 ; Daumas op. cit., p. 331.

(85) Sethe, Urk IV, p. 963 — 975 ; Breasted, AR II § 763 — 771 ; Vandier, les Antiquites égypt. au Musée du louvre (1961), p.5.

(86) Lefebvre, op. cit., p. 56, 92 — 93.

(87) PM, op. cit., I (1927), p. 113 — 114 = Virey, Tombeau d'Am-n-teh (MMFAO V), p. 337 — 361 = RT 7 (1886), p. 32 — 46.

(88) PM, op. cit., I (1927), p. 97 — 99 = Campbell, Two Theban Princes, p. 85 — 106 = Capart, Thèbes, p. 190, 216, 283, 285 = Davies, JEA 10 (1924), p. 10 — 11 pl. 5 (4).

(89) Capart, op. cit., p. 283 fig. 107.

(90) Aldred, op. cit., p. 250.

(91) Lefebvre, op. cit., p. 94 — 97, 237.

(92) Tombe no 97 = PM, op. cit., I, p. 128 = Gardiner, The tomb of Amenemhat, dans ZAS 47 (1910), p. 87 — 99.

(93) Gardiner, op. cit., p. 90.